كلاسيكيات جدل
JADAL CLASSICS

ترجمة
نور طلال نصرة

ويلا كاثر

منزل البروفيسور

رواية

جدل
منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

منزل البروفيسور

منزل البروفيسور

ويلا كاثر

ترجمة: **نور طلال نصرة**

العنوان الأصلي باللغة الإنجليزية

The Professor's House

Willa Cather

1925

الطبعة الأولى: **أغسطس 2022م**

ISBN: 978-9921-774-71-9

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر©

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر. اعملوا معنا في نشر وعي الحفاظ على حقوق الطبع والنشر، لنجعل عملية الإبداع أكثر أمانًا.

منشورات جدل©

JADAL PUBLISHING

دولة الكويت

المملكة العربية السعودية

جمهورية مصر العربية

(+965) 99900912

(+966) 554658820

WWW.JADALBOOKSTORE.COM

JADAL.PUBLISHING

JADALBOOKSTORE

J A D A L

ويك كاثر

رواية

منزل البروفيسور

ترجمة

نور طلال نصرة

مقدمة

يحتاج الكاتب ليكون مُبدعًا؛ ذاكرة تفيض بالأحداث والذّكريات وحدثًا جللاً يهزّ كيانه، وهذا ما حدث مع الكاتبة الأمريكية ويلاّ كاثر التي عندما بدأتُ بالتّعرف إلى عالمها، أدركتُ أنني أمام موهبة أدبية فذّة، وشخصية متمردة. بصوت رخيم وعينين زرقاوين تشعّان ذكاءً، كسرت فتاة نبراسكا قيود مجتمعها، وشقّت طريقها إلى عالم الأدب بعد تحوّل مسار حياتها مع نشر أول مقال لها، من دراسة الطب إلى الكتابة لتصبح واحدة من أهمّ كتّاب أمريكا. أرادَت أن تكون بشهرة ديكنز وفيرجيل.

كتبت روايتها الأولى وهي في الأربعين من عمرها، وعدّتها رواية فاشلة. حصلت على جائزة البوليترز عام 1923 عن روايتها «واحد من بلادنا» التي كتبتها خلال الحرب العالمية الأولى، وكانت الكاتبة الأكثر مبيعًا في القرن العشرين، لكن هذا لم يزِدها إلاّ عزلة، فمع صعود شهرتها، باتت انطوائيةً أكثر ولم تكن تبوح بأسرارها سوى لقلة من أصدقائها المقربين. كانت تشعر أنّ حياتها تخصّها لوحدها لهذا أحرقت قبل موتها جميع رسائلها وطلبت من أصدقائها القيام بالمثل. تقول ويلاّ: «النهاية ليست مهمة، ما يَهُمُّ هو الطّريق الذي يوصلنا إليها».

ولدت ويلاّ في السابع من ديسمبر عام 1873، في مزرعة جدّتها لأمها التي تقع في وداي نهر الباك كريك بالقرب من مدينة وينشستر في ولاية فيرجينيا. وعندما بلغت ويلاّ التاسعة انتقلت مع عائلتها إلى نبراسكا حيث السهول الخصبة المناسبة للزراعة، والتي أثّرت بشكل عميق وانعكست في رواياتها حتى قالت إنّ انتقالها إلى نبراسكا حدثٌ قلبَ حياتها رأسًا على عقب وكان بمثابة تغيير جلدها. تعرّفت هناك إلى أناس من جنسيات وأعراقٍ مختلفة، قادمين من العالم القديم بحثًا عن الأرض الموعودة، جمعهم في هذا العالم الجديد والمخيف؛ اللُّغة والعادات، وكانوا ساحرين بالنّسبة إلى طفلة بعمر ويلاّ، فكانت تقضي ساعات تستمتع إلى قصصهم ولغتهم، ويبدو أنَّ تلك هي البِذْرَةَ الأولى لموهبتها. عاشَت ويلاّ طفولةً مُدلّلةً، فهي الحفيدة الأولى لدى كُلٍّ من عائلة والدها ووالدتها، والحفيدة الأنثى الأولى في عائلتها الكبيرة. ولدت بعد الحرب الأهلية الأميركية مباشرة، وانقسمت عائلتُها في فترة الحرب؛

حارب أعمامها مع الجنوب، وساعد جدَّها لأمّها العبيد في الهرب، وكان جدّها لوالدها متعاطفًا وميّالاً للوَحْدَةِ.

انتقلت إلى نيويورك في عمر الثّالثة والثّلاثين، بعد تخرُّجها من جامعة نبراسكا، وظلَّت هناك بقيّةَ حياتها، بالرُّغم من سفرها الدَّائم واستقرارها لمدَّة طويلة في الرّيف الكندي. كانت تُتْقِنُ اللاتينية وعملت في تدريسها إلى جانب تدريس الجَبْر والإنكليزية. التحقت بأسرة تحرير مجلة العائلة (هوم مانثلي). وكتبت في النَّقد المَسْرَحِيّ لصالح صحيفة بيتسبرغ (ديلي ليدر). عملت في الصّحافة والتَّحرير وعُرفت كناقدة أدبية، كتبت الشِّعر والقصّة والمسرح والرِّوايات.

من رواياتها: «أيّها الروّاد الأوائل» عام 1913، و«أغنية القبر» عام 1915، »عزيزتي أنتونيا» عام 1922، «سيدة تائهة» عام 1923، «منزل البروفيسور» عام 1925. فازت بالميدالية الذهبية عن الأكاديميّة الأمريكيّة للعلوم والفنون عن روايتها (موت رئيس الأساقفة) 1927، وفي العام 1933 حصلت على جائزة (فيمينا) عن مجموعتها القَصَصِيَّةِ (ظلال على الصخور) الصَّادرة في عام (1931). في عام 1945 أصدرت كاثر آخر أعمالها (أجمل السَّنوات) وفارقت الحياة بعد ذلك بعامين في نيويورك في 24 نيسان 1947 إِثْرَ نزيفٍ في الدِّماغ.

تنظر ويلاّ إلى الرِّوَايةِ على أنَّها عملٌ من لحم ودم، يعيش معها طويلاً، وهذا ما يشعر به القارئ عندما يقرأ لها رواية «عزيزتي أنطونيا» حيث يمكن أن تشعر بالتَّفاصيل الَّتي تبوح بها حتَّى بعد مرور عشرة أعوام على قراءة الرِّواية.

***

تجري أحداث رواية «منزل البروفيسور» في هاملتون، المكان الَّذي يختاره البروفيسور غودفري سانت بيتر للإقامة والعمل نظرًا لوجود بحيرة ميتشغان الّتي يُطِلُّ عليها من نافذة مكتبه في منزله المُتَداعِي. يقضي في هذا المنزل أجملَ سنين حياته كما يصفُها، وفيه يَتَعَرَّفُ إلى توم أوتلاند، الفتى الَّذي بمجيئه تتغيّر حياة البروفيسور وحياة عائلته.

حاجة الإنسان إلى الشَّغَف، هو ما يدفع البروفيسور غودفري سانت بيتر للتّشَبُّث بمكتبه القديم المليء بالغبار، هذا المكتب العابق بذكرياته الَّذي بات المصدر الوحيد الذي يغذي البروفيسور روحياً. إنَّها أزمة منتصف العُمْر.

الحدث الأهمُّ في رواية «منزل البروفيسور» هو اختراع توم أوتلاند. حيث تتحدث الكاتبة عمّا يُسمّى بالفراغ الحاجز لكنها لا توضّح ما هو على وجه التحديد، ولا تذكر علاقته بمادة «الغاز» الذي يخلق أزمة بين شخصيّات الرواية، وتكتفي بالقول: «إنّه ثورة في مجال الطيران»، تاركة القارئ يخمّن ما هذا «الفراغ الحاجز» الَّذي تتحدّث عنه، ليتَّضح لي بعد قراءاتي لبعض المقالات التَّحليليّة والنّقديّة الّتي تناولت الرّواية أنّه فراغ مملوء بالغاز، يفصل بين المحرّك وجسم الطائرة العسكرية. كُتبت الرِّواية على عِدّة مراحل وحذفت ويلاّ هذه التَّفاصيل من النُّسخة الأخيرة والمُعدَّلة والَّتي نُشرت للمرّة الأولى عام 1925، كتبت كاثر في البداية الجزء الرّئيسيّ وهو «قصّة توم أوتلاند» ثم أجرَت تعديلات وأضافت فصلين آخرين، هما: «العائلة»، و«البروفيسور»، وضمن هذه التَّعديلات حذفت كلمة «المُحرِّك» واكتفت بالتَّلميح للسِّلاح الجويّ المُشارك في الحرب العالميَّة الأولى حيث يَلْقَى توم مصرعه.

إنّها رواية تتناول أزمة الأخلاق، التَّناقضات البشريّة، المعايير المُزدوجة، الوَحْدة واليأس في منتصف العمر، الفساد والمال، ومواجهة الذَّات؛ فالبروفيسور العِلْمانِيُّ والّذي يتفادى طيلة الرواية أيّة أحاديث مع أوغستا الكاثوليكيّة، يعترف عندما يُقرّر البقاء في المنزل القديم أنّها الشّخص الوحيد الّذي لا يشعر معه بالوَحْدَةِ، ويكتشف جانبًا مخفيًّا في زوجته الّتي لطالما ظَنَّ أنّها بعيدة عن عوالمه ولا تفهمه، فيقول: «قلبُ الآخر غابة مُعتِمة، أيًّا تكن درجةُ قُرْبِكَ منه». وتوم الّذي يُؤنّب صديقه رودي لبيعه أشياءَهُ الأثريَّةِ في غيابه، باخِسًا حقّه في هذا، قائلاً إنّ الحياة ستُعاقبه يومًا ما، يقوم بفعل مُمَاثِلٍ لما قام به رودي، عندما كتبَ وصيّته لصالح خطيبته ومنحها حقَّ الاستفادة من أرباح الاختراع، دون أن يأتي على ذِكر اسم الدُّكتور كرين الَّذي ساعده في جميع تجاربه وأسدى له النُّصح.

نور طلال نصرة

العائلة

الفصل الأوّل

لم يعُد ثمّة ما يُثير مشاعره. كان البروفيسور سانت بيتر وحيدًا في هذا المنزل المتهالك الَّذي يقيم فيه منذ زواجه. ففي هذا المكان زاول مِهْنَته، وربّى ابنتيْه. كان أقرب إلى البَشاعة كما يمكن لأيِّ منزل قبيح أن يكون؛ مربّع الطّراز، يرتفع ثلاثة طوابق، مطليًّا بلون رماديّ، والشّرفة الأماميّة ضيّقة جدًّا لدرجة غير مريحة، بأرضيّة مائلة، ودرَجات مُتهدّمة. وحالما توجّه بِبُطءٍ، في أحد صباحات شهر سبتمبر المشرق، إلى الغُرف الفارغة ذات الأصداء، فكّر بتمعّن في الأشياء المزعجة التي لم يكن مضطرًّا لتحمّلها على هذا الوضع طيلة تلك الفترة؛ السّلالم شديدة الانحدار، الحُجُرات الضيّقة جدًّا، رفوف السّنديان البشِعة فوق الموقد ذي القرميد الأخضر، بدعائمها الدائريّة السميكة، والمتوّجة بكرات خشبيَّة ناتئة.

لطالما جعلته بعض دعسات السّلّم المتزعزعة، وبعض صرير الألواح في غرفة الطابق العُلوي، يجفل عِدّةَ مرّات في اليوم على مدى عشرين عامًا ونيِّف- وما تزال حركتهم متقلقلة ويصدرون صريرًا. كان لديه مهارةٌ يدويّةٌ، ويمكنه إصلاح المعدّات بسهولة، لكن لم يكن لديه الوقت الكافي للقيام بجولة كهذه مع وجود الكثير من الأشياء الّتي تحتاج إلى الإصلاح بشكل دائم. دخَلَ إلى المطبخ الّذي قام فيه بأعمال النّجارة أثناء تعاقب الطُّهاة، ثم صعَدَ الطّابق الثّاني ودخل الحمام الّذي لم يكن يحتوي سوى على حوض صفيح مطليٍّ؛ الصَّنابير قديمةٌ جدًّا، ولن يستطيع أيُّ سَمْكَرِيٍّ إيقاف التَّنقيط مهما شدَّها بإحكام. يمكن تحريك النَّافذة إلى أعلى وأسفل فقط بواسطة مِقْبَض مُلْتَوٍ، كما أنّ أبواب خزانة الملابس ليست في حالة جيّدة. تعاطَف مع استياء ابنتيه، إلاّ أنّه لم يتَّفقْ معهما أبدًا بأنَّ الحمّام يجب أن يكون المكان الأكثر جمالاً في المنزل. فقد قضى أسعَد سنوات شبابه في فرساي[1]، في منزل لا يحتوي على حمّام جيّد، وتعرّف هناك على أشخاص رائعين لم يكن لديهم حمّام أبدًا. ومع ذلك، وكما قالت زوجته: «إذا كان بلدك قدّم للحضارة شيئًا واحدًا على الأقلّ، فلماذا إذن لا تملكه؟». بعد ليالٍ مُتَتَالِيَةٍ، وبعد أن أطفأ مصباح مكتبه. هرَع إلى حوض الاستحمام، مرتديًا ثوب المنامة، ليطليه بطبقة من إحدى الدِّهانات العديدة الّتي تمّ الإعلان عنها بأنّ فعاليّتها كالبورسلان، لكنّها لم تكن كذلك.

لم يكن منظر البروفيسور بثوب المنامة كريهًا؛ فكلّما قلّت الملابس الّتي يرتديها، كان أفضل لهيئته. فأيّ ثوب يلتصق به سَيُظْهِرُه في بُنية جسديّة قوية جدًّا، بأوراك نحيلة، وأكتاف مرِنة لسبَّاح لا يعرف التّعب. وبالرُّغم من أنّ سانت بيتر وُلِد على ضفاف بحيرة ميتشِغان، من خليط عِرْقِيٍّ (كنديّ فرنسيّ من جهة، ومزارعين أمريكيين من جهة أخرى)، إلاّ أنّه كثيرًا ما كان يُقال إنّه إسبانيّ. ربّما يعود ذلك لقضائه فترةً طويلةً في إسبانيا، وضلوعه بِمُجْمَل فترات التاريخ الإسباني. كان وجهه بُنيًّا طويلاً، بذقنٍ بيضاويّة، اكتست بلحيّة مشذّبة شبيهة بلحية ڤان دايك[2]، تشبه خُصْلَة كبيرة من الفِراء الأسود اللاّمع. شعره أسود داكن، وناعم. تميل بشرته السَّمراء إلى الاصفرار مع بقع ذهبيّة. له أنف صقر، وعينان مثل عينيّ الصقر- مزيج من اللون البُنيّ والذّهبيّ والأخضر، يَقْبَعان في تجويفين واسعين، مع مجال كبير للحركة، تحت حاجبين أسودين كثيفين، ومجعَّدين، مفتولتين بحدّة في نهايتهما الخارجيّة، مثل الشّوارب العسكريّة.

هذان الحاجبان الشّريران جعلا طلاّبه ينادونه بـ مفيستوفيليس[3]، فليس ثمّة مَهْرَب من العينين الفاحصتين تحتهما ؛ عينين قادرتين أن تلتقطا بلمحة خاطفة أيّ صديق أو غريب مُلفِتًا ضمن حشدٍ من الناس. لم تفقدا أيًّا من وهجهما، على الرُّغم من أنَّ الرَّجل الكامن خلفهما يشعر الآن بتضاؤل الحماس. قالت ابنته كاثلين، الّتي كثيرًا ما نجحت في رسمه بالألوان المائيّة، في إحدى المرّات: «الشيء الذي يجعل من والدي شخصًا وسيمًا حقًّا هو شكل رأسه، بين أعلى أذنه وتاج رأسه تمامًا؛ هذا أفضل ما فيه». كان ذلك الجزء المتعلّق برأسه شامخًا، لامِعًا، وقاسيًا كالبرونز، يضفي عليه الشَّعر الأسود الكثيف شعاعًا مضيئًا على طول الحافَّة المُستديرة حيث تنتفخ جمجمته. كان شكل رأسه من النَّاحية الجانبيّة فريدًا وواضح المعالم جدًّا، وبعيدًا عن الشّكل المألوف، كان أقرب ما يكون لرأس تمثال منه لرأس رجل.

ومن إحدى نوافذه المُفكّكة، نظرَ البروفيسور إلى حديقته الخلفيّة، ومع هذا المشهد الّذي يدعو إلى البهجة، هرع هابطًا بسرعة على السّلالم وهرب من الهواء المُغبرّ والضّوء المُوحِش للغُرف الفارغة.

تمثّل حديقته المسوّرة الرّاحة في حياته، والشّيء الوحيد الّذي كان مأخذًا عليه من قبل جيرانه. بدأ بإنشائها بعد ولادة ابنته الأولى بفترة وجيزة، عندما بدأت زوجته تتصرّف بطريقة غير منطقيّة لقضائه وقتًا طويلاً بجانب البحيرة وفي ملعب التّنس. ساعده وشجّعه في هذا المشروع مالك العقار، وهو مزارع ألمانيٌّ متقاعد، شخص دمِث، سهل المراس، ومتساهل في كلِّ شيء ما عدا إنفاق المال. فعندما يحصل أيُّ حدث مع البروفيسور في المنزل مثل قدوم طفل جديد، أو عشاء لهيئة التَّدريس، أو مرض أحد أفراد العائلة، أو أيّة نفقَة طارئة، لا يتوانى أبيلهوف عن انتظار الأجرة ببهجة، لكن لم يكن ليدفع من أجل الإصلاحات اللاّزمة في المنزل. إلاّ أنّه، وعندما تعلّق الأمر بالحديقة، ذهبَ إلى أبعد ممّا هو متوقّع. لقد بادَرَ الرّجل العجوز بظهره المُنحنِيّ، وزوّد مُستأجره بالبذور والطّعُوم والنَّصائِحِ المناسبة. حتّى أنّه أنفق القليل من المال ليتحمّل نصفَ تكلفة جدار الجص.

نجح البروفيسور في إنشاء حديقة فرنسيّة في هاملتون. لم تكن الحديقة تحتوي على أرضيّة عشبيّة؛ بل نصف هكتار مرصوف بحصيّ لامِعة وشُجيرات أنيقة وأزهار برّاقة. وبالطَّبع كان هناك أشجار؛ حيث توزّعت كستناء الحصان بكثرة، وكان هناك صفّ لأشجار الحور اللّومبارديّة في الخلف على امتداد السُّور الأبيض، وفي المُنتصف شجرتَيْ زيزفون متناسقتين ودائريَّتين في الأعلى. وقد نمَت كُتل العلّيق الأخضر في الزَّوايا، تداخلَت واشتبكَت السّيقان الواخِزة حتّى أصبحتِ مثل شجيرات كبيرة. وكان ثَمَّة حوض لأعشاب السّلطة. كما تهاطلت إبر الرَّاعي[4] البرتقاليَّة على الجدار.

كانت نباتات القطيفة الفرنسية والأضاليا حينَها في أفضل حالتهما ـ فلا يمكن لأيّ شخص آخر في هاملتون أن يزرع أضاليا كهذه. لقد اعتنى سانت بيتر بهذه القطعة من الأرض على مدى أكثر من عشرين عامًا، وقد أثمر جُهْده. وكان في الرَّبيع، عندما يتَملَّكُه شوقٌ إلى أراضٍ أخرى، وسخطٌ من الأشياء غير المُنجَزة، يتخلّص من استيائه هنا. وفي فصول الصّيف الحارّة والطَّويلة، عندما لا يتمكّن من الذّهاب خارجًا، يبقى في المنزل مع حديقته، مُرسِلاً زوجته وابنتَيْه إلى كولورادو، هربًا من حرارة البراريّ الرَّطِبَة، هذه الحرارة الَّتي تُنضج القمح والذُّرة، لكنَّها مُنْهِكَة للبشر. وفي تلك الأشهر عندما يعود عازبًا، يُحضِّرُ كتبَه وأوراقَه ويعملُ على مَقْعَد خشبيّ تحت شجرة الزيزفون؛ يتناول طعام الإفطار والغداء والشّاي في الحديقة. لقد اعتاد هو وتوم أوتلاند الجلوس هناك وتزجية نصف اللَّيالي الدَّافئة والهادئة بالأحاديث.

وأيًّا يكن، فقد أدرك سانت بيتر في هذا الصَّباح من شهر سبتمبر أنّه بمكوثه مدَّةً طويلةً بين أزهاره الخريفيّة لن يستطيعَ التَّهرُّب من تداعيات التَّغيير المُزعجة. عليه الاندفاع بحماسٍ في العمل، والاعتياد على ذلك الشُّعور بأنَّهُ ثَمَّة منزل خاوٍ ومتهالِك يقبع تحت غرفة عمله. قطفَ زهرة إبرة الرَّاعي، ومضى عاقدًا العزم والزَّهرة ما تزال في يده، صاعدًا على السَّلالم طابقين حتّى وصل الطَّابق الثّالث، حيث كان ما يزال ثَمَّة غرفة واحدة مفروشة، تحت ميلان السّقف السّنديّ[5]، في حال كان هناك أثاث بالفعل. السّقف مائل من ثلاثة جوانب وينتهي الميلان من جهة الشّرق بنافذة وحيدة مربّعة الشّكل، نصف مفتوحة، تتأرجح على مفاصل نحو الخارج، ومثبّتة بخطّاف عند الحافة. إنّها المنفذ الوحيد للضّوء والهواء. كانت الجدران والسّقف مغطّاة، على حدٍّ سواء، بِوَرق أصفر كان قبيحًا جدًّا فيما مضى، وبات باهتًا فيما بعد إلى درجة انعدام اللّون على نحو كريه. حصيرة الأرضيّة رثّة ومتآكلة، وتقبع مقابل الحائط طاولةٌ قديمةٌ من خشب الجوز، بجناح واحد مرتفع، عليها رزمة أوراق مرتّبة. كان أمامها كرسي مكتبيّ، بظهر من القصب، يدور على نابض. كان هذا الوكر المظلم مكتب البروفيسور لعدّة سنوات.

وفي أسفل الدرج، إلى آخر الرّدهة الخلفيّة، كان لديه مكتب آخر، لكنَّه مجرد مكتب للعرض، برفوف عريضة تضمُّ جميع كتب مكتبته، وطاولة مكتبية مناسبة كتبَ عليها مجلّداته. لكن ذلك ليس صحيحاً، وهذا المكتب مجرد مظهر للتمويه. فالمكان الذي عمل فيه كان في الطابق الثالث، وليس لوحده. فلثلاثة أسابيع في الخريف، وثلاثة أخرى في الربيع كان يتشارك هذا المخدع مع أوغستا. وهي امرأة خيّاطة، ابنة أخ مالك أرضه العجوز، عانِس، مُنّظمة وجديرة بالثّقة، ألمانية كاثوليكيّة، وورِعة للغاية. وبما أنّ أوغستا تنهي عملها في الساعة الخامسة، والبروفيسور يعمل هنا في الساعة الثامنة في أيام الأسبوع، فلم يلتقيا ببعضهما كثيراً. لكن الأمر لم يخلُ من مراعاة بعضهما. فكل مساء، قبل أن تُغادر أوغستا، كانت تكنس القُصاصات القماشية عن الأرضيّة، تلفّ قماشها، تُغلق ماكينة الخياطة، وتُعيد الخيوط المنسوجة إلى صندوق الأريكة، وبهذا لن يكون ثَمَّةُ خيوط تلتصق على سترة البروفيسور القديمة الخاصّة بالتدخين إن حدث وألقاها جانبًا للحظة أثناء ساعات العمل. وبدوره، كان سانت بيتر يحرص على التخلّص من رماد وأقماع السجائر عندما يطفئ المصباح بعد منتصف الليل ـ فالتدخين بالنسبة إلى أوغستا أمر مشمئز للغاية ـ ويحرص على

فتح النافذة ذات المفاصل على مصراعيها، على الخطّاف الثاني، علّ رياح الليل تتكفّل بإزالة عبق غليونه قدر المستطاع. لأنه كان يعلم أنها في صباح اليوم التالي ستجد صعوبة في العمل على الفساتين غير المنجزة، التي تتركها معلّقة على «المانيكانات»، بسبب تشبُّعها برائحة السّجائر.

هذه «المانيكانات» مدعاة لكثير من المزاح بينهما. كانت إحداهنَّ التي تدعوها أوغستا «الصّدر» تنتصب في الزاوية المُظلمة من الغرفة، فوق صندوق خشبيّ مرتفع، تخزّن فيه البطانيّات والأغطية الشتويّة سنويًّا. كان جذع أنثى منزوع الرأس والذّراعين، مغطّى بقماش قطنيّ أسود سميك، ويظهر الجزء الذي كان سببًا في تسميته على هذا النحو بأناقة بالِغة، كما شرح البروفيسور مرّة لأوغستا، كيف أنّها بتسميته بهذا الاسم، اتّبعت قانونًا طبيعيًّا للغة، يُسمّى الكناية، من أجل خلق نوع من الانسجام. لم تتكدّر أوغستا من صراحة البروفيسور الفجّة فلم يكن لديها أدنى شك بتهذيبه اللامتناهي. على الرّغم من شكل المانيكان العريض والمُنتفخ جدّا (لدرجة أنّك ترغب بوضع رأسك على نعومة نفَسِه العميق، وتستريح بأمان إلى الأبد)، بيد أنّه في حال لمسته، ستُصاب بصدمة شديدة، لا تُخفف من وطأتها عدد المرّات التي لمسته بها من قبل. فهو يُشكّل أكثر السطوح المُنفرة التي يمكن تخيّلها.

لم تكن صلابته كصلابة الخشب، الذي يستجيب للهزّة بارتجاج منعش، ويحفّز اليد، ولا اللّبّاد الذي يمتص شيئًا من الأصابع. كان سطحًا صلبًا على نحو ميّت، كتيمًا، وثقيلاً، كَقِطَعٍ سميكة من المعجون، أو نشّارة خشبيّة مُتراصّة بإحكام- إحساس مُخيّب جدًّا بالنّسبة لحاسَّة اللّمس، ومع ذلك، فإنّها وبطريقة ما تخدعك بملمسها ثانية. وأيًّا تكن عدد المرّات التي اصطدمت بها بذلك الجذع، فإنّك لن تصدّق أبدًا أنّ الاحتكاك به سيكون سيئًا كما كان.

المانيكان الثاني كان أكثر من مُلهم ذاتي؛ شخصيّة أنثويّة كاملة الطّول بتنورة أنيقة من الأسلاك مع محيط خصر معدني متناسق. ليس لهذه المانيكان أرجُل ترفعها عن مستوى الأرض وتسندها في وضعية الوقوف ليتمكّن المرء من رؤيتها على نحو جيّد، ولا أمعاء خلف أضلعها اللامعة، كما أنّ صدرها يشبه قفص طائر مصنوع من الأسلاك القويّة. إلاّ أنّ السانت بيتر كان مُقتنعًا أنّ لها جهازًا عصبيًّا. فعندما تتركها أوغستا في الليل مُرتديةً فستان حفلة جديد لروزاموند أوكاثلين، غالباً ما تغدو مرِحة وماكرة وكأنها ستخرُج هذا المساء لتُقدّم عرضًا رائِعًا تظهر فيه بأنها طائشة، دائخة، ومخبولة. كانت تبدو وكأنّها تتعثّر أثناء نزولها إلى

الطابق السّفليّ، أو أنَّها تمشي على رؤوس أصابعها في انتظار أن تبدأ رقصة الڤالس. وأحياناً كانت السيّدة السلكيّة[6] أكثر إقناعًا في وقفتها كامرأة ذات حضور خفيف، لكنَّها لم تخدع السانت بيتر أبدًا.

كانت تفوته بعض الأمور، لكنَّه لم يكن لينخدع أبدًا بمانيكان. لقد أدركت أوغستا بطريقة ما أنّ هذه المانيكانات ليست رفيقًا مناسبًا لشخص يعمل في الشؤون الأكاديميّة، فكانت تعتذر دائمًا عن وجودهم عندما تأتي لتستريح وتملأ وقتها في المنزل.

«على الإطلاق يا أوغستا». هذا ما كان البروفيسور يُردده على الدّوام.

«بما أنّهم كانوا جيّدين بالنّسبة إلى المسيو برغريت[7]، فهم حتماً جيّدين بالنسبة لي».

وبينما كان السانت بيتر جالسًا هذا الصباح على كرسيّ مكتبه، مستغرقًا في تأمّل رزمة الأوراق أمامه، فُتح الباب وكانت أوغستا بنفسها تقف هناك. انتابه إحساس بالدّهشة أنّه لم يسمع دعستها الثقيلة، والمتأنيّة على الدّرج غير المفروش وقتها.

«أوه، لم أكن أظنّ أنّك هنا بروفيسور بيتر وإلاّ كنت طرقت الباب، أعتقد أنّه يتعيّن علينا الانطلاق معًا».

وقف البروفيسور بيترـ وقد راق لأوغستا تصرّفهـ وقدّم لها كرسي آلة الخياطة وعاد إلى جِلْسَته.

«اجلسي يا أوغستا، وسنتحدّث في الأمر، لم أغادر مكاني حتى اللحظة، لم أرغب ببعثرة وضياع أوراقي، سأمكث هنا حتى أنتهي من الكتاب. لقد التقيتُ عمّك وتباحثنا في الأمر. سأعمل هنا، وأتناول طعامي في المنزل الجديد، لكن هذا سيبقى سرًّا. ففي حال أثيرت ضّجّة حيال الأمر، قد يبدأ النّاس بالقول أنّني والسيدة سانت بيتر افترقنا أو انفصلنا، لا أعلم كيف يمكن أن يصفوا الأمر؟».

أخفضت أوغستا عينيها بابتسامة سمِحة. «بالنسبة لشخص في مكانتك أعتقد سيقولون انفصلتما».

«بالضّبط؛ مصطلح علميّ جيّد أيضا. حسنًا، نحن لم ننفصل كما تعلمين. لكنَّني أعزم على الكتابة هنا لفترة قصيرة».

«جيّد جدًّا، ولن أكون سببًا في تعطيلك عن عملك بعد الآن. ستحظى في المنزل الجديد بمكتب جميل في الطابق السّفلي، وسيكون لديّ غرفة جيّدة الإضاءة والتَّهوية في الطَّابق الثَّالث».

«وهكذا لن تشمّين رائحة السّجائر، إييه؟».

«أوه بروفيسور، لم أعترض البتّة على رائحة السجائر» تحدثت أوغستا بتأثّر. نهضتْ وحملت مانيكان الصّدر الأسود بين ذراعيها الطويلتين.

وكذلك انتصب البروفيسور بسرعة: «ماذا تفعلين؟».

ضحِكَت أوغستا. «لن أحملهم في الشّارع أيّها البروفيسور، الصبي الذي يعمل في البقالَّة ينتظرني في الطابق السفلي ليُقِلّهم بعربته».

«يقلّهم؟»

«أوه، نعم، إلى المنزل الجديد أيّها البروفيسور، لقد أتيتُ قبل أسبوع من موعدي المعتاد لخياطة السّتائر والبيّاضات للسيّدة سانت بيتر. سأنقل كل شيء هذا الصباح ما عدا آلة الخياطة- فهي ثقيلة جدًّا على العربة، لذلك سيعود الصبيّ ثانيّة من أجل نقلها بعربة التوصيل. فهل تفتح لي الباب من فضلك؟».

«لا، لن أفتح لك الباب مطلقًا، فأنتِ لن تحتاجينها لخياطة الستائر، لا يمكنني العمل في هذه الغرفة في حال تغيّرت وتبدّلت أشياؤها، أمّا آلة الخياطة، فيمكنه أخذها- نعم. لذلك ضعيها من فضلك على صندوق الخزانة مجدّدًا حيث مكانها. إنّه مكانها المناسب». واتجه السانت بيتر نحو الباب ووقف مُسنداً ظهره إليه.

أرخَت أوغستا بثقلها على حافة صندوق الخزانة.

«لكنني سأبدأ الأسبوع القادم بالعمل على حياكة ملابس السيدة السانت بيتر، وسأحتاج هذه المانيكان، وبما أنّ الصبيّ هنا، سيتكفّل بنقلهم حالاً». قالت بلطف.

«عليّ اللعنة إن سمحتُ له بنقلهم، لن يتم نقلهم، إنهم في مكانهم الصحيح هنا، لن تأخذي سيّداتي، لن أسمح أبدًا بحدوث شيء سخيف كهذا».

تكدّرتْ أوغستا، وأصابها بعض الخجل. «لكن لا يمكنني العمل دون مانيكاناتي أيّها البروفيسور، لقد كانوا في وجهك طيلة هذه السنوات، ولطالما كنتَ تتذمّر منهم، لذلك لا تكن

متناقضًا الآن».

«لم أتذمّر أبدًا يا أوغستا، ربّما كنّ سببًا في استحضار بعض الخيبات، أو ربّما بسبب بعض مقتضياتهم البيولوجية الصَّارخة اللاتي ينطوينَ عليها، لكن لم أنزعج منهن على نحو شخصيّ أبدًا. اذهبي واشتري بعض المانيكانات الجديدة لمشغلك الفسيح، كما يحلو لكِ، يقولون إنني أصبحتُ غنيّا، اذهبي واشتري لكن لا يمكنك أخذ نسائي، وهذا آخر ما لديّ».

نظرت أوغستا إلى أنفها كما كانت تفعل في الكنيسة عند ذكر الخطايا الآثمة. «بروفيسور» قالت بصرامة، «أعتقد أنك بالغتَ في مزحتك هذه المرة. لم أعتد عليك هكذا من قبل». رأى البروفيسور من ميَلان ذقنها أنَّها شعرت بوقع اقتراح غير لائق بعض الشيء.

«ليس مهمًّا ما تفكّر به، ولا يمكنك الاحتفاظ بهن». احترز كليهما من جدّية الحديث الآن. وكانت أوغستا من بادر أوّلاً وكسر حاجز الصّمت.

«أعتقد أنَّه بإمكاني أخذ تماثيلي؟».

«تماثيلك؟، أوه، نعم، الأجزاء التي تحتفظين بها في الأريكة مع دفاتر ملاحظاتي القديمة؟ بالطَّبع، يمكنك الحصول عليهم، دعيني أرفعها لكِ».

ورفع الغطاء المفصليّ لصندوق الأريكة المسندة على الحائط، تحت السّقف المائل. كان يوجد في أحد طرفيّ الصندوق المنجّد، أكوام دفاتر الملاحظات وحزم لمخطوطات مربوطة بسلكٍ خاص بالمعماريين داخل عبوات مربّعة. وفي الطّرف الآخر كان هناك لفّات من عيّنات صغيرة، مُقتطعة من جرائد، ومربوطة بقطع من شرائط قطنيّة، وحرير، وكريب؛ إنّها رسوم بيانيّة متباينة المستوى تتبّع تغيير الحالة الاجتماعية الذي رافق ابنتيّ البروفيسور وتطوّر شخصيتهما من الطفولة المُبكرة إلى الأنوثة. وفي منتصف الصندوق، تداخلت القوالب والمخطوطات.

«أرى أنّنا سنواجه بعض الصعوبات في فصل عملنا اليومي يا أوغستا. لقد احتفظنا بأوراقنا معًا لفترة طويلة».

«نعم أيّها البروفيسور، عندما قدِمتُ في البداية للحياكة لدى السيدة سانت بيتر لم يخطر لي أبدًا أني سأشيب في خدمتها».

ارتعَشَ لسماعه هذه الجملة. ما المستقبل الآخر الذي يمكن لأوغستا أن تتوقعه؟ أذهله هذا الإفصاح.

«حسنًا، حسنًا، علينا ألاّ نفكر بأسى حيال الأمر يا أوغستا. فالحياة لا تسير كما نُخطط لها».

وقف وشاهد يديها الكبيرتين بحركتهما المتأنيّة وهي تضع الرزم الصغيرة داخل سلّة مهملاته لتنقلهم إلى عربة الصبيّ في الطابق السفلي. لطالما تساءل كيف يمكنها أن تقوم بأعمال الخياطة بيدين تنفتحان وتنقبضان على نحو صلب مثل المظلاّت- لم تمتلك أوغستا خفّة اللمسة الفرنسية؛ فعندما خاطَتْ على القوس، أبقته مكانه. فهي ذاتها كانت طويلة، ضخمة الهيئة، مسطّحة وقاسية، وجهها بسيط وجامد، وعيناها بُنيّتان لا تخلوان من المرح. حالما جثَت بجانب الأريكة لتُفرزُ قِطع المانيكانات، وقف بجانبها، واضِعًا يده على غطاء الصُّندوق، مع أنّه كان عليه الوقوف دون الاستناد إلى شيء، لكنّ ملاحظتها الأخيرة أربكته.

«أتعلمين كم هو جميل شعرُك الكثيف يا أوغستا!، أعتقد أنّه أمر لطيف نوعاً ما وجود هذه الخصل الرمادية المتموّجة في كل جانب. تمنحه تميّزًا. لن تحتاجي أبدًا لأيّ من ذلك الشّعر المستعار الموجود في كل نوافذ المتاجر».

«هذا الشّعر المستعار دارج جدًّا أيّها البروفيسور. الكثير من زبائني يستخدمونه الآن- من سيّدات لا تتوقع أنهن يُقْدِمْنَ على أمر كهذا. يقولون أنّ معظمه مقصوص من رؤوس رجال صينيين موتى. وبالفعل، تكرّر الأمر كثيراً لدرجة استدعت تدخّل الكاهن ورفضه الأمر الأحد الماضي».

«هل حقًّا فعل ذلك؟ ماذا قال؟ إنّها مسألة شخصيّة».

«حسنًا، قال إنّ الأمر سيصبح فضيحة في الكنيسة، ولم يعُد بإمكان الكاهن الذهاب لرؤية امرأة تقيّة دون العثور على ضفائر مُستعارة، ووسائد رقيقة، وباروكات في غرفتها، وهذا أمر مُشمئز».

«ربّاه، أوغستا. ما هذا الأمر المهم الذي يجعل الكاهن يذهب إلى رؤية امرأة في غرفة نومها وهي تخلع هذه الحلي، أو أن يراها بدونهم؟».

احمرّت أوغستا، وحاولت أن تظهر غضبها، لكنها بالكاد استطاعت إخفاء قهقهتها. « من المؤكّد أنّه يذهب إليهم ليعطيهم القربان المقدس أيّها البروفيسور، إنّك تُصرّ على معاندتي

اليوم، أليس كذلك؟».

«أنتِ تُخفّفين عني كثيراً يا أوغستا. نعم، أعتقد أن الشّعر المستعار يوضع في حالات المرض المُفاجئة، حيث يكون من السهل إزالته. لكن الأمر الصادم هو ما أشرتِ إليه في البداية عن الكاهن. كيف ستهدينني إلى دين آبائي في هذه الفترة إن كنتِ عاقدة العزم على الحياكة في المنزل الجديد، وأنا سأعمل هنا. من سيذكّرني حينها بيوم إحياء ذكرى الأموات[8]، أو أيام الصيام الثلاثة أو الخميس المقدّس (خميس الأسرار) أو أيّ شيء آخر؟».

أخبرته أوغستا بضرورة مغادرتها. وقد تداعى إلى سمع السانت بيتر دعستها المعروفة وهي تهبط الدرج. إنَّها تعيد له ذكرى تلك الأيام على وجه الخصوص. عندما كانت تقضي معظم وقتها لديهم في المنزل وكانت ابنتاه صغيرتان وتحتاجان إلى الكثير من الفساتين النظيفة. في تلك السنوات تحديدًا بدأ مشروعه العظيم؛ عندما اجتمعتِ الرغبة للقيام بذلك، والصعوبات معاً وكأنّهما هدف سعى إليه في عقله ـ مثلما فعل اثنين من سباحيّ ماكبث[9] المُنهكين ـ لسنوات عندما امتلك الشجاعة أخيرًا ليقول لنفسه؛ «سأفعل هذا الشيء الباهر، هذا الشيء الجميل، والمستحيل».

وأثناء الخمسة عشر عامًا التي أمضاها في كتابة «المغامرات الإسبانية» في أمريكا الشمالية، كانت هذه الغرفة مركز عملياته. كان هنالك رحلات استكشافية ونزهات ممتعة؛ حيث قضى سنتيّ التفرغ الجامعية في إسبانيا يبحث في السّجلات، وأمضى صيفين في الجنوب الغربي متعقّبًا أثر المغامرات، ورحلة أخرى في المكسيك القديمة، ودفعه حماسه للذهاب إلى فرنسا للقاء أعز أصدقائه. لكن الملاحظات والتسجيلات والأفكار كانت تعود دائمًا إلى هذه الغرفة. يتم تلخيصهم وتصنيفهم هنا وتنسيقهم في مكانهم الصحيح ضمن عمله التاريخي.

وحكماً، فإنّ غرفة الخياطة ليست مكانًا مناسبًا على الإطلاق لتكون مكتباً لرجلٍ، لكنها كانت المكان الوحيد في المنزل الذي يمكن أن يحظى فيه بالعزلة والانفراد، والابتعاد عمّا يدور في أرجاء المنزل من أحداث يومية. لم يكن أحد يقترب منه، إلاّ أنّ إحساسًا غامضًا وممتعًا بالإجمال كان يراوده، وهو أنّ ما يجري في الأسفل يصعد الدرج الضيّق إليه. وبالتأكيد لا يوجد فوائد أخرى. فحرارة الفرن لم تكن لتبلغ الطابق الثالث. وليس هناك

طريقة لتدفئة غرفة الحياكة، إلاّ باستخدام موقد غاز صدئ ومستدير، دون مدخنة. موقد يستهلك الغاز على نحو متقطّع، ويلوّث الهواء. ولتخلّص منه، يجب أن تبقى النافذة مفتوحة- وإلاّ سيتلوّث الهواء سريعاً ويصبح غير مناسب للتنفّس بسبب السّقف المنخفض جدًّا. وفي حال كانت النافذة مفتوحة قليلاً، وتم التخفيف من حرارة الموقد، فإن أيّ هبوب لريح مفاجئة سيُطفئ هذا الشيء البائس تمامًا، وقد يختنق الرّجل الذي استنشقه بعمق قبل أن يعي ذلك. لقد وجد البروفيسور أن أفضل طريقة في الشتاء هي إشعال الموقد بالكامل وإبقاء النافذة مفتوحة بالكامل ومُسنَدة على الخطّاف، حتّى لو اضطر إلى ارتداء سترة جلدية فوق معطف العمل. وبهذا الإجراء تمكّن بطريقة ما من الحصول على هواء كاف لإنجاز عمله.

تساءل حينها لماذا لم يبحث عن موقد أفضل، أو أحدث؛ أو على الأقل لماذا لم يقم بطلاء هذا المتقشّر والصدئ. لكن ما جعله يُحرز تقدّمًا هو رفضه لوسائل الرفاهية السلبية، لم يكن متقشّفًا بطبيعة الحال. وكان يعلم مقدار حبّه لملذّاته الشخصيّة التي كافح للحصول عليها. ففي حال وجد ما يبعث فيه البهجة، يُسارع للحصول عليه، حتى لو باع قميصه من أجله. وباستغنائه عن الكثير من الضروريات المزعومة، تمكن من الحصول على كماليّاته. كان لديه، على سبيل المثال، مصباح إنارة كهربائي مناسب متّصل بالمقبس فوق طاولة الكتابة الخاصّة به، ومع ذلك فضّل الكتابة على ضوء مصباح كيروسين آمن، كان يملؤُه ويعتني به بنفسه. لكنّه كان يجد في بعض الأحيان أنّ عبوة الزيت في الخزانة فارغة؛ ولكي يملأها، كان عليه أن يهبط إلى القبو، مرورًا بالمنزل، وفي طريقه، كان بلا ريب، يعير اهتمامًا في أغلب المرّات لما تفعله الطفلتان، أو لما تقوم به زوجته- أو كان يلاحظ أنّ مشمّع أرضية المطبخ مُمزّق تحت المغسلة حيث تطأ الخادمة، ممّا يجعله يتوقّف لإصلاحه، في تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر في الأسفل، عبر المنزل البشريّ، قد يفقد مزاجه، حماسه، أو حتى أعصابه. لذلك عندما يكون المصباح فارغًا- وكان ذلك يحدث عادة عندما يكون في منتصف واحدة من أكثر الفقرات أهمية- كان يضغط القناع الواقي[10] على جبهته ويعمل على وهج تلك اللمبة الكريهة كمثرية الشكل، الناتئة من عنق قصير مقوّس على الجدار، على ارتفاع أربعة أقدام، فوق منضدته تمامًا.

كان ذلك قاسيًا حتى مع عينين جيّدتين كحال عينيه. لذا بمجرّد أن يصل مكتبه، لا يجرؤ على مغادرته. لقد وجد أنّه بالإمكان تدريب العقل ليكون نشيطًا في وقت محدد، تمامًا كما

يتم تمرين المعدة على الجوع في ساعات محددة من اليوم.

وفي حال حدث ومرَضَ أحد أفراد العائلة، فإنه لا يدخل إلى مكتبه أبدًا. كان يقضي ليلتين من كل أسبوع مع زوجته وبناته، وليلة يذهب مع زوجته خارجاً لتناول العشاء، أو إلى المسرح، أو إلى حفلة موسيقيّة. يبقى له أربعة أيام فقط، أيام السبت والآحاد بالطبع، وفي هذين اليومين كان يعمل كما يعمل عامل منجم تحت انهيار أرضي. لم يكن من المسموح لأوغستا المجيء يوم السبت رغم أنّها تتقاضى أجر هذا اليوم. وطيلة المدة التي قضاها يعمل بضراوة في الليل، كان يكسب قوته أيضًا خلال النهار؛ مُتحمّلاً أعباء العمل الجامعي وتثقيف نفسه ليكون جاهزًا أمام مئات الطلاب في المحاضرات والمؤتمرات. لكن تلك كانت حياة أخرى. لقد تمكن سانت بيتر لسنوات من عيش حياتين، كلتاهما مُجهدتين. كان بإمكانه التقليل من عمله الجامعي، ومنح طلاّبه العُصافة[11] والنشارة ـ فلم يكن في جعبة العديد من المُدرّسين أيّ شيء آخر يقدمونه ومع ذلك تابعوا عملهم على نحو جيّد ـ لكن لسوء حظّه أنّه أحبّ الشباب، كان ضعيفًا تجاه ذلك، وكان هذا ما يُذكيه. وإن وُجدَت عينٌ واحدة متحمّسة، وعقل واحد مُتشكّك، ونقديّ، وفضول حيويّ واحد في قاعة محاضرات ممتلئة بالفتيات والفتيان العاديين، يكون هو خادمهم. هذا هو الحماس الذي يدفعه للأمام. وهذه الاستجابة لم تتضاءل بمرور السّنوات إن كانت التيارات المغناطيسية تتآكل مع الوقت؛ فلا يمكن للزمن أن يُغيّره.

لكنّه استنفذ طاقته في كلا العملين بغية تحقيق هدف محدّد ـ وقد نال مبتغاه. ومن هذه العوائد المالية الصغيرة، استطاع أن يدير شؤونه ولم يُبذّر أيّ سنت في هذا العالم كما لم يصرف سوى من راتبه كبروفيسور، وبالطبع، لم يلجأ إلى دخل زوجته الضئيل الذي كانت تحصل عليه من والدها.

إن عمليات الحذف والإضافات، والبراعة في تقديم محاضراته التي تصيبه بالصداع لمجرد التفكير بهم الآن، جعلته يؤدّي عمله كمحاضر جامعي على أكمل وجه، إلى جانب تقديمه لعمل إبداعي رائع. فسانت بيتر يعتقد أنّ بإمكان المرء تحقيق أيّ شيء إذا رغبَ به حقّا. الرغبة هي الخلق، وهي العنصر السّاحر في تلك العملية. وإن كان هناك آلة لقياس الرغبة، يمكن للمرء التنبؤ بالإنجاز. كان قادرًا على قياسها، على نحو تخميني، ولمرة واحدة، في طالبه توم أوتلاند، وقد تنبّأ بذلك.

ثَمّة شيء واحد رائع في هذه الغرفة وهو أنّها كانت مسرحًا لكثير من الهزائم والانتصارات. فمن النافذة يمكنه من بعيد، وعلى امتداد الأفق أمامه مشاهدة بقعة مستطيلة، زرقاء، وغير واضحة المعالم، إنّها بحيرة ميتشغان، البحر الداخلي لطفولته. فكلّما كان متعبًا وضجِرًا، في الأوقات التي تبقى الصفحات البيضاء أمامه فارغة، أو ممتلئة بالجُمل المشطوبة، كان يُغادر مكتبه في تلك الأثناء، يستقلّ قطارًا إلى محطة صغيرة تبعد اثنا عشر ميلاً، ويقضي يومًا بجانب البحيرة، مع مركبه الشّراعي؛ قافزًا منه للسباحة، طافيًا بمفرده على ظهره، ثم يصعد ثانية إلى مركبه.

عندما يتذكّر طفولته، يتذكّر المياه الزرقاء، ويتذكّر شخصيّات بشريّة محددة تتجسّد أمامه بالطبع، والدته الميثودية[12]، العمليّة، والقوية الإرادة، ووالده اللطيف الذي تخلّى عن الكاثوليكية، وجدّه الكانوكي[13] المُسّن، والعديد من الإخوة والأخوات. لكن الحقيقة العظيمة في الحياة، أن البحيرة كانت المهرَب الدائم المتاح من الضجر. تُشرق الشمس منها، فيبدأ النهار هناك؛ كانت مثل باب مشرّع، ليس بمقدور أحد إغلاقه. لا يمكن للأرض وكل ما تحمله من كآبة أن تلامسك، ما عليك سوى النظر إلى البحيرة، وسرعان ما ستعلم أنك ستصبح حرًا. كانت البحيرة الشيء الأول الذي يراه المرء في الصباح، عبر مرعى البقر الوعِر المليء بأشجار الصنوبر الكثيف، تتدفّق خلال الأيام مثل الهواء، ليست مدعاة للتفكير، وإنّما هي جزء من الوعي نفسه. فعندما حلّ الصقيع ذات صباح شتويّ على سطح البحيرة، مُشكّلاً طبقة جليد بيضاء وهشّة، نافضًا تلك الانعكاسات الذهبيّة والوردية اللون التي تضفيها الشمس النحاسيّة خلف الغيوم الرمادية، لم يلتقط ذلك التفصيل حينها أو لم يعرف ما الذي جعله سعيداً؛ لكن الآن، بعد مرور أربعين عامًا، يمكنه أن يستعيد تمامًا كلَّ تلك المشاهد، التي تكفّلت بجعل الصور تنتعش في داخله، عندما كان مسلوب الإرادة والوعي، وكانت عيناه مفتوحتين ببلاهة.

كان في الثامنة من عمره، عندما باع والداه مزرعتهم الواقعة على ضفاف البحيرة، واصطحباه مع إخوته وأخواته إلى أراضي القمح وسط كانساس، لأن كاد سانت بيتر يموت غرقًا في البحيرة. لم ينس قط اللحظات القليلة في القطار عندما تلاشى وعلى نحو مفاجئ ذلك الأزرق النقيّ من أمام ناظريه عبر الكثبان الرملية وإلى الأبد. كان ذلك بمثابة غرق للمرة الثالثة. شعَرَ أنّه لن يحزن بعدها على شيء، وأنه نال نصيبه، وذلك هو الحضيض أو النهاية.

حتى في سنواته الدراسيّة الطويلة والسعيدة مع عائلة ثيريولت في فرنسا، كان هذا الامتداد للمياه الزرقاء هو الشيء الوحيد الذي يُشعره بالحنين إلى الوطن. كان يذهب في الصيف مع أولاد ثيريولت إلى شبه جزيرة بريتاني[14] أو ساحل لانغدوك[15]؛ لكن بحيرته نفسها كانت بالنسبة له مثل القناة أو مثل البحر المتوسّط. اعتاد أن يقول للأولاد الذين كانوا يسألونه دائماً عن بحيرة ميشيغان «لا، إنها شيء مختلف تمامًا. نعم بحر لكنه ليس مالحًا. أزرق، لكنه أزرق مختلف للغاية. نعم، هناك غيوم، وضباب، ونوارس بحرية، لكن لا أعلم- لطالما كان أكثر بساطة[16]».

بعد ذلك، عندما كان السانت بيتر يدرس للحصول على درجة الأستاذية، ولأنه كان مغرمًا وعليه أن يتزوّج بأسرع ما يمكن، اختار عرض هاملتون من بين المناصب السبعة التي عُرضت عليه، ليس لأنه الأفضل، بل لأنه بدا له أن أيّ مكان قرب البحيرة هو مكان يمكن العيش فيه. فمشهد البحيرة من نافذة مكتبه في تلك السنوات العديدة كان مفيدًا أكثر من جميع الأشياء المُريحة التي قام بها بعيدًا عن البحيرة.

لطالما كان عازمًا أن يضع في تلك الزاوية تمامًا، تحت «المانيكانات» القديمة لأوغستا، خزائن الملفات التي لم يجد وقتًا أو مالاً لشرائها. كانت كفيلة بحفظ جميع محاضراته وكُتيباته، ومسودّات الفقرات السريعة والتحضيريّة إلى حدٍ كبير. لكنه لم يقتنيهم أبدًا، والآن لم يعد بحاجة إليهم حقًّا؛ سيكون الأمر بمثابة قَفلٍ للإسطبل بعد سرقة الحصان. كان الحصان الذي رحل كل ما يستحوذ على شعوره في تلك اللحظة. بالرّغم من كل الأمور التي أهملها، إلاّ أنّه أنجز عمله «المغامرات الإسبانية» في ثمان مجلّدات- دون خزائن للملفات أو نقود أو مكتب أو موقد لائق- ودون تشجيع، وحدها السماء كانت تعلم! وبالرغم من كل الاهتمام الذي حظيت به المجلّدات الثلاثة الأولى التي أبصرت النور، فربّما يكون قد ألقاهم أيضا في بحيرة ميتشغان. حيث قام أساتذة تاريخ آخرون بمراجعتهم على استحياء، في مجلات فنية وتعليميّة. لم يرَ أيّ منهم أنّه كان يحاول كتابة شيء مُختلف للغاية، واعتقدوا فقط أنّه كان يحاول القيام بالشيء المعتاد ولم ينجح كثيرًا حتى في هذا. وأوصوه بأسلوب جون فيسك[17] الأكثر سهولة وعبقريّة.

كان سانت بيتر يقول بصراحة إنّه في تلك الأيام الذهبية، لم يكن مهتمًّا بالتشجيع. فعندما بدأت خطّة كتابه تتضح برمتها شيئًا فشيئًا مع مضي الوقت، وعندما بات يشعر بيده تنساب أسهل في كتابة مواده، وعندما تلاشت جميع الأحكام الغبيّة حول هذا النوع من الكتابة، غدَت علاقته مع عمله أكثر انسيابية، وطبيعيّة، وسعادة بمرور الأيام، اهتمّ حينها بعض الشيء بقدر اهتمام المغامرين الإسبان أنفسهم بالأمر ـ أو هكذا تخيّلهم البروفيسور. ومع المجلّد الرابع بدأ يعي أن ثُلَّةً من الشبان، في مناطق متفرقة في الولايات المتحدة الأمريكية وإنكلترا، كانوا مهتمين بشدّة بتجربته. ومع المجلدين الخامس والسادس بدؤوا بالتعبير عن اهتمامهم في المحاضرات وفي المطبوعات. وحقق له المجلدين الأخيرين شهرة عالمية حقيقية ومن ضمن ذلك نال ما كان يُسمّى بالمكافآت، وهي جائزة أكسفورد عن فئة التاريخ؛ خمسة آلاف جنيه أسترليني، شيّد بها المنزل الجديد الذي لم يرغب في الانتقال إليه.

قالت له زوجته ذات يوم بجديّة، عندما لمست تحولًا ساخرًا في بعض التعليقات التي أدلى بها حول المنزل الجديد، «غودفري، هل ثمة شيء آخر كنتَ تود القيام به بهذه النقود بدلًا من بناء المنزل؟».

«لا شيء عزيزتي، لا شيء. لو أمكنني أن أستعيد بهذا الشيك المتعة التي كتبتُ بها عملي التاريخي، لما حصلت مطلقًا على منزلك. لكن المرء لا يمكنه الحصول على ذلك بمبلغ عشرين ألف دولار. فالملذات العظيمة لا تشترى بثمن. هذا كل ما في الأمر، شكرًا لك».

مدينة فرنسية.

نمط من شعر الوجه سميّ على اسم الرسّام الفلمنكي أنتوني ڤان دايك في القرن السابع عشر، وبات يُعرف بلحية ڤان دايك.

شخصية الشيطان في الفلكلور الألماني، ظهر في أسطورة فاوست.

نوع من النباتات الغرنوقية.

سقف من أربع جوانب مائلة.

السيدة السلكية هي المانيكان المزودة بأسلاك لإضفاء انتفاخ في منطقة الأكمام والتنورة.

المسيو برغريت بطل رواية للكاتبة الفرنسية أناتول فرانس.

وهو يوم تحتفل به الطوائف المسيحية وتحيي ذكرى من رحلوا بالصلاة على أرواحهم.

ترمز شخصية ماكبث إلى الطموح الجامح في إحدى مسرحيات شكسبير الذي يشير إلى الجيشين الأسكتلندي والنرويجي بسباحين اثنين يتشاجران ويتمسّكان ببعضهما لينجوا من الغرق.

قناع واقي للعين من أضواء المصابيح المزعجة.

قشر الحنطة المفصول عنها بالدّرس.

طائفة مسيحية بروتستانتية، وتمثل الاعتدال الذي نادى بالابتعاد عن شرب الكحول.
kanuck في إشارة للكنديين من أصل هولندي أو ألماني أو فرنسي واستخدم هذا المصطلح أول مرة عام 1835.
: تقع شمال غرب فرنسا. Brittany
تقع جنوب فرنسا وعاصمتها تولوز.: Languedoc
هذه العبارة مكتوبة باللغة الفرنسية في الكتاب الإنكليزي.
فيلسوف ومؤرخ أمريكي.

الفصل الثاني

كان سانت بيتر في المنزل الجديد في ذلك المساء، يرتدي ملابسه من أجل العشاء. كانت كل من ابنتيه وزوجيهما مدعوون لتناول العشاء بالإضافة إلى الضيف الإنكليزي. تداعى إلى سمع زوجته صوت دوش الحمام أثناء عبورها بجانب باب غرفته. دخلت الغرفة وانتظرته حتى خرج برداء الحمام، يفرك شعره الأسود المُزْرَقّ والمُبلّل بالمنشفة.

«من المؤكد أنك سعيد بامتلاكك حمامًا خاصّا بك» قالت وهي تنظر بمحاذاته إلى داخل الحجيرة البيضاء المتلألئة، المغمورة بضوء المصباح الكهربائي، الذي تركه للتو.

«ومتى قلتُ عكس ذلك؟، لكن الأكثر من هذا هو أنني أحب أن يكون لي خزاناتي الخاصة. أحب أن يكون لي غرفة تضم جميع ملابسي، دون تعليق معطف فوق آخر، والنزول على ركبتيّ والتخبّط في الزوايا المظلمة بحثًا عن حذائي».

«بالطبع، والأكثر مهابة لعمرك أن يكون لديك غرفة خاصّة».

«إنّه أمر ملائم، بالتأكيد، ومع ذلك آمل ألاّ أكون كبُرت كثيرًا على نحو يبعث الاشمئزاز على الصعيد الشخصي؟» استرق نظرة في المرآة وعدّل من استقامة كتفيه كأنّه يحاول ارتداء معطف.

ضحكت زوجته، ضحكة دمثة وخفيفة بمرحٍ ذكي.

«لا، أنت وسيم جدًّا يا عزيزي، خاصّة، في ثوب الحمام. إنك تزداد حسنًا وتشدّدًا طوال الوقت».

«تشدّدًا؟» وضع حذاءه أسفل ونظر إليها. الشيء الذي كان عالقًا في ذهنه باستمرار أنها تزداد تشدّدًا أكثر وأكثر، حول كل شيء ما عدا صهرها؛ وأنّه من المحتمل أن يستمر الأمر على هذا المنوال، في حين يتوجب عليه أن يروّض نفسه على تحمّل ذلك.

«أعتقد أنّه أمر طبيعيٌّ» أردفت قائلة، «لكن عليك أن تحاول، وتحاول جديًّا، أعني أن تحدّ منه فهو يؤثر على سعادة ابنتيك. أنت صارم جدًّا مع سكوت ولوِي. جميع الشبّان لديهم حماقات غبيّة- وأنت كنت تفعل الكثير منها».

جلس سانت بيتر واضعًا مرفقيه على ركبتيه، منحنيًّا إلى الأمام، يداعب بهدوء شراشيب ثوب الحمام. «ما هذا الكلام يا ليليان، لقد تحلَّيتُ بالصبر مع هذين الشابين أكثر من آلاف الشبان الحمقى الذين درسوا في صفوفي. لقد نفد صبري ولم أعد أحتمل، هذا كل ما في الأمر».

«أوه، غودفري، كيف يمكن أن تحاكم نفسك بهذه الطريقة؟ لكننا لن نناقش هذا الآن. هل لك أن ترتدي معطفك لنتناول العشاء، وحاول أن تكون ودودًا وسلِسًا الليلة».

بعد نصف ساعة وصل السيد سكوت ماكغريغور وزوجته والسيد لِوِي مارسيلوس وزوجته، وبعدهم على الفور وصل الباحث الإنكليزي، السيد إدغارد سبلينغ، الحريص والملتزم جدًّا بالعادات الأمريكية لدرجة أنّه ارتدى بدلة الخروج النهارية. كان رجلًا في الخمسين من عمره، هزيلًا، متجهّمًا، وهيئته ضخمة، برِجلين وذراعين طويلتين، ووجه على شكل كمثرى، وشاربٍ متدلٍّ يعود مظهره إلى فترة ما قبل الحرب. كان متخصّصًا في التاريخ الإسباني، وقد قطع كلَّ هذه المسافة إلى هاملتون قادمًا من ساسكاتشوان حيث يسكن ابن عمّهِ، ليستفسر عن بعض «مصادر» الدكتور سانت بيتر.

انتهى التعارف، وكان صهر البروفيسور، لِوِي مارسيلوس، هو من بادر بمصافحة السيد إدغارد. لقد تذكّر أنّه قابل في الصين، والتر سبلينغ، الذي كما اتضح، أنّه شقيق السيد إدغارد. وكان لمارسيلوس أيضا أخ يعمل هناك في تجارة الحرير. لقد تبادلا الآراء حول أحوال الشّرق، وبينما وضَع الشاب ماكغريغور نظارته ذات الإطارات القرنية، وطاف بلا كلل جيئة وذهابًا حول المكتبة. جلست الفتاتان بجانب أمهما، تستمعان إلى حديث الصين.

كانت السيّدة سانت بيتر جميلة جدًّا، شقراء وشديدة الأناقة- شقراء على نحو باهت، بعدما غزاها الشيب بعض الشيء. كانت تدرجات لون وجهها وشعرها، وأهدابها ناعمة جدًّا، لدرجة أن المرء لا يميّز عندما يقابلها للمرة الأولى، كيف تشكّلت ملامحها المُشبعة باللون المشرق على نحو محدد وواضح جدًّا. وعندما تكون منزعجة أو متعبة تصبح ملامحها حادّة. تشبهها روزاموند، ابنتها البكر، في الملامح، مع أنّ وجهها كان أضخم. لكنها مختلفة عنها تمامًا في اللون؛ بشعر أسود داكن، عينين غامقتين جدًّا، بشرة بيضاء ناعمة مع تورّد بنيّ في خديّها وشفاهها. كانت الأغلبية تُعدّ روزاموند جميلة بشكل باهر. إلاّ أنّ والدها، الفخور جدًّا بها، اعترض على هذا الرأي العام. فهو يراها طويلة جدًّا، ومشيتها بشعة. كان لديها انحناءة خفيفة،

وكانت عريضة الوركين والكتفين. كان يقول لوالدتها في بعض الأحيان؛ لروزاموند عظم فخذ عريض وكتف مسطّح مثل جدّه الكانوكي المُسنّ المسطح الجوانب تمامًا، فهم أحد تفرّعات هذه العائلة. لكن سانت بيتر لا يغفل عن الانتقاد الشديد. معظم الناس رأوا في روزاموند فقط رأسها الأسود الناعم، وعنقها الأبيض، وشفتيها المقوّستين الحمراوين، اللّذين كانا كقتامة الورود الداكنة ذات الرائحة الثقيلة.

كانت كاثلين، البنت الصغرى، تبدو أصغر من عمرها الحقيقي، شخصية نحيلة وساذجة، مولعة بالموضة. كانت شاحبة، بعينين عسليّتين فاتحتين، وشعر عسليّ، مع بريق أخضر بشكل واضح. بالنسبة إلى والدها، كان هناك شيء جذّاب جدًّا في الظلال الغريبة التي تضفيها عظام وجنتيها العريضتين على خديّها، وفي إمالة رأسها المفعمة بالحيوية. ولطالما كان يقول لها أن هيئتها كمقطع جانبي تشبه علامة استفهام.

راقَ للسيدة سانت بيتر بصراحة أن يكون لصهرها معارف مشتركة مع السيد إدغارد من السودان حتى ألاسكا. لاحظت كيف تجهّمَ سكوت لأن السيد إدغارد وما رسيلوس كانا يتحدثان عن أشياء خارج حدود دائرة اهتمامه الصغيرة. لم تبادر لتجعله ينخرط في الحديث، بل تركته يطوف بين الكتب مثل نمر قلِق، وكان البروفيسور ودودًا وهادئًا. عندما وصلت الخادمة الثانية إلى الباب وأشارت أن العشاء أصبح جاهزًا- أشارت إلى جاهزية العشاء ولم تصرّح علنًا- أرشدت السيّدة سانت بيتر السيد إدغارد إلى كرسيه على يمينها، بينما جلس الآخرون في أماكنهم المعتادة. بعد أن انتهوا من تناول الحساء، وجدت صعوبة في استدعاء الخادمة الصغيرة لأخذ الأطباق، وشرحت لضيفها أنَّ الجرس الكهربائي، تحت الطاولة، لم يوصل بعد- فلم يمضِ على إقامتهم في المنزل الجديد سوى أقل من أسبوع، ولم تنته بعد الاختبارات التجريبية للبناء.

«أوه، هذا يعني أنني لو قدِمت إلى هنا منذ أسبوعين لم أكن لأجدكم؟ لكن لا بدّ أنّه شيء ممتع جدًّا، أن تبني منزلك وفق رؤيتك الخاصة وكما يحلو لكِ» ردّ قائلاً.

بقيَ مارسيلوس صامتًا أثناء تناول الحساء، مُظهرًا ابتسامة دافئة وهزّة أكتاف خفيفة. «بما أنّ حديثنا عن البناء سيد إدغار- فهذا الأمر يعنينا أنا وزوجتي أيضًا. نحن في طور بناء منزل ريفيّ لنا على الشواطئ المُشجرة لبحيرة ميتشيغان، هذا المنزل هو أكثر من مجرد طموح. ربما ترغب أن تمضي في سيارتي وتلقي نظرة عليه. هل لديك ارتباطات ليوم الغد؟ يمكنني أن

أصطحبك لنصف ساعة، ويمكننا تناول الغداء في «النادي الريفي»، لدينا إطلالة رائعة؛ غابة حرجية خلفنا والبحيرة أمامنا، وشاطئ مخصّص لنا، وعليك أن تعلم أن حميّ سباح خارق. لقد حظينا بمهندس معماري فذّ وهو شاب نرويجي، تدرّب في باريس. شيّد لنا منزلًا ريفيًا على غرار النمط النرويجي، متناغمًا للغاية مع موقعه، إنه الشيء المناسب تمامًا لغابات الصنوبر الوعرة والأراضي المرتفعة».

بدا السيد إدغار متحمّسًا جدًا للقيام بهذه النزهة، وطلب من مارسيلوس تحديد ساعة معينة، لدرجة دفعت ماكغريغور الذي تفاجأ كثيرًا، بالنّظر إلى زوجته نظرة تنمّ عن شكوك جديّة، حيال تمادي هذه الشخصية البارونية ذي الشوارب الكثّة المتدلية إلى حدٍّ كبير.

تم الاتفاق على الموعد، التفت لِوِي إلى السيدة سانت بيتر «ألن تأتِي معنا أيضا يا عزيزتي؟ فأنتِ لم تخرجي منذ أن حصلنا على تجهيزات الأبواب الحديديّة الرائعة من شيكاغو. لقد وجدنا النوع المناسب تمامًا للمفصل والمزلاج سيد إدغار، وقمنا بنسخ جميع الأنواع الأخرى منه. فمقابض مستعمرتك الزجاجية لا تناسبنا».

تنهدّت السيدة سانت بيتر. فقد ركَّب سكوت وكاثلين مقابض زجاجية في كامل منزلهما الجديد، مع أنها تعلم أن لِوي لم يقصد جرح مشاعرهما- إلاّ أنّ حماسه الطائش غالبًا هو ما يجعله يقول أشياء غير لائقة.

«لقد كنا محظوظين للغاية في الحصول على جميع الأشياء الصغيرة المناسبة» كان لِوِي يبوح بسرور للسيد إدغار. «لا يوجد حقًّا أيّ عيب في التصميم، يمكنني قول ذلك بما أنني مجرّد متفرّج؛ فكل شيء تم القيام به من قبل الشاب النرويجي وزوجتي والسيدة سانت بيتر و..»، وضع يده بلطف فوق ذراع السيدة سانت بيتر العارية، «ولقد أطلقنا اسمًا على مكاننا! لقد طلبتُ أن يكون المنزل من النوع الثابت. حسنًا يا روزاموند، سأفصح عن سرّنا الصغير الآن، فالأمر سيُسعد والدك وكذلك والدتك، لقد سمّينا منزلنا «أوتلاند» سيد إدغار».

أعلن الأمر وتراجع إلى الخلف. وقفت حماته إثر ذلك، فإفشاء السر لم يكن متوقعًا وبالكاد استوعبوا الأمر.

«كم هو رائع يا لِوِي! فكرة عظيمة حقًّا».

«نعم، أليس كذلك؟، علمت أن الأمر سيسعدكما». اكتفى البروفيسور بالتعبير عن انفعاله برفع حاجبيه الكثيفين، والملتويين بحدّة. «دعني أشرح الأمر سيد إدغار» أردف مارسيلوس

بحماس. «لقد أسمينا منزلنا على هذا النحو نسبة إلى توم أوتلاند، وهو عالِم ومُخترع أميركي، شاب ولامع، لقى مصرعه في فلاندرز[18]، وهو يقاتل مع الفيلق الأجنبي، في السنة الثانية من الحرب، عندما كان بالكاد يبلغ الثلاثين من عمره. قبل أن يندفع ويذهب إلى الحرب، اكتشف هذا الشّاب مبدأ «فراغ أوتلاند[19]»، وقد نجح في شرح الفراغ الحاجز الذي يُعد ثورة في مجال الطيران. لم يخترع هذا فحسب، لكن، من الغرابة جدًّا بالنسبة لشاب متهوّر مثله، أن بذل جهدًا في حمايته. لم يُسعفه الوقت لإيصال اكتشافه أو تسويقه ـ اندفع ببساطة إلى صفوف القتال وترك أهم اكتشاف في حياته، يواجه مصيره». بدا السيد إدغار، جامدًا وحائرًا، ومذهولًا بعض الشيء «هل أفهم أنّك تشير إلى مخترع فراغ أوتلاند؟».

كان لِوِي مُبتهجًا في حديثه. «بالضَّبط إنه هو. من المؤكّد أنك تعرف كل شيء عنه. كانت زوجتي خطيبة الشَّاب أوتلاند، فعليًّا هي أرملته، وقبل ذهابه إلى فرنسا كتب وصيّة لصالحها؛ فلم يكن له أقرباء على قيد الحياة. ومع حلول نهاية الحرب، بدأنا نشعر بأهمية ما قام به أوتلاند في مختبره ـ فأنا مهندس كهرباء بحكم المهنة. لقد طلبنا مساعدة خبراء وانتقلت الفكرة من المخبر إلى السوق التجارية. كانت العائدات المالية وما تزال كبيرة بالطبع».

وبينما توقّف لِوِي عن الكلام ليتناول قطعة لحم قبل أن يتم نقل الأطباق، أشار السيد إدغار أنه هو نفسه كان في الخدمة الجوية[20] أثناء الحرب، في قسم البناء، ويا لها من مفارقة أن يتزامن نشوء فراغ أوتلاند في زمن الحرب.

«أرأيت»، قال لِوِي، «لم ينل أوتلاند شيئًا من الحرب سوى الموت والمجد. بطبيعة الحال، نحن نشعر أنّنا مدينون له بشدّة. كما نشعر أنّ واجبنا الأوّل في الحياة هو الاستفادة من هذا المال كما كان يتمنى ـ لقد قدّمنا منحًا دراسية في جامعته هنا، وأشياء من هذا القبيل. لكن أردنا أن يكون منزلنا بمثابة تخليد لذكراه. إننا مقدمون على نقل مَخبرِه من هناك، في حال سمحت الجامعة بذلك ـ ونقل جميع المُعدّات التي عمل بها. خصّصنا غرفة لمكتبته وصوره. عندما يأتي زملاؤه العلماء إلى هاملتون للاطّلاع على حياته، وجمع معلومات عنه، كما يفعلون الآن، سيجدون في منزل أوتلاند كتبه ومعدّاته، وجميع مصادر إلهامه».

«حتى روزاموند» تمتم ماكغريغور، وعينيه على سلطته الخضراء الباردة. كان يقاوم رغبته في الصراخ للإنكليزي أن مارسيلوس لم يلتق توم أوتلاند، في حين أنّه؛ ماكغريغور، كان

زميله وصديقه في الدراسة.

كان السيد إدغار مستمتعًا بقدر ما كان مُرتبكًا. لقد أتى إلى هنا للحديث عن مخطوطات عالقة في بعض الأديرة المتهالكة في إسبانيا، لكنه نسى أمرهم تقريبًا في خِضَمّ الحديث الدائر. كان مُهتمًّا بالفعل بمجال الطيران وجميع مشاكله. طرح بعض الأسئلة واقتصرت تعليقاته بمجملها على عبارة تعجّب واحدة، «أوه»، لكن هذه الكلمة من شفتيه، يمكن أن تنطوي على معانٍ كبيرة؛ من لامبالاة، واستفهام ذكيّ، واهتمام وجداني، وحنق رجل متواضع لدى سماعه إفشاءات ذات طابع شخصي للغاية. انتهى ماكغريغور، قبل الآخرين، من الحلوى. واستلّ سيجارًا كبيرًا من جيبه وأشعله من إحدى شموع الطاولة، كأبغض عمل يمكن أن يخطر في باله.

عندما همّوا بمغادرة غرفة الطعام، أمسك سانت بيتر الذي بالكاد تحدث أثناء العشاء، بذراع السيد إدغار وقال لزوجته: «هلاَّ تسمحين لي عزيزتي، علينا مناقشة بعض المسائل الاختصاصيَّة». وسار بضيفه إلى المكتبة، وأغلق الباب.

بدا مارسيلوس خائبًا بشكل واضح، وقف محدّقًا بهم بحزن، مثل طفل صغير أمروه بأن يذهب إلى الفراش. كانت عينا لِوي زرقاوين على نحو واضح، مثل ياقوت فاتن، لكن باقي وجهه تلوّن بعض الشيء، كان رجلاً مصبوغًا كالإسقمري[21] نوعاً ما. وحدها عينيه، وحركاته السريعة والمتهوّرة أعطت نكهة لحياة كان ينبض بها. لم يكن هناك شيء يشير إلى السامية في محياه باستثناء أنفه ـ الذي يبدو في الصدارة. لم يكن سمة غير جميلة إطلاقًا، لكنه نما في وجهه بصلابة باهرة، وبجذور ثابتة، مثل شجرة بلوط قوية تنمو على سفح تلٍ.

كانت السيدة سانت بيتر تهتم دائمًا بلِوِي، لذلك طلبت منه القدوم وإلقاء نظرة على السجادة الجديدة في غرفة نومها. وقد أنعشه هذا، فأخذ بذراعها وصعدا الدرج سوية.

بقيَ ماكغريغور مع الأختين، تمتم قائلاً: «أوتلاند، أوتلانديّ» وهو يتلمّس منفضة السجائر. تظاهرت روزاموند بأنها لم تسمعه، لكن الأحمر الداكن الذي اعتلى وجنتيها، امتدّ قليلًا باتجاه أذنيها. «تذكّر أنه علينا المغادرة باكرًا يا سكوت» قالت كاثلين: «عليك الانتهاء من مقالتك الافتتاحية الليلة». «من المؤكّد لن تدعيه يعمل الليلة أيضاً؟» سألت روزاموند.

«ألا يتوجّب عليه أن يريح دماغه في بعض الأحيان؟ فالكتابة الإبداعية تكون أفضل عندما تخرج بشكل عفويّ».

«أوه، وهنا تكمن مشكلتي» قال سكوت مؤكّدًا كلامها. «بغض النظر أنّي أواصل العمل بكدٍ وجدّ، فأنا بغيض أيضاً في أسلوب عفويتي وقول الحقيقة، والعامة لن يحتملوا ذلك. ليست مقالة افتتاحية تلك التي عليّ إنهاؤها، بل قصيدة نثر يوميّة أكتبها للنقابة، وأتقاضى عليها خمسة وعشرون دولارًا. وهذه فكرتها:

«عندما تكون إمكانياتك متواضعة وتطلّعاتك عالية، عليك الاعتراف وأنت تلعن حظك، بأنه عالم أزليّ، رائع وملعون».

«أيّ هراء هذا، يا للعجب».

ألقى عقب السيجار بعنف في المدفأة، كان يعلم أن روزاموند تمقت مقالاته وأشعاره الرّنانة. كانت شديدة الحساسيّة في تذوّقها للأدب، مثل والدتها- التي يعتقد إنها لا تملك عمومًا نصف ذكاء زوجته. وبما أنّها الآن وريثة توم أوتلاند، فهي تمقت الإشارة إلى المبالغ المالية، وخاصة المبالغ الصغيرة.

بعد قولهما ليلة سعيدة، وبعد أن أصبحا خارج الباب الأمامي، أمسك ماكغريغور بمرفق زوجته وسار بها باتّجاه البوابة حيث تصطفّ سيارته الفورد، ملقيًا على أسماعها وهما يهرولان: «ماذا يعني بحقّ الجحيم أنها فعليًّا أرملته؟ هل يعني أرملة حقًّا أم العكس؟ أمر غريب حقًّا!!».

إقليم في بلجيكا، يقع في الشمال ويتحدث سكانه الهولندية.

المقصود الفراغ الحاجز المحمي بالغاز في محرك الطائرة العسكرية.

المقصود السلاح الجوي الملكي البريطاني.

نسبة إلى سمك الإسقمري

الفصل الثالث

استيقظ سانت بيتر صباح اليوم التالي، متمنيًا أن يجد نفسه منقولًا على فراشه من منزله الجديد إلى القديم. لكنه كان يوم أحد، وفي هذا اليوم تتناول زوجته الإفطار معه دائمًا. لا يوجد مهرب؛ سيجتمعون للتباحث بما حدث.

عندما وصل إلى غرفة الطعام كانت ليليان جالسة إلى الطاولة بالفعل، خلف دورق القهوة. «صباح الخير غودفري، أتمنى أن تكون قد حظيت بليلة هانئة». كانت نبرتها هزيلة لدرجة توحي بأنها تتمنى عكس ذلك.

« كانت ليلة رائعة وأنتِ؟»

«أنا مرتاحة الضمير» وبالكاد ابتسمت. «كيف يمكن أن تسمح لنفسك أن تكون فظًّا في منزلك؟».

«أوه عزيزتي، ذهبت سعيدًا إلى النوم ظنّا أني لم أقل شيئًا مسيئًا طوال السهرة».

«صحيح، لم أسمع شيئًا البَتّة. يمكن لصمتك المستهجن أن يقتل حياة أيّ شريكين».

«إن كان الأمر يتعلق بالليلة الفائتة. أنت مخطئة تمامًا بشأن مارسيلوس، فهو لم يلاحظ ذلك».

«إنه مهذّب جدًّا لدرجة لا تسمح له بالتَّعبير عن الأمر، لكنه شعر بذلك. إنه حسّاس للغاية، ولا يأخذ الأمور على محملٍ شخصي كونه شخص متعلّم ومثقّف»

ضحك سانت بيتر. «هراء يا ليليان!»، «لو كان كذلك، لما أمكنه حضور عشاء السهرة والاستحواذ على كامل الحديث. كما يفعل دائمًا. لا أمانع عندما يكون العشاء في منزلنا، لكني أكره رؤيته يفعل ذلك في منازل الآخرين».

«كن مُنصفاً يا غودفري، أنت تعلم أنّه كلّما تحدّثت عن عملك في إسبانيا، يشاركك لِوِي الحديث بحماس، إنّه فخور بك أكثر من أي شخص آخر».

«ولهذا السبب التزمتُ الصمت. فالقدرة على الدعم ليست في متناول أيّ شخص- وكذلك الطلاقة في الكلام».

«إنك هكذا على الدوام؛ لا تفعل شيئًا ولا تدعه يفعل، لا تسمح له بمناقشة أمورك، وتستاء عندما يتحدث في شؤونه».

«أعترف أني لا أستطيع تحمل الأمر عندما يتحدث عن أوتلاند وكأنه يخصّه (أعني توم، وليس بالطبع، منزلهما المذهل) أفهم جيّدًا ما يرمي إليه. ومساندة روزاموند له! إنّها وقاحة فجّة».

عبَستْ زوجة سانت بيتر شاردةً: «علمتُ أن الأمر لن يروق لك، لكنهما سعيدين به، كما أن دوافعهما شهمة للغاية».

«فليوقفا هذا الهراء، أوتلاند لا يحتاج إلى سخائهما وشهامتهما! لقد حصلا على كل ما كان يُفترض أن يكون ملكه، وأقّل ما يمكنهما فعله حيال الأمر هو التزام الصّمت، وألاّ يحوّلا عظامه إلى أصول شخصيّة. إنّ الأمر برمته يختصر في هذا، يا عزيزتي: أن يحب المرء التفاخر، أو لا يحبّه. أنتِ نفسك لم تحبي يومًا التفاخر. هلا تعطينني المزيد من القهوة من فضلك؟».

ملأت كوبه ثانية ومرّرته فوق الطاولة، «يدان جميلتان» تمتم ناظرًا بتمعّن إليهما وهو يتناول الكوب، «يدان جميلتان كالعادة». «أشكرك، لكن الكلام المُنمّق لا يروقني عندما يُغدَق ليُغطي على أمر ما، أو عوضًا عن قول الكلام المناسب. لا أحبّذه عندما يكون حماسيًّا، فهو في هذه الحالة ليس تنميقًا، بل إنه كلام سمج».

«حسنًا؛ ثَمَّة بعض الأشخاص لا يكترثون للكلام السمج. إنّه يُضْجِرُهم».

طوى منديله. «عليّ الانصراف الآن إلى مكتبي».

«لم يحِن الوقت بعد. لكنَّك هكذا على الدوام، لا تملك وقتًا للحديث معي. ألا تقول الأصول أنّه من الواجب ـ عندما يبدأ الحديث ـ أن يمتنع الرجل عن قول كهذا علانية إن كان سعيدًا مع زوجته أو في منزله أو راضيًا بنجاحه؟» تحدثت زوجة سانت بيتر بتأنٍّ، وكأنّها فكّرت في الأمر بشكل مُسبق.

«أوه، هذه المقولة تعود إلى زمن سحيق، أعتقد أنها ظهرت في عصر الفروسيّة تقريبًا ـ مع فرسان الملك آرثر. بغض النّظر عن الذين عاشوا في ذلك الزمن، فقد انبثق شعور بأنّ على الرجل القيام بمآثر دون التطرّق إليها، وعليه ألاّ يتحدّث باسم سيّدته، بل يغني لها مثل فيليس أو نيكوليتي، إنّها فكرة رائعة، من شأنها أن تحفظ مشاعر المرء العميقة: وتبقها حيويّة».

«لم يكن للشعوب الشرقيّة عصرًا للفروسيّة، فهم ليسوا بحاجة له»، علّقت ليليان. «وهذا التحفّظ- يستحيل في حدّ ذاته إلى تعالٍ متباهٍ، ومفعم بالغرور».

«أوه عزيزتي، هل ترين هذا تعالٍ! لن أجادلك في هذا. والآن عليّ الذهاب حقًّا، وأتمنى أن أتمكّن من الالتزام بالقوانين مثلما تفعلين. لست متحمسًا بأن أكون حَمًا. أنت من يثير الأمر، وأقدّر ذلك تمامًا».

«ربّما» قالت مستغرقة، بينما وقف هو مستعدًّا للمغادرة، «لأنك لم تحظَ بالصّهر الذي تريده، وفوق هذا كان شخصًا يحب المظاهر أيضا».

لم يرُدّ البروفيسور على هذا، كانت ليليان تغار بشدّة من توم أوتلاند.

غادَرَ المنزل وهو يفكّر أن الأشخاص الذين يتزوّجون بعد قصّة حب عظيمة، ويستمر هذا الحب، يقابلون في حياتهم دائمًا ما يغيّرهم على نحو فجائي أو تدريجي، أحيانًا يكون هذا الأمر هو الأطفال، أو شناعة الفقر، وأحيانًا يكون علاقة غرامية أخرى. في حالتهما، وعلى نحو غريب جدًّا، كان هذا الأمر هو طالبه توم أوتلاند.

قابل سانت بيتر زوجته في باريس، عندما كان في الرابعة والعشرين فقط من عمره، وكان يُحضّر لنيل الدكتوراه. كانت هي أيضا تدرس هناك. ظنّها الفرنسيّون فتاة إنكليزية بسبب لون شعرها الذهبي وبشرتها الجميلة. إلى جانب سحرها المُشعّ حقًّا، كان فكرها مثيرًا للاهتمام، لكن اتّضح أنّه من الخطأ تمامًا تسميته فكرًا، فالمضمون كان خادعًا. ما كانت تنعم به هو فطرة غنية تستجيب بقوّة مع معطيات الحياة والفن، وتُبدي حالات إعجاب أو نفور شديدة وغالبًا ما تكون غير مناسبة للموضوع المبتذل أو الشخص الذي يثيرهم. قبل زواجه، ولعدّة سنوات بعد ذلك، كانت أحكام ليليان المُسبقة، وتكهُّنها عن الأشخاص والفن (دائمًا غريزيّة وغير مفهومة، لكن أغلبها صحيح) في حين أنّها الأشياء الأكثر متعة في حياة سانت بيتر. عندما قبِل مبدئيًّا أول منصب عُرِض عليه، بغية الزواج في نفس الوقت، وترأس قسم التاريخ الأوروبي في هاملتون، تخلّى عن صحبة زوجته ليحظى بأصدقاء من مستواه الفكري.

كان معظم أصدقائه أكبر منه بكثير، لكنهم لم يكونوا في نفس مستواه سواء من ناحية الاطلاع والثقافة أو من ناحية غنى التجربة. الرجل الوحيد الآخر في الكلية الذي كان يقوم بعمل بحثيٍّ مهمّ هو الدكتور كرين، أستاذ الفيزياء. رأى سانت بيتر أنّه يشبهه إلى حدٍّ كبير، إلاّ أنّه كان رجُلًا مُملًّا- ضيّق الأفق خارج اختصاصه، وكريهًا على نحو مثير للإزعاج. وبعد عدّة

سنوات بدأ كرين يعاني من مرضٍ تبيّن مع الوقت أنْ لا شفاء منه، وأرسِل حينها لإجراء عملية، تكررت بين الفينة والأخرى. لم يكن لسانت بيتر أصدقاء في هاملتون يمكن أن تغار منهم ليليان إلى حين قدوم توم أوتلاند، الذي كان مناسبًا للبروفيسور بسبب طبيعته وبيئته البدائية لأن يساعد البروفيسور في عمله في كتابة المغامرات الإسبانية.

عندما كاد يصل إلى مكتبه في منزله القديم، تذكّر البروفيسور بأنّه يتوجّب عليه حقًّا إيجاد صيغة تفاهم مع مالك أرضه، وإلاّ سيقوم المالك بتأجير المكان دون علمه. استدار ونزل باتجاه الجزء الآخر من المدينة إلى محلات السيارات، حيث يعيش العمال فقط، وجد منزل مالك أرضه الصغير، يقبع على منحدر التل، فوق قبو له واجهة من القرميد الأحمر ومغطى بعرّيشة متسلّقة. كان أبيلهوف العجوز يجلس على المقعد أمام بابه، يقوم بصناعة مكنسة. فزراعة ذرة السرغام[22] إحدى مصادر قوته. وإلى جانبه كلبته الدشهندية[23]، مينا.

شرَح له السانت بيتر أنّه يريد البقاء في المنزل الفارغ وسيدفع أجاره كاملًا كلَّ شهر، لكن هذا المشروع الغريب أزعج أبيلهوف.» أحبّ التزامك جدًّا بروفيسور، لكن هناك أشخاص كثيرون يبحثون عن منازل للسَّكن ولا أرغب في خسارة أجار سنة كاملة من أجل بضعة أشهر ربّما».

«أوه، حسنًا يا صديقي، لتبسيط الأمر، سوف أستأجره لعام كاملٍ، أوّد أن أنهي كتابي الجديد قبل أن أنتقل».

بدا القلق ظاهرًا على الرجل الألماني» من الأفضل أن أسأل رجل التأمين، أليس كذلك؟ فهو سيوضّح لي مجالات استخدام المسكن المنزلي».

« لن يعترض. دعنا نلقي نظرة على حديقتك، يا لجمال محصول التفاح والكمثرى المنجلية لديك».

«لا أحبّ أشجار الزينة» قال الرجل العجوز بدعابة ماكرة، متذكّرًا شُجيرات البروفيسور المتلألئة وغير المثمرة، والأرض الجيّدة للزراعة المهدورة خلف جداره الجصيّ.

«ماذا عن أشجار الزيزفون؟».

«أوه، أزهار الزينة رائعة للصداع».

«لا تبدو كما لو أنّك تعاني من الصداع».

«لست أنا، لكن زوجتى تعاني منه على الدّوام».

«هل العزلة جميلة بدونها يا أبيلهوف؟؟».

«أشتاقها أيّها البروفيسور، لكني لست وحيدًا تمامًا» فرَك الرجل العجوز ذقنه بخشونة. «كلبتي مينا هنا وهي تقريبًا بمثابة شخص، وأعتقد لديّ الكثير من الأمور لأفكّر حيالها».

«حقاً، هل لديك ما يشغلك؟ هل هي أمور مُمتعة، آمل ذلك؟».

«حسنًا، أمور متعددة. عندما كنت صغيرًا في وطني الأم، كان من الصعب جدًّا أن أبقى مع زوجتي، ولم يكن لديّ وقت البتة للتفكير في الأمر، وعندما أتيت إلى هذا البلد، كان عليّ العمل بكدٍ وجدّ في هذه المزرعة لأسدّد ديوني من محاصيل التفاح. كنت مثل حصان. والآن أصبح الأمر سهلًا، وأستغرق وقتي في التفكير إزاء جميع الأشياء».

ضحك سانت بيتر. «جميعنا نُقدم على هذا يا أبيلهوف، هذا هو الشيء الوحيد الذي يجعلني أستأجر منزلك، كي أحظى بغرفة للتفكير، عمت صباحًا».

عابرًا الحديقة العامة، في طريق عودته إلى المنزل القديم، لمح منافسه وعدوّه المهنيّ، البروفيسور هوراس لانغتري، يقضي نزهة صباح الأحد. تقدّم بشكل أنيق، بهندامه الإنكليزي، الذي أحضره عندما عاد من إجازته الصيفيّة المعتادة في لندن، بقبّعة بولر ذات قالب غريب وعصا للمشي بمقبض معقوف. قلّما تبادل الرجلان الحديث مع بعضهما خلال العشرين عاماً باستثناء «صباح الخير» الرسميّة. عندما قدِم لانغتري إلى الجامعة لأوّل مرّة، كان بالكاد يبدو أكثر من صبيّ، بشعرٍ بنيّ متموّج، وبشرة نضِرة، لدرجة أن الطلاب أطلقوا عليه اسم ليلي لانغتري. جعلته وجنتاه المتوردتان المدوّرتان، وعيناه المستديرتان، وذقنه المستدير أقرب إلى طفل كبير. لم تغيّر منه كل هذه السنوات سوى القليل، باستثناء شعره المجعّد أصبح رماديًّا بالكامل، ووجنتيه المورّدتين أصبحتا أكثر تورّدًا، وتهدّل فمه قليلًا عند الزوايا، لذلك غدا مثل طفل كبُر على حين غرّة أكثر من كونه عاشها.

رأى سانت بيتر، فانعطف الرجل بشكل مفاجئ إلى ممشى جانبي، لكن البروفيسور لحقه.

«صباح الخير يا لانغتري، ستصبح أشجار الدردار هذه أشجارًا حقيقية في نهاية المطاف. لقد تغيّروا على نحو لا بأس به منذ قدومنا إلى هنا أوّل مرّة».

حرّك الدكتور لانغتري ذقنه المتورّدة جانبًا فوق ياقته المزدوجة العالية.

«صباح الخير دكتور سانت بيتر، لا أذكر حقًّا كيف كانت هذه الأشجار من قبل، يبدو أنّهم في حالة جيّدة الآن».

خطا سانت بيتر إلى جانبه» لقد طرأت العديد من التغييرات يا لانغتري، كما إنّهم ليسوا جميعًا في حالة جيّدة. ألم تلاحظ فرقًا كبيرًا في هيئة الطلاب ككل، في التشكيلة الجديدة التي تتخرّج كل عام الآن- كم يختلفون عن المجموعات في سنواتنا الأولى هنا».

تحرّكت الذقن الناعمة مجدّدًا، وطرفَ بعينه البروفيسور الآخر للتاريخ الأوروبي. «وما علاقة هذا؟».

«أوه، يتعلّق هذا بالمستوى في كلا الحالتين. لدينا حشود من الطلاب، لكنهم ليسوا متميّزين». «ربّما، لا أستطيع القول إنّي لاحظت الأمر». لم يكن الحديث بين الزميلين حديثًا وديًّا. رنّ جرس الكنيسة، ظهرت علائم الفرج على لانغتري «عليك أن تعذرني دكتور سانت بيتر، أنا في طريقي إلى القدّاس». رنّ جرس الكنيسة، ظهرت علائم الفرج على لانغتري «عليك أن تعذرني دكتور سانت بيتر، أنا في طريقي إلى القدّاس».

رضخ البروفيسور للأمر باستهجان. «حسنًا، حسنًا يا لانغتري، كما تريد. يا لهذا الجنون[24]!».

عاد لانغتري نصف خطوة إلى الخلف، متمهّلًا ومستعدًّا لخطوته السريعة المُباغِتة، وقال بتهذيب كامل: «أستميحك عُذرًا؟».

أشار سانت بيتر بيده بإيماءة النَّفي، ولم يؤخّر قاصد الكنيسة أكثر. سار الهُوينى إلى الأمام بتأنٍّ تحت أشعة سبتمبر الحارة، مُتسائلًا لماذا لم يلاحظ لانغتري سخُف ضغينتهم الطويلة. لطالما كانا متعارضين بشكل مباشَر في شؤون سياسة الجامعة، حتى أصبح الخداع والتضييق على بعضهما البعض جزءًا من واجباتهما المهنية.

عندما قِدم الشاب لانغتري إلى هنا في بادئ الأمر، كان من المفترض أن يكون اختصاصه التاريخ الأمريكي، كان عمّه رئيسًا لمجلس أعضاء الجامعة، ومؤثرًا للغاية في سياسات الولاية؛ في واقع الأمر، كان على المؤسسة العودة إليه للحصول على اعتماداتها المالية المعتمدة من قِبل الهيئة التشريعيّة. كان لانغتري مُحافظًا[25] في وجهة نظره، ويُعد إنكليزيًّا جدًّا في لهجته وسلوكه. كانت محاضراته مُملّة، ولم يُحبّه الطلاب. تم تقديم جميع الحوافز

المُمْكِنَة لجعل دروسه مستساغة وممتعة. وقد مُنحت اعتمادات سخيّة من أجل إقامة قراءات جانبية. ويمكن لأي طالب تقريبًا قراءة أيّ شيء كُتب في الولايات الأمريكية، ويحصل على تقدير لقاء ذلك في مادة التاريخ الأمريكي. ويمكنه أيضا زيادة الوقت المخصص في قراءة أبعاد «الشارة القرمزية[26]» في التاريخ الاستعماري، «توم سوير[27]» في تسوية ميزوري، وقد قيل إن سانت بيتر انتقد علانيّة هذه الأساليب المتراخية، لدى الهيئة التدريسية، وأعضاء مجلس الجامعة على حدٍّ سواء. وبطبيعة الحال، انتقمت منه «مدام لانغتري».

أثناء السنة الثانية من تفرّغ البروفيسور في إسبانيا، كان كل من هوراس وعمّه على وشك النجاح في إبعاد سانت بيتر عن قسمه. لقد عمِلا بهدوء شديد، إلاّ أنّه في آخر لحظة، علِمَ الطلاب القدماء لسانت بيتر في جميع أنحاء الولاية، بكل ما كان يجري في الخفاء، فتخلّوا عن جميع أعمالهم ومهماتهم لعدّة أيام، وقدِموا إلى العاصمة بالعشرات وحفِظوا له مكانه. كانت المعارضة هائلة جدًّا لدرجة أنّه عندما حانت سنته الثالثة وهو بعيد، لم يتجرّأ البروفيسور في طلب ذلك، لكنه مدّد عطلته الصيفية عوضًا عن ذلك. في الحقيقة كان يتابع سير عمل آخر أكثر من إلقاء محاضراته، وكان ينشر كتبًا- ليست كتبًا مدرسيّة جامدة- الأمر الذي اسْتُخْدِمَ ضدّه من قبل عمّ لانغتري. وحالما شعر لانغتري أن عدم شعبية مقرره مردُّها مادته، تم تكليفه بمنصب جديد. فمن غير الممكن أن يكون هناك رئيسان في قسم التاريخ الأوروبي، لذلك قام مجلس أعضاء الجامعة بتدبير منصب رئيس قسم عصر النهضة له، أو، كما قال سانت بيتر منصب عصر النهضة في قسم التاريخ. في السنوات اللاحقة، ولأسباب لا تتعلق كثيرًا بمحاضراته، حقق لانغتري نجاحًا أفضل. حيث أصبح، وبطريقة مثيرة للغرابة، بالنسبة إلى الأجيال الجديدة من أولاد الريف والقرى، المتدفقين إلى الجامعة بهذه الأعداد الكبيرة، مُدرّبًا في السلوك- ما كان يُسمّى بـ»المؤثّر». فبالنسبة إلى صبيّ مزارع، أو لاعب كرة قدم، يحظى بمصروف جيد، لكنه لا يعلم كيف يرتدي ملابسه، أو ماذا يقول، بدا لانغتري وكأنه طريق مختصرة. اصطحب عدّة مرّات مجموعات من الطلاب الجامعيين إلى لندن لقضاء فصل الصيف، وكانوا يعودون مصقولين بشكل رائع. وأدخل أخوية مشهورة جدًّا إلى الجامعة، وقد رعى أعضاؤها اهتماماته، كما فعل أعضاء النادي النسائي المنتسب للجامعة. أصبحت مكانته آنذاك في الكلية جيّدة مثل مكانة سانت بيتر تمامًا، وتساءل البروفيسور ما الذي يجعل لانغتري مغتاظًا بعد كل هذا. وما جدوى الاستمرار في هذا العداء؟ لقد أتيا

سوية إلى هنا في عمر الشباب، يكافحان من أجل مكانتهما ولقمة عيشهما؛ ولم يعودا الآن شابين كثيرًا كما ذي قبل؛ وربّما لم يعُد أيّ منهما يشغل منصبًا أفضل. ألم يستطع لانغتري أن يرى أنهما أصبحا متعادلين؟ فقد هُزِما كليهما.

نوع من الذرة الرفيعة، تستخدم في الأعلاف وفي صناعة المكانس.

نوع من الكلاب الألمانية الصغيرة، متطاولة الجسم، وقصيرة القوائم.

قالها البروفيسور بالفرنسية.

يتبنى وجهة نظر حزب المحافظين في إنكلترا.

رواية للكاتب ناثانيال هاوثورن.

رواية للكاتب مارك توين

الفصل الرابع

في عصر يوم الإثنين، صعَدَ سانت بيتر إلى مكتبه واستلقى على أريكته، منهكًا بعد قضاء يومه في الجامعة. كانت الأسابيع القليلة الأولى في السنة، مُجهدة جدًّا بالنسبة إليه؛ وثمة أشياء كثيرة مُرهقة إلى جانب محاضراته وجميع طلابه الجدد؛ اجتماعات هيئة التدريس الطويلة التي تقريبًا لم يكن فيها أحدٌ مخلصًا على الإطلاق، وكان القدماء يجاهدون على الدوام للحفاظ على المستوى التدريسي كما هو، والحؤول دون بلوغ الأساتذة الشباب من أصحاب الرؤية الثاقبة في تحقيق مبتغاهم، من تحويل المؤسسة بأكملها إلى الرياضة، وإلى الكليات الزراعية والاقتصادية التي تفضلها وترعاها الهيئة التشريعيّة للولاية.

كانت حرارة سبتمبر قاسية عليه، إلاّ أنه، يرغب في الخروج كل يوم إلى البحيرة- ولم يكن الأمر ملائمًا على الإطلاق في نهاية سبتمبر. كان مُستلقيًا مُغلقًا عينيه، يُريح ذهنه على مشهد خريفيّ رائع، ومياه زرقاء، عندما سمع طرقة على الباب ودخلت ابنته روزاموند متأنقة جدًّا بملابس حريريّة ذات تدرّج ليلكيّ زاهٍ، مُناسب لبشرتها على نحو مثير للإعجاب ومُظهرًا لمسة لاقندر دافئة في لون وجنتيها. بدَتْ طويلة بالفعل، بالنسبة إلى تلك الغرفة المنخفضة، ووقفتها التي تستميله فيها كما تفعل عادة. ومع ذلك، غالبًا ما كان الناس يلاحظون بشرتها المُشرقة فقط، وفمها المقوّس الذي لا يُقاوم، وعينيها الغامضتين، كما توم أوتلاند الذي لم ير فيها شيئًا آخر، كان شابًّا يافعًا وكان يراها شيئًا عظيمًا.

«هل أقاطعك عن شيء مهمّ يا أبي؟».

«لا، على الإطلاق يا عزيزتي، اجلسي».

لمحَت على طاولته المخصصة للكتابة مجموعة أوراق مكتوبة بخط يد ليست يده- خطٍّ تعرفه جيّدًا.

«ألا يوجد لديك خيارات أخرى لأماكن الجلوس؟» قالت مبتسمة «أبي، لا يعجبني أنّك تعمل في مكان مثل هذا، إنه أمر غير مناسب».

«إنه أسهل بكثير من أن أبدأ عملي في غرفة جديدة يا روزي. فغرفة العمل يجب أن تكون مثل الحذاء القديم؛ ليس مهمًّا كم هو رثّ، فهو أفضل من حذاء جديد».

«وهذا بالفعل ما جاء بي لرؤيتك».

تتبّعت روزاموند حواف ثقب في الحصير، بطرف ظلّ ثوبها الليلكي.

«ألن تسمح لي أن أشيّد لك مكتبًا صغيرًا في الفناء الخلفي للمنزل الجديد؟، لديّ أفكار جيدة بخصوص هذا الأمر، ولا تقلق بشأن ذلك على الإطلاق».

«أوه، شكراً روزاموند، إنّه لطف كبير منك أن تفكري في الأمر، لكن من الأفضل أن تبقيه مجرد فكرة فقط. ما يزال المكان هنا مليئًا بالأشياء. سأتابع عملي هنا في الوقت الراهن. إنه أمر غير منطقي، لكنه يناسبني كثيراً، فجزء كبير من العمل قائم على العادة».

«مع أشياء أوغستا القديمة المتموضعة هنا، وهذه المانيكان المغبرة؟ لماذا لم تأخذ على الأقل هذه الأشياء بعيدًا عن طريقك؟».

«يحقُّ لهم البقاء، فهم هنا منذ وقت طويل. إنّها غرفتهم أيضا. لا أريد أن أصادفهم ملقين في أحد مكبّات النفايات على طريق النهر. إنَّهم يعيدون لي الذِّكريات القديمة عندما كنتما فتاتين صغيرتين، وفساتين حفلتكما الأولى معلّقة عليهم في الليلِ أثناء عملي».

ابتسمت روزاموند على نحو باهت. «لا تمزح معي يا أبي، لقد جئت لأتحدث معك بشأن أمر مهم، إنه أمر معقّد للغاية، أنت تعلم أني أخاف منك بعض الشيء»، أخفضت عينيها الغامضتين والساحرتين.

«تخافين مني؟ لم تخافي مطلقًا من قبل».

«أوه، نعم، أخاف عندما تكون ساخرًا. ومن فضلك لا تكن هكذا معي اليوم. كثيرًا ما تحدثت أنا ولِوِي بهذا الخصوص، لأنَّنا كنّا نلاحظه بقوّة. كاد في كثير من المرّات على وشك إفشاء الأمر، لكنني كَبَحْتُ جماحه. إنك لا توافقنا دائمًا أنا ولِوِي. بالطَّبع إنّ نشاط لِوي ومعرفته التقنيّة كانا كفيلين بجعل اختراع توم ناجحًا تجاريًّا، بيد أننا لا نشعر بضرورة أن نحصل على جميع عائداته. نحن نرى أنّه عليك السماح لنا بتخصيص دخل لك، حتّى يكون بإمكانك ترك العمل الجامعي، وتخصيص كل وقتك للكتابة والبحث، وهذا ما كان توم يرغب به».

انتصب سانت بيتر بسرعة، بخفّة، كان يثبُ بمرونة عندما يتَملَّكُه غضب شديد، عابرًا الغرفة إلى النافذة، مُرخيًا الخطّاف ليغلقها بشكل نصفيّ، «ابنتي العزيزة» قال بشكل حازم

عندما استدار إليها: «لا يمكنني أخذ أيّ شيء من أموال أوتلاند».

«لكن لماذا؟ لقد كنت أفضل صديق له في العالم، إنه مدين لك أكثر من أيّ شخص آخر، وكان يكره أن يعوقك التدريس. لقد أعجب بعقلكَ، ولن يسعده شيء على الإطلاق أكثر من مساعدتك في القيام بعملك في الكتابة على نحو أفضل أكثر من أيّ شخص آخر. لو كان على قيد الحياة، فسيكون ذلك من أوّل الأشياء التي سيصرف بها هذا المال».

«لكنه ليس على قيد الحياة، ولا يوجد أيُّ كلمة عني في وصيّته، وبالتالي لا يوجد شيء تبنين عليه نظريتك الجميلة. إنّه لطف رائع منك ومن لِوِي، وأنا مسرور جدًّا، كما تعلمين».

«لكن توم شخص غير عمليّ أبدًا يا أبي. لم يخطر له أبدًا سوى أنَّ النقود ستكون مصروف ملابس باذخة لي، في حال قد فكّر غير ذلك حقًّا، فلا أعلم- فهو لم يتحدث معي في الأمر».

ابتسم سانت بيتر بحيرةٍ. «لست متأكدًا من عدم عمليّته، فعندما كان يعمل على ذلك الغاز، قال لي ذات مرّة أنّه قد يُدرّ بثروة. لكن من المؤكّد أنه لم ينتظر ليتأكّد ما إذا كان سيدرّ بثروة حقًّا، وهذا يرتبط بجانب آخر من شخصيته. نعم، أعتقد أنّه كان يعلم أن فكرته ستدرُّ المال، وأراد أن تحصلي على هذا المال، سواء معه أو بدونه».

تعكّر صفو وجه الفتاة. «حتَّى لو تزوَّجت؟».

«لقد أراد أن تحظي بكلِّ ما يجعلك سعيدة».

تنهَّدت براحة. «لقد تكفّل لِوِي بهذا. الشَّيء الوحيد الذي يؤرّقُني هو أنني أشعر بضرورة أن تأخذ بعضًا من هذا المال، فهو كان يتمنى ذلك. لقد كان ممتنًّا جدًّا، وشَعَر أنّه مدين لك بالكثير».

انتصب والدها ثانية، بتلك الحركة العصبية والحذرة.

«عليك أن تفهمي الآن وإلى الأبد يا روزاموند، أنّه لا يدين لي بأكثر ممّا أدين له. ولا شيء يؤلمني بهذا القدر أكثر من أن يتحدث شخص من عائلتي على أنّنا قدّمنا شيئًا جيّدا إلى هذا الشاب، وأننا أظهرناه إلى العلن، وصنعناه. أثناء مسيرتي في التدريس، قابلتُ عقلًا واحدًا مميّزًا؛ لولا هذا لكنت اعتبرت إلى حدٍّ كبير أن سنوات عطائي في التدريس ذهبت سدى. ولم يكن من الممكن أن يكون هناك مسألة مال بيني وبين توم أوتلاند. لا يمكنني أن أشرح كيف أشعر حيال الأمر، لكن هذا سيفسد، بطريقة ما ذكرياتي عنه، سوف يجعل ذلك الحدث في

حياتي عاديًا مثل أيّ شيء آخر. وسيكون هذا خسارة كبيرة بالنسبة لي. أنا ثابت بكلِّ معنى الكلمة في رفضي لعرضك؛ صداقتي مع أوتلاند هي الشيء الوحيد الذي لن أنقله إلى أَلْسِنَةِ العامَّة».

بدَت ابنته مرتبكة ومُستاءة بعض الشيء. قالت متذمرة: «أشعر أحيانًا أنّك لا تُحبّذ أن آخذهم أنا أيضا».

«ما من خيار آخر أمامك، فبالنسبة إليك، أقرّ الأمر بخطّ يده. كانت تربطكما علاقة اجتماعية خاضعة لقوانين المجتمع، وهذه القوانين قائمة على الملكية. لكن الأمر مختلف بالنسبة لي، فليس ثَمَّة بند ماديٍّ في الوصيّة. لقد وكّلك بتنفيذ جميع أمنياته، وأعلم أنّ هذا يُحمّلك مسؤوليات ـ لكنها ليست تجاهي. يوجد «رودني بليك». بالطبع في حال كان موجودًا بأيّ حال من الأحوال. هل ما تزالين تبحثين عنه؟».

«لِوِي يهتم بالأمر. إنّه يتقصّى وقد رفض العديد من المحتالين».

«حسنًا، هناك بالطبع أصدقاء توم الآخرين. عائلة كرين، على سبيل المثال؟».

تجهّم وجه روزاموند. «لن أقول ما يزعجك بشأن آل كرين، يا أبي. سوف نهتم بأمرهم، فالسيدة كرين كائن مزعج، وهي تتلقى توجيهات ذلك المحامي المشبوه والمخيف أخيها، هومر برايت، وأنت تعلم من يكون».

« أوه، نعم! لقد كان أكبر محتال على الإطلاق عرفته بين طلابي».

وقفت روزاموند متهيِّئَةً للذهاب. «أريدك أن تكوني سعيدة إلى أبعد حد يا ابنتي». أردف سانت بيتر قائلًا. « وهذا ما كان يرغب به توم. إنّ الشباب أمثالك أنتِ ولِوِي هم فقط القادرون على الاستمتاع بالمال. ولد يكم تكاليف لتغطية الغرامة، والالتزامات المتوقّعة تقريبًا. لن تشعري بالأسف في حال كنتِ كريمة مع أشخاص مثل السيدة كرين».

«شكراً يا أبي، لن أنسى هذا». نزلت روزاموند من الدرج الضيّق، مخلّفة وراءها رائحة خفيفة ومُنعشة من اللاڤندر وجذر السَّوسن. استلقى والدها ثانية على الأريكة العريضة. «إنّ مجرَّد التلميح عن عائلة كرين سيكون كافيًا». كان يُفكّر.

لم يتفهّم ابنته الكبرى على الإطلاق. كما لم يتظاهر بفهم كاثلين أيضا؛ لكنه يعلم غالبًا كيف تشعر حيال الأمور، وكانت تبدو دائمًا إنها بحاجة إلى رعايته أكثر من روزاموند. عندما

كانت طالبة في الجامعة، اعتاد أن يراها أحيانًا تسير بمفردها في الحرم الجامعي، رأسها وكتفيها منخفضان في وجه الريح، وفروتها بجانب وجهها، وتنورتها الضيّقة جامدة بثبات. وكانت تقوم بأمر جريء أيضا، عندما تقول له: «يمكنني ـ الذهاب ـ وحدي»، بخطوتها السريعة ورأسها الصغير المُضحك؛ لم يروقه هذا، وجعله يشعر بانقباض مُفاجئ. كان دائمًا يُناديها ويلحق بها، ويجعلها تمسك بذراعه، وتنصاع له.

لطالما كانت أسرع من روزي في دروسها، وماهرة جدًّا في رسم بورتريهات الألوان المائية. وقد رسمت العديد من الصور الجيّدة حقًّا لأبيها ـ واحدة منهم ـ على الأقل، كانت طبق الأصل عنه. لكنها لم تنجح مع والدتها. حاولت مرارًا وتكرارًا؛ كانت دائمًا تجد صعوبة في رسم الوجه، الشّفة العليا أطول مما تبدو عليه في الواقع، والأنف طويل ومقطوع، ويظهر في رسمتها شيئًا باهتًا يشبه اللّصاقة لا يشبه بشرة ليليان الجميلة.

«لا أرى ماما تشبه هذا»، كانت تقول هذا، بحركة رفض من ذقنها، «بالطبع، لم أنجح في رسمها! لقد بدت مثل هذا». رسمت الكثير من اللوحات لرأس أختها، وفي جميع هذه الرسومات ثَمَّة لمسة عاطفية للغاية، ومزيّفة بغرابة، لذلك احتجّ لِوي مارسيلوس عليهم. وقد حثّها أستاذ الرسم في الجامعة بأن تذهب إلى شيكاغو وتدرس الرّسم الحيّ في معهد الفنون، لكنها قالت بحزم: «لا، لا يمكنني رسم أحد باستثناء أبي، ولا يمكنني أن أجعل من رسمه مصدر قوتي».

«الشيء الوحيد الغريب في كاثلين» كما كان يقول والدها لأصدقائه، «هو أنها لا تعتقد بأنها تملك شيئًا من التميّز. في الوقت الذي أصادف طالبات في صفوفي يعتقدن أنهن مُميّزات لمجرد امتلاكهن شرارة كفاءة في أيّ مجال».

على الرغم من أنّ العناد كان باديًا في شخصيّتها، وفي الطريقة التي تحرّك بها بذقنها، إلاّ أنّ كاثلين لم تكن تتمسك برأيها أبدًا على نحو أعمى، ولم تعاند والدها، إلاّ مرّة واحدة؛ وكان ذلك بعد فترة وجيزة من خطوبة روزاموند وتوم، عندما أعلنت حينها أنها تستعد للزواج من سكوت ماكغريغور. كان سكوت شابًّا، وقد بدأ للتوّ عمله كصحفيّ، ولم يكن راتبه يكفي لإعالة شخصين.

وقد اعتقد سانت بيتر أنّ هذه الحقيقة ستكون بمثابة فرامل للشابين الطائشين المُقدمين على الزواج. لكن بعد خطوبتهما، بدأ سكوت سريعًا في كتابة قصيدته النثرية اليومية في نقابة

الصحف. لقد كان ناجحًا منذ البداية، وزاد دخله بما يكفي ليتمكّن من الزواج. كان سانت بيتر يتطلّع إلى زوج أفضل لكاثلين. لم يكن متكبّرًا، كما أنّه أحبّ سكوت ووثق به؛ بيد أنّه كان يعلم أنَّ سكوت شخصًا عاديًّا، وأن كاثلين موهوبة على نحو مختلف تمامًا. اعتقد والدها أن رجلًا أكثر أهمية سيجعلها أكثر سعادة. لم يكن هناك ما يوقفها، وفوق ذلك، فإن الشيء المثير للفضول في هذا، كان دعم والدتها لها منذ البداية. راوَد سانت بيتر شكوكًا غريبة أنها تقوم بذلك لمصلحة روزاموند أكثر من مصلحة كاثلين؛ فلطالما قامت ليليان بأشياء من أجل روزاموند. وفي الوقت نفسه لم يتمكن من معرفة كيف أنَّ زواج كاثلين سَيَصُبُّ في مصلحة روزي. «روزي نسخة ثانية منك» أقرّ بذلك في أحد المرّات لزوجته، «لكنّك لم تدلّلي نفسك مطلقًا عندما كنتِ في مثل عمرها كما تفعل هي الآن».

الفصل الخامس

كان الطقس في ظهيرة ذاك اليوم من شهر سبتمبر ـ دافئًا، وعابقًا بالرياح المُغبرة على نحو كثيف، مع رائحة العنب الناضج، والكروم الذابلة، وتموجات البحيرة الزرقاء في الأفق. مضى سكوت ماكغريغور إلى الزاوية الغربية من الحرم الجامعي، حيث وقع نظره على السيدة سانت بيتر، التي كانت أمامه مباشرة، تسير في الاتجاه ذاته. ركَضَ ولحق بها.

«مرحبا ليليان، هل أتيتِ لرؤية البروفيسور؟ وأنا أيضا، أريده أن يذهب معي إلى السباحة ـ لقد انتهيتُ من العمل. يمكننا أن ندلف إليه ونسمع نهاية محاضرته، أو الجلوس هنا على المقعد تحت أشعة الشمس؟».

«يمكننا أن نمضي بهدوء إلى الباب ونصغي. وإن لم يكن الأمر مهمًّا، يمكننا العودة والجلوس للتحدّث».

«جيّد. لقد قدمت باكرًا لاستراق السمع قليلًا. إنّها الساعة التي يقضيها مع طلابه المتخرجين، أليس كذلك؟».

دخلا ومضيا عبر القاعة حتى بلغا الرقم 17؛ كان الباب مواربًا، وأحد الطّلاّب يتحدث في تلك اللحظة. وعندما انتهى، سمعا البروفيسور يردّ عليه. «لا يا ميلر، شخصيًّا، لا أفكّر في العلم كثيرًا على أنّه مرحلة من التطور البشري، لقد قدّم لنا الكثير من الألاعيب الحاذقة؛ التي صرفتْ اهتمامنا بعيدًا عن المشاكل الحقيقيّة، وبالطَّبع، بما أنّ هذه المشاكل غير قابلة للحلِّ، أعتقد أنّه يجب أن نَمْتَنَّ لهذا الإلهاء. لكن الحقيقة أنّه لطالما كان العقل البشريّ، أيُّ العقل الفرديّ، أكثر إثارة للاهتمام بانشغاله بالمُعْضِلات القديمة، وإن لم يحلّ شيئًا منها. لم يُقدّم لنا العلم أيّ إدهاشات جديدة، ما عدا تلك الإدهاشات الظاهرية التي نحصل عليها من المشاهدة الحاذِقة والبراعة في ألعاب الشعوذة. لم يُقدّم لنا متعًا أكثر غنى، كما حدث في عصر النّهضة، ولا أيّ خطايا جديدة ـ ولا واحدة! في الواقع، لقد أزال خطايانا القديمة. إنه المختبر العلمي، وليس «حمَل الله[28]»، الذي يزيل خطايا العالم. لذلك سوف تُقر أنّه ليس هناك ما هو مثير للأهمية حول الخطيئة الفيزيولوجيّة. لقد كنّا أفضل حالًا عندما كانت الخطيئة الكبرى تتثمل في قضية سخيفة مثل تناول الطعام. لا أعتقد أنّك تساعد الناس

بتسخيف سلوكهم ـ بل تحطّ من قدرهم. كانت الحياة ثرية عندما كان مشهد احتشاد الرجال والنساء في الكاتدرائية في عيد الفصح، أساسيًّا في تجسيد دراما رائعة مع الله، إلى جانب الملائكة المتلألئين على أحد الجانبين، وأشباح الشرّ التي تجئ وتذهب على الجانب الآخر.

كان الملك والمتسوّل يتمتَّعان بنفس الفرص من المعجزات ومن الإغراءات والإلهامات العظيمة. وذلك ما كان يجعل الرجال سعداء، ومؤمنين بغموض وأهميّة حيواتهم الفردية. هذا ما جعلنا سعداء بتلبية احتياجات مخلوقاتنا، وغرائزنا الجسديّة بأكبر قدر ممكن من مظاهر الأبّهة والاحتفاء. لقد قدّم الفنّ والدّين للإنسان (إنَّهما الشَّيء ذاته بالطبع، في نهاية المطاف) السعادة الوحيدة التي حظيَ بها على الإطلاق.

«لقد تعلَّم موسى أهميَّة ذلك في البلاط المصري، وعندما أراد أن يجعل مجموعة من العبيد شعبًا مستقلًا في أقصر وقت ممكن، ابتكر شعائر مدروسة لمنحهم شعورًا بالكرامة والحافز. فكان لكل فعل غاية خيالية. كان تقليم الأظافر من الشعائر الدينيّة. تبحّر اللاهوتيون المسيحيّون في كتب القانون، على غرار الفنانين العظماء، وتوصّلوا إلى نتائج مذهلة من خلال عمليات الحذف. لقد أعادوا تشكيل المرحلة بمزيد من المساحة والغموض، ملقين الضّوء على بضع خطايا تحمل قيمة دراميَّة عظيمة ـ فقط سبعة، كما تعلم، وثلاثة من هذه الخطايا هي خطايا آسرة على نحو دائم. ومع اللاهوتيّون، ظهر بناؤو الكاتدرائيّات؛ من نحَّاتين، وعمّال زجاج ورسّامين. قد يكونوا غيّروا الصَّلاة قليلًا، دون انتهاك المقدّس، وقالوا إنّها مشيئة الله في الفن كما هي في السَّماء. كيف يمكن أن تتحقَّق مشيئة الله في مكان آخر كما تتحقَّق في السَّماء؟ لكن أعتقد أنَّ الساعة قد انتهت. ربّما تخبرني الأسبوع القادم يا ميلر، ماذا قدّم لنا العلم في نظرك، باستثناء أنّه جعلنا مرتاحين جدًّا؟».

حالما غادرَ الشَّاب الغرفة، دخلت السّيّدة سانت بيتر وماكغريغور.

«لقد جئتُ لأصطحبك معي إلى الكهربائيّ يا غودفري، لكنني عدلتُ عن رأيي، فسكوت يريدك أن ترافقه إلى البحيرة، واليوم جميل جدًّا، لذلك عليك الذَّهاب».

«السّيّارة في الخارج، سَنُقِلّ ليليان إلى المنزل يا دكتور، ويمكنك أن تجلبَ بدلة السباحة. بالمناسبة، لقد استمعنا إلى جزء من محاضرتك، كيف تنظر إلى الميثوديين الَّذين ما زالوا لغزًا بالنِّسبة لي».

«أتمنّى ألاّ يتعرّض للمشاكل يا سكوت»، قالت ليليان وهم يغادرون المبنى. «أتمنى لو أنّه لم يتحدّث إلى أولئك الأولاد ذوي الوجوه السمينة، وكأنهم كائنات ذكيّة. أنت تقلّل من قيمتك يا غودفري، يجعلني هذا أشعر بالخجل قليلًا».

«لقد أطلتُ في الثرثرة اليوم، وأنا آسف لأنّك كنتِ هنا بالصدفة. ثَمَّة زميل في هذه المجموعة وهو تود ميلر، ليس شخصًا متلبّدًا ويثير معي أحاديث جدلية دائمًا».

«الأمر سيّان»، تمتمت زوجته، «من الصّعب أن يكون التفكير بصوت عال أمرًا عظيمًا بين هؤلاء الطُّلاب، إنّها نَزْعَة سيّئة نوعًا ما».

«شكراً للنصيحة ليليان، لن أفعل هذا ثانية».

استغرق سكوت عشرين دقيقة فقط ليصل إلى البحيرة. توقّف على طرف الشّاطئ الذي اشتراه سانت بيتر لنفسه قبل سنوات؛ وهو مثلّث صغير من الرمال، يغمره الماء، مع حمّام، وسبعة أشجار صنوبر كثيفة.

انهمك سكوت بأمر السيارة، فخلع البروفيسور ملابسه، وغطس قبله في الماء.

وعندما كان ماكغريغور جاهزًا، كان حميُّه بعيدًا بعض الشيء، يسبح مُجذّفًا بذراعه، رأسه وكتفيه خارج الماء على نحو واضح. يرتدي قناعًا مطاطيًّا في رأسه، من النَّوع الذي كان يحضره معه دائمًا بأعداد كبيرة عندما يعود من فرنسا إلى الدّيار. كان لون هذا القناع قرمزيًّا، وكأنه امتداد للون جسده- فلون ذراعيه وظهره طينيٌّ داكنٌ جرّاء حرق بالغٍ من قضائِهِ الصَّيف في البحيرة. شكّلَ رأسُه وذراعيه القويَّتَيْن الممدودتَيْن شكلاً أحمرَ صلبًا على وجه المياه الزَّرقاء البنفسجيَّة.

كان منظر القناع رائعًا-بدا رأسه مغلّفًا، صغيرًا وحيويًّا جدًّا، مثل رؤوس المحاربين على إفريز البارثينون[29] في خوذهم المشدودة والقديمة. وبحلول الساعة الخامسة كان كل من ماكغريغور وسانت بيتر مرتدين ملابسهما ومستلقيان على الرمل، ملفوفين في معاطفهما، وهما يدخّنان، وفجأة بدأ سكوت بضحكة خافتة.

«هل تعلم يا بروفيسور أن صديقك الإنكليزي، السيد إدغار سبيلينغ، جاء إلى مكتبي في هيرالد، في اليوم التّالي لمقائي به في منزلك، ليحصل مني على بعض المعلومات التي تحفظّت جدًّا في اطلاعه عليها. عندما كان يهمّ بالمغادرة، وقف ونظرَ إلى إحدى بطاقات

الشعارات الموجودة على مكتبي؛ «لا تطرق»، وقال: «هل لي أن أسألك، لماذا لا تضع هذه الملاحظة على بابك من الخارج؟ لم ألحظ أيّ عبارة أخرى تمنعني من الدخول». إنهم لا يتحلون بالحكمة مطلقًا، أليس كذلك؟ لقد مضى بالفعل لرؤية منزل مارسيلوس ـ بدا مهتمًّا. هل ستسمح لهم يا دكتور بتسميه ذلك المكان نسبة إلى توم؟».

«وكيف لي أن أمنع هذا الأمر يا بنيّ العزيز؟».

«حسنًا ، لكن الفكرة لم تنل إعجابك، أليس كذلك؟».

أشعل البروفيسور سيجارة أخرى واستغرق مطوّلًا في الأمر. وعندما تأكّد من إشعالها، استدار على مرفقه ونظر إلى ماكغريغور.

«يجب أن ترى يا سكوت أنّه ليس بإمكاني تقديم اقتراحات إلى لِوِي، فهو مُصرٌّ بشكل لا يقبل الجدل. إنّه على قدرٍ كبير من السخاء ومهتم بالشأن العام أكثر مني، وستكون أولويّاتي مُبهمة بالنسبة إليه. كما لا يمكنني أن أعبّر لكم عن رأيي بأمانة فيما يخص شؤونه».

«أفهمك، أنا آسف لأنه يغيظني. دائماً ما أقول بأنني لن أكرّر الأمر، لكنه يحدث ثانية».

أخرج سكوت غليونه، واستلقى بصمت لبعض الوقت، ناظرًا إلى اللون الذهبي المتوهّج والمُشّع على وجه الماء وعلى أجنحة النوارس أثناء تحليقها. كان مظهره حزينًا، لا بل كئيبًا. كان رفيقًا حسن المظهر، بشعرٍ أشقر ملفوح بأشّعة الشّمس، أسنان رائعة، وعينين جذّابتين، واللَّتين غالبًا ما تكونان عابستين إلاّ عندما يضحك بشكل صريح. فمه صغير، مشقوق بشكل جميل، ومتململ عند الزوايا. كان وجهه يوحي بشيء من المزاج المتقلّب والسّخط.

كان البروفيسور على قدر كبير من التعاطف معه؛ فسكوت كان يُنجز عمله على نحو جيّد جدًّا. كان سعيدًا جدًّا عندما حققت قصيدته اليوميّة وافتتاحيته «الرفيعة» نجاحًا في البداية، لأنَّ ذلك مكّنَه من الزّواج. وتمكن حينها من بيع أكبر قدر من المقالات الحماسية بقدر ما توفر لديه وقت للكتابة، حول أيّ موضوع، وهو ما كان يكره فعله. أراد سكوت أن يكون متميّزًا، في عمرٍ مبكّر للقيام بعمل جيّد للغاية، وقد شعَرَ أن ذلك ما كان يضيّع حياته ومواهبه سدى. لقد أغضبته المجموعة الجديدة من الشعراء. وأصابه اليأس عندما ناقش أصدقاءه بشكل جدّي رواية جديدة. وعلِم سانت بيتر أن الولد المسكين يعيش أوقاتًا عصيبة من التعاسة البائسة. لقد تآكلت حيويته جرّاء غروره البائس مثل ذئب فتى إسبارطي، ولقد تكفّلت الخطوط العميقة في جبهته اليافعة، وارتعاشات زوايا فمه بإظهار مدى معاناته.

وبعد وقت ليس بطويل، عندما كان الطلاب يقدّمون موكبًا تاريخيًّا لإحياء مآثر أحد المستكشفين الفرنسيين الأوائل حول البحيرات الكبرى، طلبوا من سانت بيتر أن يجسّد لوحة لهم، وقد نظّم واحدة والتي أضحكته جدًّا، على الرّغم من أنها لا تَمِتُّ إلى الموضوع بصلة. لقد أوقفَ صهريه في خيمة من الكتّان المطرّز، من أجل أن يقوما بمناظرة بين كل من ريتشارد بلانتاجنيت[30] وصلاح الدين، أمام أسوار القدس. أُجلِسَ مارسيلوس، مرتدياً عباءة خضراء وعمامة، أمام طاولة مع خريطة، يديه ممدودتان في نقاش منطقيّ ومتأنٍ. كان بلانتاجنيت واقفًا، خوذته المزدانة بالرّيش في يده، ورأسه الأشقر المربّع منتصِب بعجرفة، وحاجبيه الأخرقين مقطَّبين بشراسة، شِفاهه معقوفة ووجهه المنعِش ممتلئٌ بالغطرسة. لم تلقَ التمثيليّة أيّة أصداء خاصّة، وقالت السيدة سانت بيتر بجفاف أنّها خائفة أن أحدًا لم ينتبه لمزحته الصغيرة. لكن البروفيسور أحبّ لوحته، ورأى أنها مناسبة تمامًا لكلا الرجلين.

في إشارة إلى المسيح.

معبد سابق في الأكروبوليس الأثيني في اليونان، وهو مكرّس لإلهة أثينا.

قائد الحملة الصليبية الثالثة ضد صلاح الدين.

الفصل السادس

حدثَ أن عاد البروفيسور إلى المنزل أبكر من المعتاد في أحد أيّام شهر أكتوبر المشرقة بعد الظهر. غادر الممشى، وعبَرَ المرج، قاصدًا الدخول من الواجهة الزجاجية الفرنسية المفتوحة، لكنه توقّف لبرهة خارجًا معجبًا بالمنظر الذي شاهده في الداخل. كانت غرفة الاستقبال ممتلئة بأزهار الخريف؛ من أضاليا، وأزهار النجمة البريّة، وعصا الذهب. توهجت أشّعة الشمس الذهبيّة في البِرَك الساطعة على السجّادة الزرقاء السميكة، مُحدثةً هالاتٍ ضبابيّة حول الكراسي الزرقاء المحشوّة. كان هنالك في الغرفة، كما تراءى له من خلال البابِ الزجاجي، وقعٌ غنيّ وكثيف للخريف، الأمر الذي يجعل أكتوبر بالنّسبة إليه مُنعِشًا وعذبًا جدًّا أكثر من القيقب الملوّن والدروب المحاطة بالزهرة النجمية التي عبر منها للوصول إلى المنزل. لقد استوقفه أنّ الفصول تكتسب حلّة جديدة بدخولها إلى المنزل أحيانًا، تمامًا كما تنتعش بنقلهم إلى اللوحات أو الشّعر. كانت اليد الحسّاسة والجريئة التي انتقتْ ورتّبت ـ هي من صنعت الفرق. فليس ثمة انتقاء في الطبيعة.

جلس كل من ليليان ولِوي، في أحد أركان المنزل، بجانب غلاّية الشاي النحاسيّة التي يتصاعد منها البخار، يفصل بينهما طاولة صغيرة ذات طلاء ورنيشي، بدَتْ وكأنّها تنحني فوق صندوق من الجواهر. أمسكت ليليان بمحبة عقدًا من الذهب الأخضر بدون أحجار، بين أناملها، من الواضح أنّه عقد عتيق.

«من المؤكّد، سيكون جميلًا مع أحجار الزمرّد يا لِوي، لكنهم غير مناسبين بعض الشيء، فهذه الجواهر الثمينة يليق بها نمط حياة مختلف لا يمكن أن تحظى به أنت وروزاموند هنا. وفوق كل هذا، أنت لست فاحش الثراء. فمتى يمكن أن ترتديهم؟».

«في المنزل يا عزيزتي، معي، على مائدة عشائِنا الخاص في أوتلاند! لقد أعجبني فكرة أنهم لا يناسبون مستوى حياتنا. لم أقدّم لها مطلقًا أيّة جواهر. انتظرتُ كل هذا الوقت لأقدّم لها هذه الأشياء. بالنسبة لي، اسمها زمرد».

ابتسمَت السيدة سانت بيتر، وبسهولة اقتنعتْ، «لن تتمكن أبدًا من إخفائهم، سوف تريهم لها».

«أوه، لا، لن أفعل. سيبقون لدى محل الجواهريّ في شيكاغو حتى نذهب جميعًا إلى حفلة عيد الميلاد. وهذا سر آخر علينا كتمانه. لدينا الكثير من الأسرار». انحنى على يدها وقبّلها بحرارة.

ترنّح سانت بيتر على حاجز الباب الزجاجي، «هذا التلميح يدفع الزوج للدخول، أليس كذلك؟ ما قصّة شيكاغو يا لِوي؟».

جلسَ وأحضر له مارسيلوس بعض الشاي، متريّثًا بجانب كرسيّه. «يجب أن يبقى الأمر سرًّا عن روزي، لكن كما ترى إنّ موعد إلقاء محاضرتك في جامعة شيكاغو يتزامن مع عيد ميلادها، لذلك خططتُ بأنه يجب علينا الذهاب جميعًا. وعلينا أن نحضر محاضراتك، كي ينطلي الأمر عليها».

ارتفع حاجبا البروفيسور. «أفهم إذن أنّ إجازة العمل ستكون رحلة تسوّق بالنّسبة إلى السيدات».

«لكن ليس بالنسبة لي. تذكّر أني لم أكن من طلاّبك، كما هو الحال مع سكوت وأوتلاند. سأبلي بلاء حسنًا إذا سنَحت لي الفرصة». قال لِوي بنبرة حزينة بعض الشيء. «لذلك عليك منحي هذه الفرصة».

«تعال إذا كنت ترغب، فالمحاضرات بالنسبة لي مجرّد متعة مقيتة يا لِوي».

«لكنها ليست كذلك بالنسبة لي. أنا رهن إشارتك، وجاهز للذهاب معك الشتاء القادم إلى بوسطن عندما ستلقي محاضراتك في مؤسسة لويل».

«هل حقًّا ترغب في ذلك؟ ما يزال هناك متسعًا من الوقت للعام القادم.

والآن عليّ الاغتسال، فلقد كنت أعمل في حديقة منزلي الآخر، وهيئتي بالكاد تكون لائقة لتناول الشاي مع سيدة جميلة وشاب أنيق. ماذا عليّ أن أفعل بعدئذ بشأن تلك الحديقة يا ليليان؟ هل أهدمها؟ أو أترك الأمر لرأفة المستأجرين القادمين؟».

حالما صعد الطابق العلوي، استدار على قوس الدرج والتفت إليهم، كانوا منحنين مرّة أخرى فوق صندوقهم الصغير. كانت السيدة سانت بيتر ترتدي ثوبها الحريريّ الأبيض المصنوع من الكريب، والأكثر جمالًا من بين أثوابها الصيفيّة، يلفّ شعرها اللامع أنشوطة من المخمل الأرجواني. فكّر ملياً أنها لم تكن لتهتم بمظهرها على أكمل وجه لولا قدوم لِوي. أو

هل، ما كان ليلاحظ ذلك لولا وجود لِوي هناك؟ فالرّجل عمومًا يعتاد على مظهر زوجته مع مرور الوقت، وقلّما يتوقّف ليبدي إعجابه بثوب أو موقف معيّن، ما لم يلفت انتباهه إعجاب رجل آخر بها.

كان دلال ليليان لصهريها أمرًا مُسليًّا بالنسبة إليه. لم يكن يتوقَّعه، وقد وجده بالأحرى الشيء الأكثر إثارة ومتعة في زواج ابنتيهما. لقد بدأ مع سكوت- فالبنت الصغرى تزوجت قبل الكبرى. وقد ظنّ سانت بيتر أنّ سكوت ماكغريغور من النوع الذي تجده ليليان مملًّا دائمًا. لكن الأمر لم يكن كذلك؛ ففي غضون بضعة أسابيع بعد زواج كاثلين، بدأت روابط قويّة وسريّة تتوضّح بينهما. وحتى الآن، عندما يحظى لوي بالاهتمام الأكبر، ويصبح سكوت حسّاسًا وغيورًا، تكون ليليان شديدة اللّباقة والصبر معهما.

مع لِوي، كانت ليليان تبدو وكأنّها تنطلق في مهمة جديدة، وبدأ غودفري يعتقد أنّه لا يفهم زوجته جيّدًا. كان يقول إنّها تشعر حيال لِوي كما يشعر هو تمامًا؛ فقد اعتنى به باعتبارِهِ غريبًا في المدينة، ولأنَّهُ استثنائيٌّ جدًّا ويشعر بالغرابة، لكن دون رغبة منه، على الأقل، في تبنّي أيّ شخص أجنبي ليكون ضمن دائرة العائلة. لطالما كانت لدرجة غير معقولة حيال التَّفاصيل الصغيرة المتعلّقة بالسلوك. ولم تتمكن أبدًا من مسامحة المسكين توم أوتلاند لأنه أحيانًا كان يضع سيجارة في فمه أو لأنه لم يتعلم مطلقًا أن يأكل السلطة بهدوء. وكان يحدث أنّ توم ينسى نفسه أثناء الحديث على مائدة العشاء، ويعود إلى أساليب جلسات الطعام في السكة الحديدية، دافعًا بطبقه بعيدًا عنه عندما ينتهي من صنف طعام محدَّد، فيمتقع وجه ليليان ازدراءً بشكل واضح. كانت هذه التّجاوزات تضعها على المحكِّ مع توم. لكن مع لِوي مثلًا، كان مسموحًا أن يتناول حساءَه بسرعة وأن يكون الصوت مسموعًا، أو يقبّلها على وجنتيها بصوت مدوٍّ في حفل استقبال في الكلية، وكان ذلك يروقها.

نعم، لقد استأنفت مع صهريها لعبة أن تكون امرأة طوال الوقت. تأنّقت من أجلهما، ورسمت خططًا، ووضعت مشاريعَ ضمن اهتماماتهما. بدأت في استضافتهما أكثر من السنوات الماضية- فالمنزل الجديد خلقَ أجواء مناسبة للجلسات العائلية- وبدأت تستثمر تأثيرها وسحرها في مجتمع هاملتون الصغير التوّاق. كانت مهتمة بشدّة بنجاح وسعادة هاذين الشابين، وقد واكبت حياتهما المهنيّة كما فعلت مع زوجها من قبل. كان أمرًا رائعًا، قال

سانت بيتر لنفسه. وبهذا لن تضطر إلى مواجهة فترة من الملل بين كونها امرأة شابة وكونها جدّة شابة. كانت أقل ذكاء وأكثر حساسية مما كان يَظُنُّ.

عندما نزل غودفري السّلالم متهيأً للعشاء، كان لِوي قد رحل. توجّه إلى الكرسي حيث كانت زوجته تقرأ، وأمسك يدها.

«عزيزتي» قال بلطف بالغ، «أتمنى أن تتمكني من إبعاد اسم لِوي عن معهد الفنون والآداب. إنه ليس محطَّ ثقة بعد. لم يمضِ على وجوده وقت هنا وهم مجموعة صغيرة وصعبة الإرضاء، ويتحتّم عليه الانتظار حتى يتعرفوا عليه بشكل أفضل».

«هل تقصد أنَّ أحدًا سوف يصوّت ضِدَّه؟ هل تعتقد حقًّا أنَّ هذا سيحدث؟ لكن النّادي الرّيفيّ».

«نعم يا ليليان، إنّ النّاديّ الرّيفيّ مسألة كبيرة ويحتاج إلى المال. معهد الفنون والآداب مجموعة صغيرة من الرفاق، وكما قلت، يصعب إرضاؤُهم».

«سكوت واحد منهم» قالت السيدة سانت بيتر بتمرّد، «هل أخبرك؟».

«لا، لم يخبرني، ولن أقول له من أخبرني. لكن إذا تعاملتِ مع الأمر بدبلوماسيّة، فستتمكنين من مراعاة مشاعر لوي».

أغلقت السيدة سانت بيتر كتابها دون أن تنظر إليه، لمَعَ في عينيها اهتمام جديد، جعل نظرتهما شاردة، «عليّ أن أرى ما يمكنني فعله مع سكوت» تمتمت قائلة.

استدار سانت بيتر جانبًا ليخفي ابتسامته، فقد أخبره طالب قديم ضاحكًا، كان في صفه في الفترة التي كان فيها أوتلاند طالبًا أيضا، إنّه واثق أن سكوت سيصوّت ضد مارسيلوس في حال بلغ اسمه مرحلة التصويت. «أنت تعلم أنَّ سكوت طفل في بعض التصرفات»، قال الصَّديق القديم. «إنَّه منغاظٌ بعض الشَّيء من مارسيلوس، وقال إنَّ الاقتراع السرّي هو الوسيلة الوحيدة لعدم جرح مشاعر السيدة سانت بيتر».

وبينما كان البروفيسور يتناول حساءه، تمعَّن في وجه زوجته على ضوء الشمعدان، ولاحظ إنّه تغيّر كثيرًا عمّا كان عليه عندما وجدها تضحك مع لِوي، خاصّة بعد أن سرّب لها تلميحًا عن معهد الفنون والآداب. لقد أصبح، حسب ظنّه، قاسيًا جدًّا بالنسبة لنعومة مخمل الأوركيد في شعرها. واستحالت شفتها العليا كما تبدو عادة عندما تواجه معضلة، ممطوطة ومتيبسة.

قال: « حسنًا، سيكون ممتعًا رؤية ما يمكنها فعله مع سكوت. سيكون الأمر أشبه بقضية اختبار».

الفصل السابع

في أوائل شهر نوفمبر، كان منظر العاصفة الثلجيّة خلاّبًا، في ذلك اليوم، اتّصلت كاثلين بأبيها في الجامعة، وطلبت منه أن يُعرّج إليها في طريق عودته إلى المنزل بعد الظهر ليساعدها في حسم أمر بعض الفراء. وحالما وصل إلى بنغَل[31] ماكغريغور الجديد والأنيق عند الساعة الرابعة، وجد سيارة لِوي البيرس آرو[32] مركونة أمامه، ونيد، السّائق والبستاني، يجلس في مقعد السائق. وعلى الفور، خرجت روزاموند بمفردها من البنغَل، ونزلت إلى الرصيف، دون أن ترى والدها. لقد لاحَظَ تعبير تعجرف غريبًا على وجهها؛ وكانا حاجبيها ملتصقين ببعضهما فوق أنفها، وتقوّس شفاهها جميل لكنه مخيفٌ. لاحظَ شيئًا أيضا لم يره من قبل- معطف من الفراء الناعم، البنفسجي الرمادي، الذي أخفى تمامًا الكتفين العريضتين، والمنحنيتين قليلاً، والذي يأسف حقًّا كونهما كتفيّ ابنته الجميلة.

ناداها باهتمام بالغ. «تمهلّي قليلاً يا روزي، لم أرَ هذا من قبل. إنّه مُلفت للغاية». وداعبَ ردن ابنته بسرور واضح. «أتعلمين أنّ هذه الملابس المشغولة بألوان البنفسج والأرجوان رائعة عليكِ. إنها كفيلة بجعل بشرتك أجمل من ذي قبل. يبدو أنّك مؤّخرًا بدأتِ بارتدائهم، أعتقد أنّه ذوق لِوي، أليس كذلك؟».

«بالطبع، لقد اختار لي جميع أغراضي». قالت روزاموند بفخر.

«حسنًا، لقد أحسن صنعًا. إنه يعلم ما يناسبك». استمر سانت بيتر في النّظر إليها من أعلى إلى أسفل برضا. «وكاثلين لديها بعض الفراء، هل كنتِ تسدين لها النصح؟».

«لم تذكر لي شيئًا عن هذا» قالت روزاموند بنبرة حذِرة.

«ألم تخبرك؟ وماذا تسمّين هذا النوع من الفراء؟ من أيّ حيوان هو؟»

سأل ببراءة، وداعب الفراء مجدّدًا بيده العارية.

«إنه حيوان لونه رمادي داكن».

«أوه، الخُلد».

تراجع قليلاً إلى الخلف.

«إنه الأفضل على الإطلاق لبشرتك. هل هو دافئ؟».

«دافئ جدًّا، وخفيف جدًّا».

«فهمت، فهمت.»

أخذ ذراع روزاموند ورافقها إلى سيارتها. «أبلغي لِوي ثنائي على اختياره». أقلع المحرك- ولأنه جبان، تمنّى لو بإمكانه الهرب بسرعة وبصمت. لكن كان لديه شعور بأنّ كاثلين تشاهده من خلف الستائر الشفّافة، صعد باتجاه الباب ودعس دعسة طويلة وشديدة على مكشطة القدم، قبل أن ينقر على الزجاج. دعته كاثلين إلى الدخول. كانت شاحبة للغاية؛ حتى شفتيها اللتين كانتا زهريّتين، مثل جوف صدَفَة بيضاء، كانتا بلا لون. لم يأتِ أيّ منهما على ذكر الضّيفة التي غادرت للتوّ.

«هل كنتِ خارجًا في الحديقة، كاثلين؟ العاصفة صغيرة وجميلة. ربّما عليك المضيّ معي إلى المنزل القديم توّا». تحدّث بلطف وهو يخلع معطفه وجزمته المطاطيّة. «والآن ماذا بشأن الفراء».

مضتْ كاثلين ببطء إلى داخل غرفتها. استغرقت وقتًا طويلًا في الداخل، ربّما عشر دقائق فعليًّا. وعندما عادتْ، كانت حواف عينيها حمراء. أحضرتْ أربعة صناديق كرتون كبيرة، مربوطين بخيط مجدول، وقف سانت بيتر، تناول الطرد، وبدأ بفكّ الخيط، فتح الأوّل وسحب دثارًا بنيًّا. «ما هذا، فرو المِنك[33]؟». «لا، إنه فرو سمّور[34] خليج هدسون».

«جميل جدًّا». وضع القبّة حول عنقها، وتراجع إلى الوراء لينظر إليها. لكن كاثلين انهارت بعد أن قاومت بشدّة. نزعت الفراء، ودفنت وجهها في منديل آخر».

«أنا آسفة يا أبي، لكن ما الفائدة منه. أنا حقًّا لا أريد شيئًا من الفراء. إنها تفسد كل شيء عليّ».

«أوه، عزيزتي، عزيزتي، إنّك تؤلمينني جدًّا» وضع سانت بيتر يده بحنان على شعرها الناعم ذي اللون العسليّ. «واجهي هذا بحزم يا كاثلين؛ لا يتوجّب عليك، ولا يمكنك، أن تكوني حسودة، إنه تدمير للذات».

«ليس باليد حيلة يا أبي. أنا حسودة! لا أعتقد أني سأكون كذلك لو أنها تركتني بشأني، لكنها تأتي إليَّ هنا بكامل أناقتها، وتسلب البهجة من جميع أشيائِنا القليلة المسكينة. الجميع

يعلم أنّها ثريّة. لماذا تُصرُّ على التفاخر أمامنا وتذكيرنا بالأمر؟».

«لكن عزيزتي كاثلين، هل تقولين هذا لأنّها لم تذهب إلى المنزل لتبديل معطفها قبل القدوم إليك؟»

«أوه يا أبي، لا أقصد هذا. بل كلُّ شيء. أنت تعلم أننا لم نكن مطلقًا نغار من بعضنا عندما كنّا في المنزل. ولطالما كنتُ فخورة بمظهرها وذوقها الجميل. لا يتعلّق الأمر بملابسها، بل بشيء في داخلها. عندما تقترب مني، أكره اقترابها، مثل كراهيتي للأفعى».

مسَحَ سانت بيتر جبينه المتعرّق. كان يتألّم لأجلها كما لو أنّها تعاني من كرب جسديّ. «لا يمكننا يا عزيزتي، لا يمكننا، في هذا العالم، أن نسمح لأنفسنا التفكير في أشياء على هذا النحو- وأن نجري مقارنات من هذا القبيل. إنّنا جميعًا معرّضون لاتهامات قبيحة. وإن تعدّت عليك روزاموند، فهو بسبب عدم لباقتك مع لِوي».

«حتى وإن كان الأمر كذلك، هل هذا يعني أن تكون حقودة جدًّا؟ هل تعتقد أن لا أحد آخر يناديه باليهودي؟ هل تظن أن الأمر سرٌّ؟ لا أمانع بأن أدعوه بالوثني».

«أنتِ تعلمين أنّه يصب في نفس الخانة. كما أنك أظهرتِ بعض التململ من أشيائِهم الجديدة، أليس كذلك؟».

«أعتقد أنني أظهرتُ فقط أن أسلوب مبالغتِها في ملابسها لا يعجبني. لم أكن لأصدّق أبدًا أنْ يكون ذوق روزي سيّئًا في انتقائها للملابس. وبما أنّها تعيش بين صديقاتها القدامى هنا، فعليها أن ترتدي مثل البقية».

«لكن، هل حقًّا تفعل هذا؟ يبدو لي أنّ أشياءَها تشبه أشياءَك».

«أوه يا والدي، أنت طيّب جدًّا. كما أن والدتي تعمل جاهدة على إبقائك بعيداً عما يجري. في ذهابنا إلى الجمعية لخياطة ملابس لصندوق البعثة، جاءت روزي بفستان فرنسي يدويّ الصنع تضاهي تكلفته جميع ملابسنا مجتمعة».

«لكن بما أن ملابسها ليست الأجمل، فماذا يهمّ إن كانت تكلفتها باهظة؟» قالها وهو يُراقب كاثلين بخوف. وكان من الواضح أنّ بشرتها الشاحبة اكتست بمسحة ضاربة للون الأخضر. لم يحدث أن لاحظ هذا التحوّل في وجهها من قبل، ولم يكن يدرك مطلقاً ما هو التحوّل القبيح والمؤلم الذي تفضي إليه كلمة «الغيرة».

«أوه، أمر مضحك، إنهم الأجمل، مع أنَّك قد لا تراهم كذلك. فالأمر لا يتعلّق بالملابس فقط». نظرت إليه با نتباه شد يد، وعينيها متّسعتان وصافيتان في محجرهما الحمراوين. «يتعلق الأمر بكلِّ شيء، عندما كنّا في المنزل، كانت روزاموند مثالية نوعًا ما بالنسبة لي. كنت أثق برأيها حيال أي شيء وأمتثل له. لكنها تغيّرت كليًّا، لقد أصبحت نسخة من لِوِي. في الواقع، إنّها أسوأ منه. لقد أفسدها هو وجميع أمواله. أوه، يا أبي، لماذا لم تتحرّك أنت والبروفيسور كرين وتوقفان كل هذا قبل أن يبدأ؟ إنّك مُلام، فقد كنت تعلم أن توم ترك شيئًا يساوي الكثير، أنتما الاثنان كنتما تعلمان. لماذا لم تفعل شيئًا؟ لقد تركته هناك في مخبر كرين- حتّى جاء- مارسيلوس هذا واستفاد منه، لدرجة خُيّل إليه أنّها فكرته الخاصة».

«ربّما كانت الأمور ستؤول إلى ما آلت إليه في كل الأحوال» قال والدها مُحتجًّا: «أياً يكن فإنّ أرباح العملية ستكون لروزاموند. لم أكن في مزاج يسمح لي بالجدال مع الشركات المصنّعة، وليس لدي خبرة في هذه الأمور. وكرين بحاجة لادّخار كل ذرّة من قوّته ليقوم بتجاربه. لم يكن يكترث سوى أن يوسّع مجاله».

«كان من الأفضل أن يأخذ إجازة لعدّة أيام ويُنقذ صديقه. لقد وثِق توم به في كل شيء. وهذا أمر بالغ الحماقة؛ أنّ ذلك الرّجل المسكين الذي يعبث به الجراحين طوال الوقت، ويقتاتون على القليل ممّا تركه لنفسه، مُمتعضين من إمكانياته المحدودة- هل يظنون أنهم قد أحسنوا صنيعًا معه!».

نهض سانت بيتر ممسكًا يديّ ابنته ووقف مبتسمًا لها. «تعالي الآن! إنك أذكى من هذا يا كاثلين. عليك أن تدركي أنّ أيّ شيء يمكن أن يكتشفه المسكين كرين عن الفراغ هو أكثر فائدة بالنسبة له من جميع الأموال التي سيحصل عليها مارسيلوس. لكن هل تلمّحين أنّه إذا طوّرنا أنا وكرين اكتشاف توم، فإنه قد نستفيد من روزي وأموالها ضمن العائلة؟».

رفعت كاثلين رأسها.» أوه، أنا لا أريد مالها».

«بالضَّبط، ولا أنا. ولا يتوجَّب علينا أن نتصرّف كما لو أنَّنا نريده. إذا سمحتِ لنفسك بأن تغاري من روزي، ستكونين غبية جدًّا، وتعيسة جدًّا».

مضى البروفيسور عبر الحديقة الثلجية بخطوات متعبة. كان مكسورًا، فقد تأثّر بعض الشيء ممّا يحدث مع كاثلين. ربما يعود ذلك لاعتنائه بها أحد المرّات لصيف كامل عندما كانت صغيرة. حدث ذلك عندما كانت السيدة سانت بيتر تستعد لقضاء العطلة في كولورادو مع

الأطفال، وأصيبت الطفلة الصغرى بسعال ديكيّ، وتحتّم عليها البقاء برفقة والدها في المنزل. لقد أتاحت له هذه الفرصة ملاحظة جميع عاداتها. كانت في السادسة فقط من عمرها، لكنه وجدها كائنًا صغيرًا، يتحلّى بالاستقامة، ويمكن الاعتماد عليه. لقد اتفقا سوية على خطة روتينية مُرضية لكليهما؛ بأن تلعب في الحديقة طيلة فترة الصباح، ولا تزعجه في مكتبه لأيّ سبب كان. وأن يصطحبها بدوره بعد وجبة الغداء إلى البحيرة أو الغابات، أو يقرأ لها في المنزل. كانت فخورة بأنها استطاعت الالتزام بالاتفاق مع والدها. وفي أحد المرات، خرج من مكتبه في ظهيرة أحد الأيام، وجدها جالسة على درج الطابق الثالث، أمام بابه تمامًا، في إحدى يديها زجاجة أرنيكا[35]، وأصابع اليد الأخرى متورّمة مثل نقانق صغيرة وردية. كانت قد لسعتها نحلة في الحديقة، وانتظرت مُضيّ نصف فترة الصباح كي يواسيها. كانت مُستقلة للغاية، ويمكن أن تتحمل كثيرًا قبل أن تطلب المساعدة، مشقّة سحب بنطلونها الضيّق أو الحذاء الذي ترتديه فوق الحذاء العادي للوقاية من الماء. عندما كانت الفتاتان صغيرتين، كانت كاثلين تعشق أختها الكبرى، وتحب أن تلبي احتياجاتها، وتتحمّس دائمًا لملابس روزي الجديدة ولمعطفها الشتوي أكثر من ملابسها الخاصة. وقد استمر هذا التعلّق حتى بعد أن كبرتا، ولم يلاحظ السانت بيتر أيّ تغيير في هذا الأمر حتى أعلنت روزاموند خطبتها من لِوي مارسيلوس. ثُمَّ، وفجأة، تغيّرت كاثلين مع أختها، اعتقدَ والدها أنها لم تتمكن من مسامحة روزي لنسيانها توم بسرعة جدًّا.

كان قد حلّ الظلام عندما عاد البروفيسور إلى المنزل القديم، وجلس إلى طاولة الكتابة. قال لنفسه عليه أن يجلس ساعة في تدوين ملاحظاته، بغض النظر عن حديث العائلتين والثروات. وكان الأمر. لكن عندما رفع نظره عن كتابته مع رنين جرس الكنيسة، ظهر في الحال وجهان في الظلال خارج الدائرة الصفراء لمصباحه: كان الوجه الوسيم لابنته الكبرى، يلفّه فراء بنفسجي منقّط، بشفة عليا قاسية وعينين نصف مغمضتين يملؤهما الازدراء، كما كانت عندما وصلت سيارتها في عصر ذلك اليوم قبل أن تراه؛ وكاثلين بذقنها الصغير المربّع والشرس للغاية، وخدّيها الأبيضين أصبحا بالفعل أخضرا اللون تحت عينيها المتورمتين. لم يُصدّق ما يراه، انتفضَ بسرعة وتوجّه إلى النافذة الوحيدة في الغرفة، فتحها بشكل أوسع، ووقف ناظرًا إلى كتلة أشجار الصنوبر العاتمة والتي تشير إلى مكان مبنى الفيزياء. اعتصر قلبه ألمًا حادًّا، جرّاء الضوء الذي اعتاد أن يراه مُضاءً في مخبر أوتلاند حتى هذا الوقت في الليل.

بيت من طابق واحد، يبنى عادة في الريف.
طراز سيارات.
حيوان لاحِم، تتميّز أنواعه الموجودة في أمريكا الشمالية بفروها الثمين، الذي يستخدم في صناعة ملابس الفراء والرموش
حيوان ثديّ، من نوع الدلق، يعيش في روسيا وسيبيريا وشمال منغوليا.
تعرف أيضا باسم زهرة العطاس وتستخدم في علاج الكدمات.

الفصل الثامن

ذهب سانت بيتر إلى شيكاغو في الأسبوع التالي لإلقاء محاضراته. حجزَ غرفتين، له ولليليان في فندق هادئ قرب الجامعة. ومضت عائلة مارسيلوس في نفس القطار، ترّجلوا جميعًا مع بعضهم في المحطّة، في عاصفة ثلجيّة شديدة. كان على عائلة سانت بيتر احتساء الشاي مع لِوي في البلاكستون قبل ذهابهم إلى جناحهم الخاص.

قُدّم الشاي في جناح لِوي المُطلّ على البحيرة، مع منظر جميل للثلج المتهاطل من خلال النوافذ. كان البروفيسور بمزاج لطيف؛ سعيدًا لأنه في مدينة كبيرة مجدَّدًا، وفي فندق فخم، ومسرور على وجه الخصوص كونه قادر على الجلوس في مكان مريح ومشاهدة العاصفة تغمر الماء.

«كم هو مريح أن تكون هنا يا لِوي، إنه حقًّا مكان رائع» قال مُلتفتًا إلى الخلف، وأشاح بنظره عن النافذة، عندما نادته روزاموند.

جاء لِوي ووضع كلتا يديه على كتفيّ سانت بيتر، وقال مسرورًا بصوت عالٍ: «وهل أعجبتك هذه الغُرف يا سيدي؟ حسنًا، أنا مسرور، هذه الغُرف لكم، أنا وروزي بجانبكم، يفصلنا الممر فقط. لا تقُل أيّ كلمة. لقد رُتّب كل شيء. أنتم ضيوفنا في هذه الإجازة. لن ندع باحثنا العظيم يمكث في مكان قاتم من الجهة الجنوبية، نريد أن يكون بقربنا لنتمكن من الاعتناء به». كان لِوي ودودًا جدًّا في تنفيذ خطّته لدرجة لم تتح للبروفيسور سوى أن يُعبّر عن رضاه، «وماذا عن أمتعتنا؟».

«إنّها في الطريق» لقد ألغيتُ حجوزاتك، ونظّمت كل شيء. تناول الشاي الآن، لكن لا تُكثر منه، فأنت تتناول العشاء باكرًا؛ لديك موعد هذا المساء. ستذهب أنت والعزيزة إلى الأوبرا ـ ولن نرافقكما! فلدينا عشاء آخر من السمك المقلي، ستذهبان بمفردكما».

«جميل جدًّا يا لِوي، وماذا سيقدّمون الليلة؟».

«أوبرا مينون[36]، ستعيد لك ذكرى أيام الدراسة في باريس».

«نعم، لقد كان لديّ اشتراك في أوبرا كوميك[37]، وكانت مينون تُعزف على الدوام. إنها من مختاراتي المفضّلة».

«توقّعتُ ذلك» ، قبّل لِوي السيدتين، مُعبّرًا عن شعوره بالرّضا. لقد نسيَ البروفيسور هواجسه بشأن قبول هذه الاستضافة الفاخرة. بالفعل كانت سعادته كبيرة بحصوله على نافذة مطلة على البحيرة، دون الاضطرار للذهاب إلى فندق آخر. وبعد مضي مارسيلوس إلى الجناح الخاص بهم، اعترف البروفيسور لزوجته أثناء تفريغه أمتعة حقيبته، أنّه كان من الأنسب أكثر أن يكونا مع لوي وروزاموند في نفس الطابق.

«أفضل بكثير من استقلال سيارة أجرة في شيكاغو لرؤيتهم طوال الوقت، أليس كذلك؟».

عند الثامنة مساءً، كان هو وزوجته يشغلان أماكنهما في المدرّج. فما كان من مقدمة الأوبرا هذه سوى أن رسمت ابتسامة فوق شفتيه، وغمَرَت قلبه بشعور لطيف. بدَتْ الموسيقى نقيّة على نحو استثنائيّ، وما تزال حقيقيّة. قد تكون باتت موضة قديمة، قال لنفسه، لكنّه، لم يغدو عجوزًا أبداً، طالما ثمة شيء من روح الشباب باقية فيه. لقد كانت إحدى تجليات مرحلة الشباب، فلا يوجد أكثر من حلاوتها وجنونها، ونبرتها الطويلة، وتشديدها الثقيل، ورّقتها أيضا، إنّها تنتمي إلى ذلك الزمن. بعد دخول البطل، مالت ليليان نحوه، وهمست: «هل أنا ساذجة إلى هذا الحدّ؟ لقد بدا لي تمامًا مثل غوته في شبابه». «وكذلك بدا لي، إنه بالتأكيد بطول غوته، لم أعرف مطلقًا من قبل أنّ مغنيّ التينور[38] طويلون جدًّا، وكذلك مينون[39]، تبدو شابة أيضا».

في جميع الأحوال كانت نحيلة، وهزيلة جدًّا، بجانب فيلهلم اللطيف. فيشعر المرء عندما تبدأ أغنيتها الخالدة، أنها مناسبة لهذا الجزء تحديدًا، بصوتها الغنائيّ السوبرانو النقيّ، المناسب جدًّا لهذا النوع من الغناء، ثمة شيء في صوتها مُنعش وحسّاس، مثل أزهار غابة غامضة. فهذه العبارة « Connais-tu—le pays»، تثير المرء مثل أريج أوّل الربيع، وتُعيد زمن العواطف الحلوة والمجرّدة، عندما يصدح بها صوتها.

أسدلت الستائر على الفصل الأوّل، والتفتَ سانت بيتر إلى زوجته، « فرقة جيّدة، ألا تعتقدين ذلك؟ والقيثارات جيّدة جدًّا. ما عدا آلات النفخ، ويجدر بي القول أنّه كان أداءً جيّدًا مثل أيّ أداء سمعته في أوبرا كوميك أخرى».

«نعم، إنها كفيلة بجعل المرء يستحضر باريس في ذاكرته، وتذكّره بكثير من الأشياء التي قد نسيها» تمتمت زوجته. مضى وقت طويل لم يروجهها مرتاحًا ، وغارقًا في التأمّل ، ومسترخيًا على هذا النحو.

وأثناء الفصل الثاني، استمرَّ في استراق النّظر إليها. مندهشًا؛ كيف لمزاج الشباب أن يعود ويُليّن الوجه. رأى لمعة النجوم النديّة في عينيها أكثر من مرّة، لو كانت تعلم فقط، كم هي جميلة عندما تتحرّر من التزاماتها.

«عزيزتي» تنهّد وقال عندما أشعلت الأضواء، وبدا كليهما كبيرين في العمر. «لقد كان من الخطأ أن نكوّن عائلة، وننشغل بكتب التاريخ حتى دلفنا إلى منتصف العمر. كان علينا أن نستمتع في تفاصيل الحياة على نحو رائع عندما كنّا ما نزال شابيْن يافِعَين».

«لطالما فكّرت بالأمر»! قالت بابتسامة باهتة وكئيبة. «أنتِ؟ لكن لطالما كنتِ مشغولة بالمستقبل، وتتكيّفين بسهولة»، تمتم مندهشًا.

«على المرء أن يمضي في الحياة، يا غودفري. لكن ليس الأطفال ما حال بيننا». كان ثمّة شيء ينمّ عن شعورها بالوحدة والتسامح في صوتها، شيء يكشف عن جرح قديم، جرح التأم، وأصبح قاسيًا، ويائسًا.

«أنتِ، أنتِ أيضا؟» أخذ نفسًا باستغراب.

أمسكَ أحد قفَّازيها وسحبه بأصابعه. لم تَنْبَس بِبِنْتِ شَفَة، لكنه رأى شفَتها ترتجف، ثم استدارت وبدأتْ تنظر إلى المسرح من خلال النظّارات. وبالمثل بدأ هو في تفحّص الجمهور. تمنّى لو يعرف كيف تراه الآن. شعرَ أنّه كان مُخطئًا بشأن ليليان. إنّ قلب الآخر غابة مُعتمة دائمًا، أيًا تكن درجة قربك منه. جمعتِ الموسيقى المتناغمة في أغنية التينور الأخيرة وآلفت بين أعينهما في ابتسامة بعيدة كل البعد عن الحزن.

في تلك الليلة، بعد أن انسلّ في فراشه، نصفَ مستيقظٍ وسط كلِّ ما يحيط به من أغراض لا يألَفها، كان ما يزال يقلّب فكرته في رأسه عن مشهد استغراقهما في تفاصيل الحياة، وبحث عن المناسبة الخاصة التي يمكن أن يختارها لنهاية كهذه. وقبل أن يغرق في النوم وجد اليوم المناسب، لكنَّها لم تكن معه ذلك اليوم. بالفعل لم يكن ثَمَّة أحد سواه، وقبطان صغير من هاوتيس برينيه[40]، في جو بحريّ جاف، وستّة بحارة رشيقين، وصف من القمم الثلجية اللامعة، والشاهقة والحادّة على نحو مخيف، بمحاذاة الساحل الجنوبي لإسبانيا.

رتّب لِوي عشاء عيد الميلاد في قاعة العشاء العامّة للمفندق، وحضرَ ثلاثة من زملاء البروفيسور العشاء معهم في تلك المناسبة. لقد ذهب لِوي إلى الجامعة للاستماع إلى محاضرة

سانت بيتر، وقابل بعض أعضاء الهيئة التدريسيّة، وعلى الفور، دعاهم إلى العشاء. وقبلوا الدعوة. ومنذ متى عُرف عن أي بروفيسور رفضه دعوة عشاء جيّدة؟ حضرت روزاموند مرتدية مجوهرات الزمرّد. وكما أشار سانت بيتر لزوجته لاحقًا أن جميع الضيوف، كانوا مشاركين عملياً في الحدث السّعيد. وبلا شك، كانت ليليان على حق، عندما صرّحت له، بأنّ جميع زملائه الأساتذة، على حد سواء، غادروا البلاكستون ذلك المساء وهم يكنون لغودفري سانت بيتر احترامًا أكثر من ذي قبل، ولو كان لديهم بنات مقبلات على الزواج، لكانوا يحسدونه على حظه أيضا.

«هذا هو» ردّ زوجها، «اعتراضي الأساسي على المُبالغات والبهرجة التي تحدث في الأماكن العامة؛ فهي تُسلّط الضوء على المرء حتى ليبدو بمظهر زائف. فأنا أدركتُ الخطأ الذي ارتكبته حين قبِلتُ استئجار شقّة لا يمكنني دفع أجارها، لذلك استسلمت لمجريات الأمور».

عادوا إلى هاملتون في طقسٍ قارسٍ، كانت رياح البحيرة تجتاح البلدة، وسكوت يُعاني من التهاب في الحنجرة، كان منشغلًا بكتابة قصائد نثريّة عن متعة تشغيل الموقد عندما تكون درجة الحرارة أدنى من عشرين.

«غودفري» قالت السيدة سانت بيتر عندما انطلق في الصباح إلى صفّه بعد عودتهم، «من المؤكد لن تذهب إلى المنزل القديم بعد الظهر. سيكون مثل معمل التبريد، ولا توجد طريقة لتدفئة مكتبك سوى ذلك الموقد الصغير البائس».

«لم يكن يومًا باردًا على هذا النحو يا عزيزتي، لقد أمضيتُ فيه الكثير من سنوات حياتي الجميلة».

«كان الأمر مُختلفًا تمامًا عندما كان الطابق السفلي مدفّأً. ذلك الموقد ليس آمنًا عندما تكون النافذة مفتوحة. قد تطفئه أيّ هبّة رياح مُفاجئة، وفي حال كنتَ في العمل، فلن تلاحظ أبدًا حتى تتسمّم شيئًا فشيئاً بالغاز. لقد انتابك صداع شديد في أحد الأيام جرّاء هذا».

«لقد أصبت بالصّداع مرّات عديدة من قبل، جرّاء هذا، ونجوتُ منه» قال بعناد: «كيف يمكنك أن تكون عنيدًا إلى هذا الحدّ؟ أنت تعلم أن الأمور تغيّرت الآن، وعليك أن تعتني بصحتك أكثر».

«لماذا عليّ الاعتناء بصحتي أكثر؟ فهي لا تستحق نصف ما كانت عليه في السابق».

لم تُعِر زوجته اهتمامًا لما قال. «وألا تعتقد أنّه تبذير طائش أن تدفع أجار بيت بالكامل، لقاء مضي بضع ساعات في اليوم في إحدى الغُرف غير المريحة أبدًا؟».

امتقع وجه البروفيسور الدَّاكن، وارتفعت نهايتيّ حاجبيه الكبيرين نحو شعره الأسود. «إنّه الإسراف الوحيد في حياتي» قال متذمّرًا بحَنْق.

«كيف أصبح نزِقًا وطائشًا» فكّرت زوجته، حالما سمعت دعسة حذائه المطاطي في البهو.

أوبرا مينون: أوبرا فرنسية تستند إلى رواية غوته (سنوات تعلّم فيلهلم مايستر).

أوبرا كوميك: أوبرا فرنسي من النوع الهزلي.

مغني التينور: هو صاحب طبقة صوت غنائية أوبرالية كلاسيكية.

مغنية سوبرانو، إنكليزية ولدت في باريس، والدتها مغنية السوبرانو إيما نيفادا، وزوجها ريموند بالمر.

منطقة جنوب غرب فرنسا، بمحاذاة الحدود الجنوبية لإسبانيا.

الفصل التاسع

اعتدل الطقس مجدّدًا ليلة الميلاد، وسيكون هناك عشاء عائليّ في المساء، لكن سانت بيتر عازمٌ على قضاء طيلة اليوم بمفرده في المنزل القديم. طلب من زوجته أن تضع له بعض السندويشات، كي لا يضطر للمجيء على الغداء. كان يحتفظ ببعض زجاجات النبيذ في مكتبه، في صندوق الخزانة القديمة تحت المانيكانات. ولحسن الحظ أنّه أحضر معه كمية لا بأس بها من رحلته الأخيرة إلى إسبانيا. لم يكن الأمر بعدًا في الرؤية ـ فلم تكن مسألة الحظر[41] واردة في الحسبان آنذاك ـ لكن الحظ لعب دوره. كان قد ذهب مع البقّال إلى مزاد علني، وابتاع عشرات الدزينات بسعر زهيد. عاد إلى بلاده عن طريق مدينة مكسيكو وحصل على الخمر دون رسوم.

قابل أوغستا أثناء عبوره بمحاذاة المنتزه مع سندويشاته، وهي عائدة من القدّاس «هل ما تزال تذهب إلى المنزل القديم بروفيسور؟» سألت معاتبة. كان وجهها يبتسم له من بين فروتها السوداء المثبتة حول عنقها، وقبعتها السوداء الثابتة.

«أوه، أجل يا أوغستا لكن ليس على نحو دائم، أفتقدك. لم يعُد هنالك الآن أيّ ملابس جديدة فوق «سيداتي المانيكانات» في المساء. ألن تفاجئني بزيارة ما وتكسيهنّ بالملابس؟ أحبّ أن أراهنّ أنيقات».

ضحكت أوغستا. «إنك رجل مرح، دكتور سانت بيتر. لو كان شخص غيرك يقول ما تقوله لطلابك في القاعة، لشعرتُ بالعار، لكنني دائمًا أقول للناس أنك لا تعني نصف الذي تقوله».

«وكيف تعلمين ما أقوله في صفوفي، هل لي أن أسألك؟».

«أوه، طبعًا، يخرجون ويتحدّثون في الأمر عندما تقول أشياءَ تَحُطُّ من مكانة الكنيسة». قالت بجديّة.

«لكن يا أوغستا لا أظنُّ أنني فعلتُ هذا الأمر مُسبقًا».

«حسنًا، إنهم يفهمون الأمر على هذا النحو، فهم ليسوا أذكياء مثلك، لهذا عليك أن تتوخى الحذر».

«لا يَهُمُّ ما يفكرون به، سينسونه غدًا». كان يسير بمحاذاة أوغستا، بخطوة هادئة ومتراخية، مختلفة جدًّا عن الخطوة التي يخطوها عادة عندما يكون منشغلًا بأمر ما. «لقد ذكّرني حديثنا هذا بسؤال لطالما أردتُ أن أطرحه عليك. ذلك المقطع في الصلاة عن الوردة الغامضة، زنبقة صهيون، والبرج العاجي- هل هذا هو النشيد المريمي[42]؟»

توقفت أوغستا ونظرت إليه. «ماذا يا بروفيسور!! ألم تتلقَّ أيّ تعاليم دينيّة على الإطلاق؟».

«وكيف أمكنني يا أوغستا؟ كانت والدتي ميثودية، ولم يكن ثَمَّة كنيسة كاثوليكيّة في بلدتنا كانساس، وأظن أن والدي نسي دينه».

«هذا ما يحدث في الزيجات المختلطة» تحدثت أوغستا وكأنّها ترمي إلى شيء ما.

«أوه، نعم، أظن ذلك، لكن أخبريني، إذن ما هو نشيد مريم».

«تبدأ بـ (تعظّم نفسي بالرّب، وتبتهج روحي بالله مخلّصي) يجب أن تكون تعلم هذا».

«لكني كنت أعتقد أن النشيد عن العذراء».

«أوه، لا بروفيسور، فالعذراء المقدسة ألّفت النشيد».

اشتدّ اهتمام سانت بيتر «هل العذراء قامت بتأليفه؟»

تحدثت أوغستا بلطف كما لو كانت تَعِظُه، غير راغبة أيضا في انتقاد جهله بحدّة. «أوه، نعم، حالما أفصح لها الملاك أنّها ستكون والدة الرب، شرَعَت العذراء المباركة في تأليف النشيد. كنت أعتقد دائما أنّك تعرف كل شيء دكتور سانت بيتر».

«ودائماً تكتشفين ضآلة معرفتي، حسنًا، أنتِ لم تبوحي لي بأي شيء لأنك متحفّظة جدًّا».

ذهب كلّ منهما في طريقه وهما أكثر ابتهاجًا ممّا كانا عليه أوّل اللقاء. صعد البروفيسور إلى مكتبه، تملؤه السّكينة، وكأنَّ أوغستا موجودة في المكان وأشعلت الأضواء له. (بالتأكيد قالت إنّ القديسة العذراء جلست وألَّفت النّشيد المريميّ). كانت أوغستا غالبًا ما تقضي معهم معظم عطلة الفصل، في السّنوات الماضية عندما كانت العُطل عطلًا بالفعل. اعتاد أن يحبّ أشياءها التي تذكّره بها في غرفة عمله، وخاصة الزّينة فوق المانيكانات. فأحيانًا كانت تجعل من هؤلاء النِّسوة القبيحات سيّدات مقبولات المظهر.

في السنوات الأولى، لم يكن يكترث لمشقّة عمله، فقد كان يشعر أنّه دائماً في عطلة، وأنَّ ثَمَّة دفء وعبير خاصٍ للمكان، يتسلّل من الطابق السفلي إلى مكتبه. عندما كان يكتب أفضل ما لديه، كان مُدركًا لوجود فتاتين صغيرتين وجميلتين في فساتين جديدة، الأزهار والنباتات الخضراء في غرفة الجلوس المريحة والرثّة، أناقة زوجته وذوقها الجميل، وحتى أنّه كان مُدركًا لتحضير العشاء في الطابق السُّفليّ على نحو جيّد أكثر من المعتاد. لم يكن غافلًا طوال الوقت الذي كان يعمل فيه بضراوة على مؤلَّفاته الثّمانية الكبيرة، عن الأحداث المنزليَّة الّتي تجري في الطابق السفلي. كان ذهنه يتابع بسعادة كل ما يجري. تمامًا مثلما كانت الملكة ماتيلدا سعيدة بعملها في نسج السجّادة[43] الطويلة المعروضة الآن في بايو[44]ـ التي أرّخت بها مآثر الفرسان والأبطال ـ إلى جانب التّصميم الكبير للعمل الدرامي حيث عمِلت هي ونساؤُها على تطريز الأشكال الصغيرة الجميلة من الطيور والحيوانات، والتي تُعَدُّ قصة في حدّ ذاتها، ولذلك، بالنسبة إليه، فإنّ الفصول الأكثر أهمية في عمله متداخلة مع الذّكريات الشخصية.

وفي هذا الصباح من يوم الميلاد، ومع هذا الإحساس بالماضي الذي يراوده، عاد البروفيسور إلى العمل بشكل تلقائيّ، وانتهى الصّباح على هذا النحو. وقبل أن يَعي أنّ الصباح مضى، رنّت أجراس كنيسة أوغستا عبر المنتزه، مُنذرة بحلول وقت الظهيرة، وضّبَ أوراقه، ونظّم طاولة الكتابة استعدادًا للغداء. عمِل بجدٍ، ظانًّا، أن الجوع هو السبب. حدّق باهتمام في السّلة التي أعطته إياها زوجته، كيس من الخوص المجدول، اشتراه مرّة من جبل طارق، ممتلئًا بالفراولة. سندويش دجاج مع أوراق الخس، وعنب كاليفورنيا الأحمر، وحبتيّ كمثرى بلفحة خمرية وعنق طويل. يبدو أنّهم وُضِعُوا بشكل جيّد؛ وقد لفَّتْهم ليليان بعناية في واحد من أفضل مفارش المائدة خاصَّتها، لأنَّها تعلم كم يمقت الكتّان القبيح. استلَّ من الصندوق قطعة جبن، وزجاجةً من زجاجات النّبيذ، وبدأ يلمّع كأسَه.

وبينما كان يستمتع بغدائه، استعاد بتلك العُطل التي قضاها وحيدًا في باريس، عندما كان يقيم في فرساي، مع عائلة ثيريولت كمدرّس لأولادهم.

لقد كان أحد أيام إحياء الموتى، عندما اتجه إلى باريس في قطار الصباح الباكر، وتناول فطورًا رائعًا في شارع دي فوجيرارد لكن ليس في فندق فيو، فلم يكن في ذلك الوقت يملك المال الكافي ليدخل ذلك المكان. ثم مضى بعد الإفطار سائرًا تحت المطر الخفيف، كانت

السماء عابقة بذلك اللون الرماديّ الفضيّ الشديد، لدرجة أن جميع الأبنية الحجرية الفضية على امتداد شارعي سانت جاك وسوفلو، تبدو أكثر وضوحًا في هذا اللمعان الفضي من أشعة الشمس. النوافذ مغلقة؛ ولم يكن ثَمَّة بقعة ملوّنة على امتداد الطريق الكئيب صعودًا باتجاه البانثيون. كل شيء رطب، رمادي ولامع كالزئبق، موسومًا بشقوق سوداء مع واجهات بارزة ومتآكلة جرّاء عوامل الطقس، وبيضاء مثل رماد الخشب. وفي الوقت نفسه، من مكان ما خلف البانثيون نفسه، لاح رجل وامرأة، يدفعان عربة يد، وتوجّها صوب الشارع الفارغ. كانت العربة مليئة بالأضاليا الوردية، بنفس الدرجة اللونية تمامًا. الشاب وسيم ونحيل، بوجه شاحب؛ والمرأة تحمل طفلا. كانت كلٌّ من كعوب أحذيتهما وعجلات العربة ملطّخيْنِ بالوحل. لا بدّ أنَّهما قادميْنِ من مكان بعيد في الرِّيف، وكانا ثنائيًّا يبدو عليه علائم الضّجر والقلق. توقفا عند زاوية قبل البانثيون وتفحّصا بقلق الشوارع القاتمة والرمادية المهجورة. دخل الرجل إلى مخبز، وبدأت زوجته بفرش الأزهار، الملفوفة في باقات كبيرة من أوراق الكستناء الخضراء والنضِرة. اقترب الشاب سانت بيتر وسأل عن السّعر.

«فرنكان ونصف» سيدي. قالت بشيء من الجرأة المتهوّرة. أخذ باقة وناولها ورقة نقدية من فئة الخمس فرنكات. لم يكن بحوزتها صرافة، أتى زوجها الذي شاهدهما من المخبز، مسرعًا مع خبزٍ تحت ذراعه.

«فرنكان ونصف» قالت مُخاطبة زوجها لحظة وصوله، وضع يده في جيبه باحثاً عن صرافة.

«فرنكان ونصف» كرّرت بجهدٍ شاق. ربما يكون السعر المتداول هو فرنك أو فرنك ونصف. عدّ الرّجل الصرافة وأعطاها للطالب، ونظر إلى زوجته بإعجاب. كان سانت بيتر مبتهجًا جدًّا بأزهاره؛ لدرجة أنّه لم يخطر في باله أن يحصل على أكثر؛ لكنه ندِم طوال حياته أنّه لم يشترِ باقتين، حتى لو دفَع ثمنهما أكثر بقليل. ولم يحظَ بعد ذلك بأزهار أضاليا بهذا اللون الجميل، أو منسّقة بأوراق كستناء زاهية على هذا النحو الجذّاب.

بعد برهة كان يهبط من التّلّ، متسائِلًا لمن يمكنه أن يعطي باقته، في الوقت الذي تقدّم فيه موكب مثير للشفقة من أمامه تحت المطر. عبَرنه فتيات مدرسة خيريّة كن يمشين في ثنائيات، بزيّ قاتم وقبيح، وقبّعات مستديرة من اللبّاد دون شريطة أو قوس، تنظمهنّ أربع راهبات يرتدين قلنسوات سوداء. كنّ جميعهنَّ خافضات النظر، جميعهن ما عدا واحدة ـ الجميلة

بينهنّ، طبعًا ـ كانت تنظر جانبًا، مباشرة إلى الطّالب وأزهاره. التقَت عيناهما وابتسمت له، وعلى الفور مدّ يده وقدّم لها الباقة، انتفَضَت إحدى الأخوات مثل غراب أسود وأزاحت وجه الفتاة الجميل عنه. كان خائفًا عليها أن تدفع ثمن تلك الابتسامة. قضى غودفري يومه في حدائق لوكسمبورغ، وعاد سيرًا إلى محطة سانت لازار في المساء فارغ الجعبة سوى من تذكرة العودة في جيبه، وسعيدًا جدًّا بعودته في الوقت المحدد لعشاء العائلة.

عندما قدِم بداية ليقيم مع عائلة ثيريولت، اكتشفَ أن السيدة ثيريولت صارمة وقاسية، وبخيلة فيما يخصُّ غسيله، وتتذمّر من الجبنة والفواكه التي يتناولها عند العشاء. لكنها أصبحت لطيفة معه في نهاية الأمر؛ لم تعتنِ به مطلقًا كما يجب؛ لكنَّه تمكَّن من الاعتماد عليها. كان أبناؤها الثلاث من أعز أصدقائه. توفي غاستون، الذي أحبّه جدًّا، في انتفاضة الملاكمين في الصين. إلاّ أنّ بيير بقيَ يعيش في فرساي، وتشارلز أسّس عملا في مارسيليا. كانوا جميعًا يرحبّون به في بيوتهم عندما يكون في باريس وكانوا أقرب إليه من إخوته.

حدث ذلك في أحد الإجازات الصيفيّة عندما كان في باريس برفقة ليليان والطفلتين وخطرَ على باله لأوّل مرة أن يكتب عن المكتشفين الإسبان الأوائل، وتوجّه على الفور إلى عائلة ثيريولت بعد أن أعطى زوجته ما يكفي من النقود لتكمل إجازتها الصيفيّة وتعود إلى الوطن، اكتفى بالقليل المتبقّي ومضى إلى مارسيليا ليناقش مشروعه مع حميّ تشارلز ثيريولت، الذي يُعدّ منزله مقرّا لتجارة الفلّين مع إسبانيا. وكان من الواضح أنّه يتوجّب على سانت بيتر التواجد في إسبانيا قدر الإمكان في السَّنوات القليلة القادمة ويتوجّب عليه أن يعيش هناك بكفاف. لم توفّر عائلة ثيريولت فرصة لمساعدته وكانوا مسرورين بهذا. ليس بالمال ـ فهم فرنسيّون جدًّا وعقلانيّون جدًّا. إنّهم على استعداد لتكبّد أيّ قدر من المتاعب دون أن يتحمّلوا أيّ نفقات مهما كانت طفيفة لتوفير بضعة آلاف من فرنكات عليه.

في ذلك الصيف، أبقاه تشارلز لثلاثة أسابيع في منزله المغمور بشجيرات الدُّفلى من جميع الجهات في برادو، حتى أبحر مركبه الشِّراعيّ الصَّغير «ليسبوار» من الميناء الجديدة محمّلًا بشحنة إلى الجزيرة الخضراء[45]. كان القبطان من هاوتس بيرينيه وكان طاقمه الاحتياطي جميعهم بروفنساليين[46]، بحّارة تدرّبوا في تلك المدرسة الصارمة في خليج ليون. بدا كلُّ شيء في الرّحلة يسير لصالح خطّة العمل التي وضعها سانت بيتر في ذهنه؛ القبطان، ومساعده

الكاتالوني الثاني، والبحر نفسه. وفي أحد الأيام انفصلوا عن الآخرين، وجابوا الساحل الجنوبي لإسبانيا طوال اليوم؛ من شروق الفجر حتى الغروب الذهبي. كانت سلسلة جبال سييرا نيفادا[47] التي تنتصب شاهقة على يمينهم؛ قمة ثلجيَّة تلو الأخرى، ترتفع عاليًا متجاوزة حدود الخيال، وتلمع مثل الكريستال والتوباز[48]. استلقى سانت بيتر ينظر إليهم من مركب صغير يُبحر منخفضًا في المياه البنفسجيّة، وكانت وضعية كتابه المفتوح فوقه، في الهواء الطلق، مثل سلاسل الجبال نفسها تمامًا. وضعية تلقائية، واعتبره أمرًا واقعًا، لم يتدخل فيه، وتأمل نفسه من خلال هذا الكتاب.

***

كان الوقت متأخّرًا عشيّة عيد الميلاد عندما عاد البروفيسور إلى المنزل الجديد، لكنَّه عاد بمزاج سعيد لدرجة أنّه لم يخشَ شيئًا، حتى العشاء العائلي. بدا أنّه متحمّسٌ له، على خلاف العادة. حتى أنّ زوجته سمعته يُدندن موسيقاه المفضلة من أوبرا «الزواج السرّي»[49] أثناء ارتدائه لملابسه.

في ذلك المساء، وصلتِ الفتاتان إلى المنزل في اللحظة نفسها تقريبًا. وعندما خلعت روزاموند معطفها في البهو، لاحظ والدها أنها ترتدي عقدها الجديد. وقفت كاثلين تنظر إليه، وبدا واضحًا أنّها تحاول أن تجد الشجاعة لتقول شيئًا حياله، عندما ساعدها لِوي في كسر الصمت.

«ألم ترِ مجوهراتنا من قبل يا كاثلين، ما رأيك به؟ انظري إليه».

«كنتُ أنظر إليه، يبدو جميلًا جدًّا».

«إنّه ذهب معتّق جدًّا، كما ترين. يا لها من تحفة. روزي لا تحبُّ أيّ شيء برّاق، ولا تكترث للجواهر الثمينة. تُفضّل أن تكون المجوهرات جميلة قبل كلّ شيء».

«حسنًا، وهي فعلًا جميلة».

ذرَع لِوي المكان جيئة وذهابًا، مُبديًا إعجابه بزوجته، «إنّها تقتني أشياء كهذا، أليس كذلك؟ ومع ذلك، فأنتِ تعلمين أنّي أحبّها أيضا بهذه الأشياء البسيطة». غرق في التفكير وكأنّها بمفردها ويتحدث إلى نفسه. «أتذكّر دائماً السّوار الصغير الذي ارتدته في الليلة التي

قابلتها فيها لأوّل مرّة، طقم من الفضّة، مرصّع بحجر الفيروز، أليس كذلك؟ نعم، طقم فيروزي من الفضّة الفاتحة، هل ما تزالين تحتفظين به يا روزي؟».

«أعتقد ذلك» كان هناك شيء من الاستياء في صوت روزاموند، استدارت صوب البهو تجوب بنظرها باحثة عن شيء ما. «أين زهور البنفسج التي أحضرتَها لأمّي؟».

جاءت السيدة سانت بيتر، تتبعها الخادمة وكوكتيلات المشروبات الكحولية، وبدأ سكوت الشَّجب المعتاد بشأن الحظر[50].

«لماذا أيّها الصحفيّون لا تقولون حقيقة الأمر في الصحف» سأله لِوي، «إنه مجالك ويمكنك فعل شيء حيال الأمر».

«ليست أمرًا مهمًّا لأخسر وظيفتي، إنّ البلد منشقٌّ إلى قسمين، ولا أعلم إن كان سيحصل توافقٌ اجتماعيٌّ، يمكنني شرب الكحوليَّات القوية والأمر ليس بهذه الصّعوبة، لكنّك أنت والبروفيسور تفضّلان النَّبيذ[51] والأشياء الفاخرة».

«أوه، لا يعني لنا الأمر شيئًا! نحن ذاهبان إلى فرنسا لقضاء الصيف».

وضع لِوي يده حول زوجته، وداعبَ خدّه بخدّها، قائلاً بلطف، «لنشرب بورغندي، بورغندي، بورغندي».

«خذني معك من فضلك يا لِوي» قالت السيدة سانت بيتر متذرّعة، لتُلهيه عن زوجته. لا شيء ينغّص على عائلة ماكغريغور ويزعجهم على نحو كبير سوى اللحظات الحميمية التي تُباغتهم بها عائلة مارسيلوس أمام الجميع.

«سنصحبك معنا، أنتِ وأبي، لقد خطَّطنا لذلك، سآخذه لدواعي الأمان. فلن أتحمّل السفر إلى أوروبا بمفردي برفقة سيّدتين جميلتين مثلكما، لأننا لن نكون في مأمن من المشاكل. سيختلق أحدهم شجارًا ونقع في مأزق ضربة خنجر أو كعب حذاء، وعندئذ سيكون هناك أرملة». والتفتَ مجدَّدًا إلى زوجته.

«تعال يا لِوي» أوعزت إليه السيدة سانت بيتر، «سأعترف لك بشيء ما، أخشى ألاّ يكون ثَمَّة عشاء لك اللّيلة».

«لا عشاء لي؟».

«لن يعجبك شيء أنت وغودفري، العشاء الليلة فقط لسكوت. فأذواقكم مختلفة جدًّا. لم أجد حلّا وسطًا. وهذه هي الأطباق التي يُفضّلها؛ من حساء الكريمة إلى الكاسترد المثلّج».

«لكن من قال إنّي لا أحب حساء الكريمة أو الكاسترد المثلّج». ومدّ يديه ليُظهر جاهزيتهما، «وهل يوجد فاصوليا خضراء في يخنة الكريمة، أعتقد هذا، وأحبّ هذه الأطباق أيضا. الحقيقة يا عزيزتي «وقف أمامها ونقر على ذقنها بإصبعه، «الحقيقة أنّي أحبُّ كل عشاء سكوت، لكنَّه هو الذي لا يحبُّ أطباقي، إنه متعصّب».

«وهذا ينطبق عليك يا لِوي» قال البروفيسور ضاحكًا.

«هذا ينسحب على كثير من الأشياء» قال لِوي بشيء من الحزن.

«كاثلين» قال سكوت وهما يقودان عائديْن إلى البيت في ذلك المساء، مخاطباً كاثلين الجالسة إلى جانبه في مقعد السّائق، «العقد الفضيّ الذي تحدّث عنه لِوي، من مجوهرات توم، أليس كذلك؟ هل تعتقدين أنها ما زالت تكن له مشاعرًا، تتوارى خلف كل هذا التباهي؟».

«لا أعلم، ولا يعنيني. لكني أحبّك جدًّا يا سكوت» وأجهشَت بالبكاء.

ضغَط قفّازه المخصّص للقيادة بين ركبتيه ليسحبه من يديه واحتضَن يديها داخل الفروة، «حقًا؟» تمتمَ قائلًا.

«نعم، أحبّك» قالت بتأكيد، ضاغطة على براجمه بكل قوّتها.

«لطف كبير منك أن أخبرتني كل شيء عن الأمر منذ البداية يا كاثلين. معظم الفتيات لا يعلمنَ كم هذا مهمٌّ. أنا الوحيد الذي علم بالأمر، أليس كذلك؟».

«نعم، إنّك الوحيد الذي علم «.

«فتاة أخرى سواكِ لم تكن لتخبرني، لماذا فعلتِ ذلك يا كاثلين؟».

«لا أعلم، لكنني أعتقد أنّه في ذلك الحين، انتابني شعور بأنك أنتَ الشخص الحقيقي» ووضعت رأسها على كتفه، «وأنت تعلم أنك الشخص الحقيقي، أليس كذلك؟».

«أظنّ ذلك».

قانون دستوري، تم بموجبه حظر تصنيع، وبيع واستيراد الكحول في الولايات المتحدة الأمريكية بين عامي 1920ـ1933.

النشيد المريمي أو ترنيمة التمجيد: أحد الترانيم الموجودة في الكتاب المقدّس والمنسوبة إلى مريم العذراء، وقد جاء ذكر هذه الترنيمة في إنجيل لوقا

نسجت هذه السجادة بتكليف من الملكة ماتيلدا زوجة الملك ويليام الفاتح دوق نورماندي، تمجيداً لمعارك النورمانديين واحتلالهم لإنكلترا.

مدينة فرنسية.

إحدى بلديات مقاطعة قادس جنوب إسبانيا.

نسبة إلى بروفنسالي في جنوب غرب فرنسا.

سلسلة جبال في مقاطعة غرناطة جنوب إسبانيا.

نوع من الأحجار الكريمة.

أوبرا للمؤلف الموسيقي الإيطالي دومينيكو سيماروزا.

هو الحظر الدستور لمنع تجارة واستيراد ونقل المشروبات الكحولية في الولايات المتحدة الأمريكية من عام 1920 وحتى 1933.

كان النبيذ من المشروبات المسموح بها بموجب الحظر آنذاك.

الفصل العاشر

كان ثَمَّة اجتماع لنقابة المهندسين الكهربائيين في ذلك الشتاء في هاملتون. أقام لِوي مارسيلوس، الذي كان عضوًا، مأدبة غداء للمهندسين الضيوف في النادي الريفي، واصطحبهم بعد ذلك إلى الأوتلاند.

حضَرَ سكوت ماكغريغور الغداء برفقة الصحفيين الآخرين، وفي طريق عودته توقف عند الجامعة واصطحب حماه.

«سأقلّك إلى المنزل. هل أنتَ ذاهب إلى القديم؟ كيف استطعتَ أن تُفوّت وليمة لِوي؟».

« كان لديّ حصص في الجامعة».

«إنه غداء هامّ، ولِوي مُضيف جيّد. قدّم الكثير من السّيجار الفاخر». نقَرَ سكوت على جيب صدره. « لقد أتوا على ذِكر توم، كان كلُّ شيء على ما يرام، وبالطبع، كان العلماء مهتمين بالحديث، دون أن يعرفوا الكثير عن توم. لقد دعاني لِوي من أجل استرجاع الذّكريات الشخصيّة؛ وكان بالغ التهذيب في هذا. لم أُجِد التعبير عن نفسي، فلست متحدّثًا جيّدًا على أيّة حال. وبدوتُ هذه المرة وكأنّي أتحدّث بصعوبة. أتعلم، لم يعُد توم شخصًا حقيقيًا بالنّسبة لي، يخطر لي أحيانًا أنّه كان مجرّد فكرة لامِعة، لقد وصلنا يا دكتور».

تلميح سكوت أزعج البروفيسور نوعًا ما. صَعَد السلالم طابقين، وجلس في سردابه المعتم. واضِعًا مرفقه الأيمن على الطاولة، وعينيه على الأرضيّة، بدأ بوضوح وتمعّن قدر الإمكان، استحضار كل تفصيل حدَثَ في ذلك اليوم الربيعي المشرق والعاصف، عندما قابل توم أوّل مرة.

كان يعمل في حديقته في أحد صباحات يوم السبت، عندما تقدّم شاب يافع يرتدي بدلة شتوية سميكة وقبّعة ستيتسون[52] حاملًا حقيبة رمادية من الخيش، قادمًا من الباب الأخضر الذي يؤدي إلى الشارع.

«هل أنت البروفيسور سانت بيتر؟» قال متسائلًا.

وبعد التأكّد، وضَعَ حقيبته على الحصى، وأخرَجَ منديلًا قماشيًّا أزرق، ومسحَ وجهه المُبلل بقطرات العرق . أوَّل شيء لاحظه سانت بيتر على الزّائر هو صوته الرُّجوليّ النّاضج،

والمنخفض، والهادئ الذي ينمُّ عن خبرة، والمختلف جدًّا عن النبرة الرفيعة أو الصراخ الصاخب للأصوات الصّبيانية في الحرم الجامعيّ. الشيء الآخر الذي لاحظه هو الخطُّ المُتباين تحت الشعر الرمادي للشاب- جبهته الجميلة جدًّا المظللة بقبّعته، ووجهه البني الضّارب إلى الأحمر، والذي تعرّض بشكل واضح لشمس أقوى من شمس ربيع هاملتون. كان الفتى بمظهر جيّد- كما رآه- طويل القامة، وربّما قويّ البنيّة، مع أنّ كتفيّ معطفه الثابت والثقيل كانا مبطَّنين بشكل مبالغ لدرجة أنّ الجزء العلوي منه بدا محبوسًا في صندوق.

«أريد أن ألتحق بالمدرسة هنا بروفيسور سانت بيتر، وجئت أطلب نصيحتك. فأنا لا أعرف أي شخص سواك في هذه البلدة».

«أفهم أنك تريد الانتساب إلى الجامعة، من أي مدرسة ثانوية تخرّجت؟».

«لم أرْتَدْ أي ثانوية يا سيدي، وهذه هي المشكلة؟».

«أوه، نعم، أعتقد أنّه من الصعب أن تدخل الجامعة، من أين أنت؟».

«نيو مكسيكو. لم أرْتَدْ المدرسة يومًا، لكنني درستُ وتعلمت قراءة اللاتينية على يد كاهن هناك».

ابتسم سانت بيتر بتحفّظ، «إلى أي درجة تجيد اللاتينيّة؟».

«قرأت يوليوس قيصر وفيرجيل والإلياذة».

«كم كتابًا قرأت؟».

«لقد قرأت قدرًا لا بأس به». واجه أسئلة البروفيسور بثبات، كانت عيناه حازمتين، مثل صوته.

«أوه، حقّا»، أسنَدَ سانت بيتر رفشُه[53] على الجدار، فقد كان يحفر حول شجر الزعرور ذي الثمار الحمراء» هل يمكنك ترديد أيُّ شيء تحفظه؟».

بدأ الفتى: «أيّتها الملكة العجيبة، هل تأمرين بتجديد الحزن»، واستمرَّ بثبات بقراءة خمسين سطرًا أو أكثر، حتى رفع سانت بيتر يده ليوقفه.

«رائع، إن كاهنَك لاتينيٌّ ضليعٌ. فنُطقك جيّد ومخارجُ الأحرفِ سليمةٌ. بالمناسبة هل كاهنك فرنسيّ؟».

«نعم يا سيدي، لقد كان كاهنا مُبشّرًا من بلجيكا».

«هل تعلّمت منه شيئًا من الفرنسية؟».

«لا يا سيدي، فقد أراد أن يتحدث بلغته الإسبانية».

«وهل تتحدث الإسبانية؟».

«ليس على نحو جيد، أجيد الإسبانية المكسيكية».

اختبره البروفيسور في الإسبانية، وأخبره أنّ ما يعرفه يكفي لمنحه تقديرًا جيّدًا بالنسبة للغة حديثة حسب اعتقاده، «وأين مكامن النقص لديك؟».

«لا أعلم شيئًا في مادتيّ الرياضيات والعلوم، وخطي سيء للغاية».

«هذا ليس بالأمر الغريب» قال له سانت بيتر، «لكن، بالمناسبة، كيف حدث وجئت إليّ، عوضًا عن الذهاب إلى أمين السجلات؟».

«لقد وصلت توًّا هذا الصباح، واسمك هو الاسم الوحيد الذي أعرفه هنا، لقد قرأت مقالًا لك في المجلة، عن فري ماركوس[54]، قال الأب دوتشين، إنه الشيء الوحيد الذي يَمِتُّ للحقيقة بصلة، ممّا قرأه عن وطننا هناك».

ثَمَّة ملاحظة تشكَّلت لدى البروفيسور فيما مضى، أنّه كلّما كان ينشر في الدوريات العامة، يتعرض لمشكلة. «حسنًا، ما هي خططك أيّها الشاب؟ وبالمناسبة، ما هو اسمك؟».

«توم أوتلاند».

ردد البروفيسور الاسم، بدا له أنّه مناسب جدًّا للشاب.

«كم عمرك؟».

«عشرون» احمرَّ الشاب، وافترض سانت بيتر أنّه أنقص بضع سنوات من عمره، لكنه اكتشف بعد ذلك أن الشاب لم يكن يعرف عمره بالضبط.

«أعتقد أنّه يمكنني إيجاد مدرّس لتعويض ما فاتني في الرياضيات هذا الصيف».

«نعم، يمكن تدبير الأمر، كيف استطعت تجميع المال؟».

أصبحت ملامح وجه أوتلاند جديّة. «لقد جمعته بطريقة غريبة نوعًا ما. في حال كنت ستكتب إلى بلدية تاربين في نيو مكسيكو للاستفسار عني، فستكتشف أن لديّ مالًا في البنك هناك، وستعتقد أنَّني أخدعك، لكنَّها أموال لا أستطيع التصرف فيها على الرغم من سلامة صحتي الجسدية. إنها أمانة لشخص آخر. لكنني أملك ثلاثمائة دولار دون أيّ وصاية عليهم،

وآمل أن أجد عملا هنا. كنت أدير قسم الغانغ[55] طوال الشتاء، وأنا في وضع جيّد. سأقوم بأيّ عمل باستثناء أن أعمل نادلًا، لن أقوم بهذا العمل». وعند هذه النقطة بدا توم يشعر بالقوّة.

علِم البروفيسور القليل من قصته ذلك الصباح. قال له إنَّ والديه «رُحّل» وقد توفي كلاهما أثناء عبورهما جنوب كانساس في عربة بريّة. كان رضيعًا، وتبنّاه أناس طيبون بطريقة غير رسمية، اعتنوا بوالدته في ساعاتها الأخيرة- وهما مهندس قاطرة يدعى أوبراين وزوجته. نُقل هذا المهندس إلى نيو مكسيكو واصطحب الرضيع اللقيط مع أطفاله. وحالما أصبح توم في عمر يخوّله العمل، حصل على وظيفة صبي مُهِمَّات، وشارك في إعالة الأسرة.

«ماذا يعني صبيُّ المُهِمَّات؟ أتقصد ساعٍ؟».

«لا يا سيدي، إنها مُهِمَّة أكثر مسؤولية من ذلك، كانت مدينتنا مقرًّا مُهِمًّا للشحن على طريق «سانتا في»، وكان يعيش هناك العديد من رجال السكّة الحديدية. يتغير جدول الشحن باستمرار لأنه طريق بمسار واحد، وعلى الموزّع إيصال طرود الشُّحنات عندما يستطيع. لنفترض أنّك عامل فرامل في القطار، ومن المتوقّع وصول قطارك عند الثانية صباحًا؛ وعلى غير العادة تغيّر الموعد إلى منتصف الليل، في الرابعة صباحًا. تذهب إلى فراشك وتنام طوال الليل، مرتاح البال. لأنّ صبيّ المُهِمَّات سيراقب لوحة الجدول، وقبل نصف ساعة من انطلاق قطارك، يأتي وينقر على نافذتك ويوقظك في الوقت المناسب للقيام بالمُهِمَّة، فصبيُّ المُهِمَّات يجب أن يكون على دراية بكلِّ الأشياء التي تحدث في المدينة. يجب أن يعلم متى تكون هناك لعبة بوكر، وكيفيَّة الهرب بسهولة. لا يمكنك معرفة متى يحضر مُراقب العُمال إلى المكان، وإذا وشى أحد بشخصٍ يلعب القمار، يُطرد من العمل. في بعض الأحايين، عليك إيجاد رجُلٍ عندما يتغيّبُ شخص ما عن مكانه، وقد اكتشفت أنّه في أغلب الأحيان ثَمَّة عذر يجعل أحدهم متواجدًا في المنزل». تحدث الفتى برزانة كما لو كان قد فكّر عميقًا بسلوكه غير القانونيِّ.

في تلك اللحظة، خرجت السيدة سانت وبيتر وسألت زوجها إن كان سيدعو صديقه الشاب إلى الداخل لتناول الغداء، همّ أوتلاند بالمغادرة ونظر بذعر صوب الباب الذي دخل منه؛ لكن البروفيسور لم يسمح له بالذهاب، التقط الحقيبة ومنعه من الهرب. وحالما حملها إلى داخل المنزل ووضعها جانبًا في البهو، لاحظ البروفيسور أنّها خفيفة على نحو غريب مقارنة

بحجمها. قدّمت السيدة سانت بيتر الضيف إلى فتاتيها الصغيرتين، وسألته إن كان يرغب في الذهاب إلى الطابق العلوي ليغسل يديه. اختفى الفتى؛ وحالما عاد، حدث شيء مُربك.

كان الخشب في الرُّدْهة والدَّرج الأماميُّ هو الخشب الوحيد المُتَماسِك في المنزل، لكن عندما نزل توم من الدَّرجات المشمعة، ارتمى حذاؤُهُ الجديد الثقيل أمامه، وارتطم على عموده الفقري. انفجرت كاثلين بضحكة قويّة، ونظرت إليها أختها الكبرى مؤنبةً؛ اعتذرَتْ السيدة سانت بيتر عن وضع الدرج.

«لستُ معتادًا كثيرًا على الدَّرج، فمعظم حياتي قضيتها في منزل طينيّ»، شرح توم أثناء نهوضه.

وعلى مائدة الغداء، كان الصبي صامتًا تمامًا في البداية. جلسَ ينظر بإعجاب إلى السيدة سانت بيتر وإلى الفتاتين الصغيرتين. بدأت ترتفع درجات الحرارة، وفكّر البروفيسور أنّه لم ير من قبل بمثل حرارة هذا الفتى الذي ارتخَت ياقته البيضاء الثابتة، وباتَ منديله وهو يمسح به وجهه خِرْقَةً. «لم أكن أعرف أن الطقس سيكون دافئًا جدًّا هنا، أو أنّه كان عليّ اختيار بدلة أخف»، قال مُحرَجًا من إفرازات بشرته.

«نودُّ معرفة المزيد عن حياتك في الجنوب الغربي»، قال مضيفه. «كم بقيت تعمل صبيّ مُهِمَّات؟».

«عامان، ثم أُصِبْتُ بالتهاب رئويٍّ، وقال الطبيب إنه عليّ العيش في مكان مفتوح، لذلك ذهبت للعمل في مزرعة كبيرة للمواشي».

بدأت السيدة سانت بيتر بسؤاله عن هنود البويبلو[56]. كان مُتحفّظًا في البداية، لكنه سرعان ما تحمّس للدفاع عن ربّة المنزل الهندية. في الواقع، نسيَ خجله إلى حدٍ كبير، فقام بهرس بعض البطاطا بجانب قطعته بأناقة، ونقلها إلى فمه بنصل سكّينه، ولم تتمكن الفتاتين الصغيرتين من إخفاء دهشتهما لهذا المشهد. وتابعت السيدة سانت بيتر حديثها بهدوء عن الفخّار الهندي، وسألته أين يوجد أفضل فخار.

«أعتقد أن أجود فخار هو الفخار القديم الموجود في الجُروف»، «هل أنتِ مهتمة بالفخّار، سيدتي؟، ربّما ترغبين في رؤية بعضًا ممّا أحضرته معي». وحالما نهضوا من على المائدة، ذهب إلى حقيبته تحت مشجب القبّعة مباشرة، جثا بجانبها، وفكّ الأشرطة. وعندما

رفع الغطاء، بدا أنّها مليئة بالمواد الكبيرة الملفوفة بالجرائد. بعد أن تحسسهم، أزال الجرائد عن قطعة وعرض جرّة ماء فخارية، تشبه قطع النحت اليوناني المعروف، ومزخرفة بنمط هندسي بالأبيض والأسود.

«إنّها واحدة من الأشياء الأصلية القديمة. أعلم هذا لأني استخرجتها بنفسي، لا أعلم بالضبط كم عمرها، لكن يوجد أشجار بنيون[57] عمرها ثلاثمئة عام بجانب خنادقهم، تنمو في زقاق حجري يؤدي إلى الأنقاض حيث عثرتُ عليها».

«زقاق حجري... أشجار بنيون؟» سألته.

«نعم، أزّقة ضيّقة وعميقة في الصخر الأبيض، حتّتها دعسات المُقْسين[58] القادمة والذاهبة عبر الأجيال. ونمَت أشجار البنيون القديمة هذه في الممرات منذ اندثار السلالة البشرية. يمكنكِ نوعًا ما تخمين الفترة الزمنية التي صُنعت فيها» وأراها للسيدة سانت بيتر طبقة سوداء على الجانب السفلي من الجرّة.

«هذا ليس بسبب تجفيفها على النار أثناء صناعتها، انظري، يمكنني خدشه، إنه سخام يعود إلى آخر مرّة وُضِعت على نار طهي- قبل أن يأتي كولومبوس، على ما أعتقد. لا شيء يجعل من هؤلاء البشر حقيقيّون جدًّا بالنسبة لي سوى قدورهم القديمة مع هذه الطبقة السوداء بفعل النيران». وحالما أعادتها إليه، هزّ رأسه، «إنّها لكِ سيدتي، إن أعجبتكِ».

«أوه، لا يمكنني أن أسمح لنفسي بأخذها! يجب أن تحتفظ بها لنفسك، أو تودعها في متحف ما» لكن كلامها ضرب على الوتر الحسّاس.

«متاحف» قال بمرارة، «إنّهم لا يكترثون لأشيائنا. فهم يرغبون باقتناء أي شيء من جزيرة كريت أو مصر فقط. أفضّل تكسير هذه الجرار على أن تصل إلى أيديهم. لكن لديّ رغبة بأن تكون هذه القطعة في منزل جميل، بين أشيائك الجميلة»ـ وتفحّص المكان بإعجاب.

وتابع توم: «ليس لديّ مكان مخصّص لمثل هذه الأشياء. يشغلون مساحة وخاصّة القطعة الكبيرة. بقيَ صندوق ملابسي في المحطة، لكن خشيت أن أترك الفخاريّات. لا يمكنني إخراجهم جميعًا إلى العلن في كثير من الأحيان».

«لكن ممّ تخاف؟ وإخراجهم من أين؟ أريد أن أعرف كل شيء عن الأمر».

«ربّما أتمكن من إخبارك في أحد الأيام سيدتي» قال وهو يمسح أصابعه المتّسخة بمنديله. كان ردّه دمثاً لكنّه حاسماً. حزَم حقيبته وتناول قبّعته، ثم تمهّل مُبتسمًا. مُخرِجًا من جيبه محفظة من جلد الغزال، ومشى باتجاه مقعد النافذة حيث تجلس الطفلتان، ومدّ يده إليهما، قائلا: «أرغب بإعطاء هذا الشيء للفتاتين الصغيرتين». وفي راحة كفّه قطعتين من الحجر الأزرق الناعم، بلون بيض أبو الحنّاء، أو لون البحر في أيام الصيف الهادئة.

اندهشت الصغيرتان: «أوه، ما هذا؟».

«أحجار فيروز، لقد خرجوا للتو من المنجم، قبل أن تمسّهم يد الجواهري وتجعل لونهما أخضر. الهنود يحبونهم بهذا الشكل».

اعترضت السيدة سانت بيتر مجدّدًا، وأخبرته بلطف أنّه لا يمكنها أن تسمح له بإعطاء هذه الأحجار للفتاتين. «إنّ ثمنهما باهظ».

«لستُ في صدد بيعهم. لقد أعطاهم لي أحد أصدقائي. لديّ الكثير منهم، ولا حاجة لي بهم، لكنهم سيكونون أشياء جميلة للعب بالنّسبة للفتاتين». كان صوته كئيبًا وفاتنًا جدًّا لدرجة تعجز فيها عن فعل أيّ شيء.

«أبقهم في يدك للحظة» قال له البروفيسور وأمعن النظر ليس في أحجار الفيروز، بل في اليد التي تمسكهم: في راحة كفّه الصلبة ذات الخطوط العديدة، الأصابع الطويلة والقويّة ذات النهايات الناعمة، الإصبع الصغير المستقيم، والإبهام المرِن ذي الشكل الجميل الذي ينحني إلى الخلف عن بقية اليد كما لو أنّه سيّدهم. إنّها يد جميلة. استغرق في النّظر إليها والأحجار الزرقاء تتموضع فيها.

غادر الغريب سريعًا وجلس أفراد عائلة السانت بيتر ينظر أحدهم إلى الآخر. تذكّر تمامًا ماذا قالت زوجته في سياق ذلك.

«حسنًا، هذا شيء جديد لدى الطلاب يا غودفري. دعَوْنا ولدًا مسكينًا متعرّقًا متسكّعًا إلى الغداء ليوفّر نقوده، فغادر تاركًا هدايا ثمينة».

نعم، فكّر البروفيسور أنّه بعد كل تلك السنوات، ما يزال هذا حقيقيًّا أمامي. فأشخاص أمثال أوتلاند لا يحملون أمتعة كثيرة، ومع ذلك فإنّ أحد الأشياء التي تعرفهم بها هو كرمهم السَّخِيّ ـ وعندما يغادرون، كلُّ ما يمكنك قوله عنهم، أنهم غادروا تاركين هدايا ثمينة.

مع وجود مدرّس جيّد، لم يجد الشاب صعوبة في اجتياز منهاج الرياضيات لثلاث سنوات في غضون أربعة أشهر. وكانت اللاتينية التي أتقنها صعبة. لكن في الرياضيات لم يكن يتعيّن عليه تطبيقها، ما عليه هو أن يولي اهتمامًا فقط. لم يصادف أستاذه مثيلا له. لكن سانت بيتر حافظ على مسافة بينه وبين الشاب. فقد خُدع أكثر من مرّة، عندما كان مُدرّسًا شابًّا مليئًا بالحماس. كان يعلم أنّ الشخص الذكي قَلَّما يتصرف بمنطقية ونادرًا ما يبقى هذا الذكاء متّقدًا، وبطبيعة الحال سيصبح هذا الشاب الاستثنائي عاديًا بحكم الطبيعة.

في تلك الشهور الأولى، كانت السيدة سانت بيتر تلتقي بتلميذهم أكثر من زوجها. لقد وجدت له مكانًا للمنامة، واهتمت بحصوله على ملابس صيفيّة مناسبة، ولم يعُد يناديها بـ «سيّدة». كان يأتي عادة إلى المنزل في ذلك الصيف للعب مع الفتاتين الصغيرتين. كان يرغب في قضاء بضع ساعات معهن في الحديقة، ويقوم بتشكيل قرى من الرمال والطوب تشبه قرى الهوبي[59]، ويرسم بالحصي خرائطًا للصحراء الملوّنة[60] وبلدة ريو غراندي، ويروي لهنّ قصصًا عندما يتأكّد أنّ لا أحد سواهما يسمعه، عن المغامرات التي قام بها مع صديقه رودي.

«أمي» اندفعت كاثلين ذات مساء على العشاء قائلة: «أتعلمين أن توم ليس لديه عيد ميلاد؟».

«كيف ذلك؟»

«عندما ماتت أمُّه في عربة التّنقُّل، وكان توم رضيعًا، نسيتْ أن تخبر عائلة أوبراين متى عيد ميلاده. كما نسيت أن تخبرهم كم عمره. ظنوا أن عمره سنة ونصف، لأنه كان كبيرًا، لكن السيدة أوبراين كانت تقول دائمًا أنّه لم يكن لديه أسنان كجميع الأطفال في عمره».

سألها سانت بيتر فيما إذا كان توم قد تحدث مسبقًا عن كيفية موت والدته في عربة التنقل.

«حسنًا، إنك تعلم أنها كانت مريضة جدًّا، وكانوا متجهين إلى الغرب من أجل علاجها، وفي أحد الأيام أثناء تخييمهم بجانب النهر، ذهب والد توم للسباحة، وتعرض لتشنُّج أو شيئًا من هذا القبيل وغرق على مرأى من زوجته، فتفاقم وضعها الصحي. كانت هناك بمفردها، حتى عثر عليها بعض الأشخاص ونقلوها إلى طبيب في البلدة المجاورة. لكن عندما نقلوها إلى هناك، كان وضعها الصحي سيّئًا للغاية وتعذر عليها مغادرة العربة. ثم أقلوها إلى فناء

عائلة أوبراين لأن السيد أوبراين كان أقرب طبيب وزوجته سيدة لطيفة. ثم ماتت في غضون ساعات قليلة».

«هل يعلم توم أيّ شيء عن والده؟».

«لا شيء سوى أنّه كان أستاذ مدرسة في ميزوري. لقد ردّدت والدته هذا الأمر لعائلة أوبراين كثيرًا. لكنه كان يحبّ عائلة أوبراين».

لاحظ سانت بيتر أنّ في القصص التي أخبرها توم للطّفلتين لا يشوبها غمّ وكآبة. لقد أُعجبتا روزاموند وكاثلين بطفولته المستقلة كفتى مغامر، ورغِبتا بمشاركته تفاصيلها بكل سرور. أحبّتا أن تلعبا حيث كان يلعب توم ورودي، كان رودي صديقًا رائعًا، يكبر توم بعشرة أعوام، يعلم كل شيء عن الأفاعي والفهود والصحاري والهنود. «لقد تخلّى عن عمل جيّد في صناعة الفخّار في «سانتا في»، ورحل مع توم ليعمل معه في رعي الماشية مقابل أجر بَخْس، كل هذا من أجل أن يبقى مع توم ويعتني به بعد إصابته بالتهاب رئوي»، أخبرتهم كاثلين.

«لم يكن هذا السبب الوحيد» أضافت روزاموند بنبرة تبعث على الغموض. «كان معتزًّا بنفسه. لم يرق له أن يتلقى أوامرًا وأن يعيش من دفع الشيكات. أراد أن يكون حرًّا، وأن يجلس في سرجه طوال اليوم وأن يستخدمه كوسادة في الليل. أنتِ تعلمين أن توم قال ذلك يا كاثلين».

«وعلى أيّة حال، كان نبيلًا، كان دائمًا شخصًا نبيلًا، رودي النبيل» ختمت كاثلين كلامها بهذا.

بعد اليوم الأوّل، عندما دخل إلى الحديقة وقدّم نفسه، لم يتطرّق توم أبدًا إلى قصّة حياته مرة أخرى، لا مع البروفيسور ولا مع السيدة سانت بيتر، مع أنهم كانوا يحثّونه كثيرًا للحديث عن ذلك. كان يرغب في الحديث عن مدينة نيو مكسيكو عندما يُسأل، وعن الأب دوتشين، عن الكاهن الرسول الّذي كان أستاذه، وعن الهنود؛ لكنه لم يتكلم عن نفسه بحرية وبشكل خاص سوى مع الفتاتين الصغيرتين. كان السانت بيتر مستغربًا من قدرة الفتى على تحمّل قضاء الكثير من الوقت مع الأطفال. طوال ذلك الصيف والخريف، اعتاد أن يأتي بعد الظهر وينضم إليهم في الحديقة. كان يعرّج في الشتاء ليلتين أو ثلاث ليال في الأسبوع للعب الورق أو لأخذ درس في الرقص.

كان من الواضح أن هناك شيئًا ساحرًا في جو المنزل بالنسبة لصبي اعتاد أن يعيش حياة قاسية. لقد استمتع بجمال وحيويّة ونشاط الفتاتين الصغيرتين كما لو كانتا وردتين. وربّما راق له أيضا أن يكون جذّابًا جدًّا بالنسبة لهنّ. وكان يتورّد وجه توم من البهجة ـ الذي بدا الآن أكثر وسامة بكثير عن أوّل مرة جاء فيها إلى هاملتون ـ إذا ما أمسكت كاثلين بيده وحاولت أن تضغط بشدّة، باكية: «أوه توم، أخبرنا عندما وجدتما أنت ورودي حفرة المياه جافة، وأخبرنا بعد ذلك عندما لدغَت المُجلجلة[61] هنري». كان يهمس: «حالًا يا جميلة»، وكان يتداعى إلى سمع البروفيسور بعد ذلك عبر النوافذ المفتوحة: ضحك واندهاش الفتاتين الصغيرتين في الحديقة، وذلك الصوت المتفرّد والمميّز لتوم، الصّوت الناضج، والواثق، والنادر في طبقته، لكنه من ناحية أخرى رقيق جدًّا ومُؤثّر جدًّا في تباينه. لم يكن ليتمنى أن يحظى برفيق أفضل لابنتيه، كما علّمته الفتاتين أشياء يحتاجها أكثر من الرياضيات.

والآن بعد مضي زمن طويل، جلس سانت بيتر في مكتبه وفكّر أن تلك السنوات الأولى، قبل أن يُنجز أوتلاند أيّ شيء لافِت، كانت الفترة الأفضل على الإطلاق. راق له أن يستعيد الثلاثي الرائع عندما كان يصادفهم دائمًا ـ في الأرجوحة الشبكيّة المتأرجحة بين أشجار الزيزفون، أو على مقعد النافذة، أو أمام مدفأة غرفة المعيشة. أوه، لقد كانت أوقاتًا رائعة حقًّا في هذا المنزل القديم؛ احتفالات واستضافات العائلة،

رقص الفتاتين الصغيرتين جيئة وذهابًا، قدوم أوغستا وذهابها، الملابس الزاهية المعلّقة في مكتبه مساءً، التسوّق للكريسماس والضحكات السريّة والناعمة على السلالم. عندما يكون لدى المرء أطفالًا رائعين في منزله، أطفالًا مفعمين بالحيوية والسعادة، تحرّكهم الخيالات الجميلة ويدفعهم الحماس، فلماذا لا يستطيع إبقاءهم بجواره؟ تساءل لماذا جميعهن يحذون حذو ميديا[62]؟

قبعة ذات تاج عال وحافة عريضة، يرتديها عادة رعاة البقر ومربي الماشية في الولايات المتحدة الأمريكية.

مجرفة

ماركوس دي نيزا، راهب فرنسيسكاني، مواليد 1495.

المقصود هنا عمال صيانة السكك الحديدية

من سكّان أمريكا الأصليين.

نوع من أنواع الصنوبر.

حذاء لا كعب له، مصنوع من جلد ناعم، ومرفوع النعل عند جوانب القدم وفوق أصابعها بقطعة جلدية على شكل حرف «يو».

أحد قبائل الهنود من سكان أمريكا الأصليين.

الصحراء الملوّنة أو الصحراء المرسومة: هي منطقة مرتفعة زاهية بالألوان في الولايات المتحدة الأمريكية في ولاية أريزونا.

نوع من الأفاعي له صوت كصوت الجرس.

ساحرة في الأساطير الإغريقية، تتخلى عن أهلها وتختار حبيبها الذي تساعده في بحثه عن الصوف الذهبي.

الفصل الحادي عشر

وصل سانت بيتر متأخرًا من محاضرة بعد الظهر، وبمجرد أن أضاء مصباح الكيروسين للشروع في العمل حتى تداعى إلى سمعه صوت خفيف لخطوات تصعد الدرج. وعلى الفور صدَح صوت كاثلين: «هل يمكنني أن أقاطعك قليلًا يا أبي؟»

فتح الباب ودعاها إلى الدخول.

«كاثلين، هل تذكرين عندما لسعك النحل وجلستِ هنا تحملين قارورتك؟ لم أر قطُّ في عينيّ أحد نظرة أكثر تعبيرًا من نظرتك، ولا حتى في عينيّ والدتك».

ألقتْ كاثلين قبّعتها وسترتها على كرسي الخياطة، وتجوّلت في المكان تتلمّس كمية الغبار المتراكمة على الأشياء. «خطَر لي أن تكون بحاجة لقدومي كي أنظف المنزل لك، لكن الوضع ليس سيئاً كما يقولون. هذه هي المرة الأولى التي أقصدك فيها منذ أن أصبحت هنا بمفردك. عرّجت إلى هنا قادمة من الممشى أكثر من مرّة، لكني كنت أعود أدراجي ثانية». صمتت لتدفئ يديها على الموقد الصغير. «أتعلم، أنني سخيفة؛ أشياء غريبة كهذه تجعلني كئيبة. وأنتَ ما تزال تحتفظ بمانيكانات أوغستا القديمة، لا أعتقد أنها استمتعت بأي شيء مُهِمٍّ طوال حياتها. والآن، هي حسّاسة للمغاية بخصوص وجودهم هنا. لقد أتيت من أجل أوغستا يا أبي. هل تعلم أنها فقدت بعضًا من مُدَّخراتها في شركة كينكو كوبر للنُّحاس؟».

«أوغستا؟ هل أنتِ متأكدة؟ يا للأسف!».

«نعم، كانت تخيط لي الأسبوع الفائت. ولاحظتُ أنّها حزينة، وشهيّتها للطعام تكاد تكون معدومة، وأنت تعلم أنَّ ذلك ليس من عادتها. كانت خجِلة من أن تخبر أحدًا منا، لأن الأمر سيبدو وكأنّها تطلب مشورة لِوي، أنّه هو مَن أخبرها أن تستثمر في تلك الشركة. لكن العديد من الأشخاص في كنيستها وضعوا أموالهم فيها، وبالطبع ذلك ما جعل الأمر يبدو صائبًا بالنسبة لها. لقد خسرت ثروتها، خمسمائة دولار، وسكوت يقول إنها لن تسترد أبدًا ولا فلسًا واحدًا منهم».

«خمسمائة دولار» تمتم سانت بيتر، «دعيني أرى، ثلاثة دولار في اليوم، هذا يعني مئة وستة وستين يومًا. والآن ماذا يمكننا أن نفعل حيال ذلك؟».

«بالطبع، علينا فعل شيء ما، كنتُ أعلم أنك ستفكر بالطريقة ذاتها يا والدي»

«بالتأكيد، علينا أن نتكفّل بالأمر. سأتحدث مع روزاموند الليلة».

«لا داعي يا عزيزي» هزّت رأسها، «لقد ذهبتُ إليها وجاوبت بالرفض».

«بالرفض؟ لا يمكنها الرفض يا عزيزتي. لديّ ما أقوله لها.» كان الحزم في نبرة صوته والتحوّل السريع للون بشرته الذي أصبح أحمر، أمران مُرضيان بالنسبة لابنته.

«تقول إنّ لِوي تولى على عاتقه مهمة التحدث إلى مدير مصرفه ورجال عديدين في شركة النحاس قبل أن يخبر أوغستا بما يتوجب فعله؛ وإن لم تتعلم درسها هذه المرة، فستقع في الخطأ مرة أخرى. قالت روزاموند أنّهم سيقومون بعمل شيء من أجل أوغستا لكنَّها لم تُحدّد ما هو».

«لا عليك من روزاموند، أنا سأقنعها».

«حتَّى لو تمكنت من إقناعها، لقد عزمت أن تجعل أوغستا تعترف بغبائها، وهذا لا يمكن فعله بهذا الأسلوب. أوغستا تعتزّ جدًّا بنفسها، فعندما أخبرتها أنّه يجب أن يعوّضنها زبائنها، كانت متعالية وقالت إنها ليست من ذلك النوع من الخياطات؛ فهي قدّمت لزبوناتها ملابس جميلة مقابل نقودهنَّ. فكّر سكوت أنّه يمكننا شراء أسهم في شركة جيّدة ما، ونخبرها أنّنا استخدمنا نفوذنا وحصلنا على سيولة، لكن عليها أن تبقي الأمر سرًّا. يمكننا اختلاق كذبة صغيرة كهذه، فهي لا تعرف الكثير عن أعمالنا. أعلم أنّه يمكنني الاستعانة بعائلتي دودلي وبراون ولا حاجة لعائلة مارسيلوس».

«انتظري بضعة أيام، من العار علينا كعائلة ألاّ نحلّ الأمر بأنفسنا. على روزاموند أن تتصرَّف من تلقاء نفسها، وعلينا ألّا نسمح لها بالتنصّل من الأمر. بطبيعة الحال كانت دائمًا بعيدة كل البعد عن مسؤوليات من هذا النوع. كما هل يجدر أن تدفع أوغستا ثمن أخطائها وكأنها المذنبة الوحيدة في هذا العالم المليء بالأخطاء الفادحة؟ إنّه حقًا تصرّف تافه جدًّا من روزي».

بدأت كاثلين الكلام، ثم توقفت واستدارت. «سيدفع سكوت مئة دولار» قالت بعد برهة.

«هذا كرم كبير منه. وأنا سأقوم بالمثل. ويجب أن تتكفّل روزي بالباقي. وإن لم تفعل، سأتحدّث إلى لِوي. إنه رجُلٌ كريم بكل معنى الكلمة. لم يسبق لي أن لاحظت أنّه يبخل بوقته أو بماله».

لمعت عينا كاثلين فجأة. «لماذا يا أبي تحتفظ بدثار توم المكسيكي! لم أكن أعلم أبدًا أنّه أعطاك إيّاه. لطالما تساءلت ماذا حلّ به». التقطت من قعر صندوق الأريكة دثارًا بنفسجيًّا، بمسحات أرجوانية خافتة، وتقليم أصفر باهت في نهاية طرفيه.

«أوه، نعم، كثيرًا ما كنت أصاب بالقشعريرة جرّاء البرد عندما أستلقي، خاصّة عندما أطفئ الموقد، الذي كانت والدتك تقول لي دائمًا بأن أطفئَهُ. لذلك لم أكن أنزعه عنّي.

«لم يكن ليُعطيه إلى أيّ أحد سواك. كان مثل جلده. هل تذكر كيف كان يعبق برائحة الخيل عندما جلبه أول مرة وعرضه أمامنا».

«مثل رائحة إسطبل العربات تمامًا. لقد بقيَ مربوطًا لمدة طويلة تحت سُرُج عجول متعرّقة. وحتى الآن يمكن أن تفوح رائحته في الطقس الرطب».

مسّدته كاثلين بعناية فائقة «أتعلم أن رودي جلبه من مكسيكو القديمة. أعطاه لتوم في الشتاء الذي أصيب فيه بالالتهاب الرئوي وتحتّم على توم أخذه معه إلى فرنسا. كان يقول إنّه لربّما يصادف رودي بليك في الفيلق الأجنبي. وفي حال أخذ الدّثار معه، سيكون الأمر بمثابة الأكواب الخشبية التي تكشف لكل من إيمي وإيميل[63] قوّة صداقتهما».

ابتسم سانت بيتر وربّت على يدها فوق الدّثار. «أتعلمين يا كاثلين، أفكّر أحيانًا أنّه يتحتم عليّ الذهاب بعيدًا والبحث عن بليك بنفسي. إنه يُثقل كاهلي ويُشعرني بالذنب. لو أنّ تلك البلدة القابعة هناك ليست كبيرة ـ».

«أوه يا والدي، لقد كان هذا حلمي الورديّ عندما كنت طفلة، أن أجد رودي! لطالما فكّرتُ في الأمر لساعات عندما كان من المفترض أن آخذ قيلولة. كنتُ أتخيّل نفسي أسبح في الأنهار وأتسلّق الجبا ل وأتجوّل مع النافاجو[64]، وأنقذُ رودي في أكثر اللحظات الحرِجة، عندما طُعن في الظهر، أو عندما تعاطى مخدرات في منزل للمقامرة، وأحضروه إلى توم. أتعلم أن توم حدّثنا عنه قبل أن يخبرك بوقت طويل».

«كنتم تتخيّلون أنفسكم تعيشون في قصصه يا أطفالي. وأنتِ أوليتِ اهتمامًا بهم أكثر من اهتمامك بجميع كتب المغامرات».

«وما زلت» قالت كاثلين وهي تنهض، «لدى روزاموند الآن منزل الأوتلاند، إلاّ أنني أعتبر أن ميسّة[65] توم هي مُلْكي بالكامل».

وضع سانت بيتر السيجارة التي أشعلها للتّوّ بترقّب» هل يمكن أن تبقي قليلاً يا كاثلين؟ فلا أحد أبدًا يتذكر هذا الجانب من توم. كم كانت جميلة كل تلك السنوات عندما كان يدخل إلى المنزل ويخرج وكأنه أخ أكبر. لطالما كان مختلفًا عن بقية فتيان الكليّة، أليس كذلك؟ كان لديه دائمًا شيء في صوته، وعينيه... حتى ليتراءى للمرء وكأنه التقط بعينيه على نحو خاطف شخصية مختلفة تتوارى خلف كتفي توم عندما كان يدخل الغرفة».

ابتسمت كاثلين ابتسامة خفيفة. «نعم، وهو الآن صاحب كل المواد الكيميائية والدولارات والسّينتات، أليس كذلك؟ لكن ليس بالنسبة لك ولي. إن توم الذي نعرفه أجمل بكثير من توم الذي يعرفونه». ارتدت سترتها وخرجت من غرفة المكتب مُسرعة على الدرج. بقي والدُها جاحظًا بعينيه وهي تهبط الدَّرج حتى اختفت. وبعدما غادرت، بقيَ واقفًا هناك، جامدًا، وكأنَّه يُنْصِت باهتمام، أو يحاول التقاطَ فكرة هاربة.

بطلي ملحمة شعرية زمن الفروسية التروبادورية، هما رمز للصداقة والتضحية وأصل الاسمين باللاتينية (أميكوس وأميلوس)، والأكواب الخشبية هي رمز للعهد بين الأصدقاء، كان الفرسان يتعاهدون على الدم ويشربون بالأكواب الخشبية.

إحدى القبائل الأمريكية الأصيلة في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية في أريزونا.

المائدة الصحراوية أو الميسّة: وهي هضبة صخرية وتعني في الإسبانية «الطاولة» تقع في الجنوب الغربي للولايات الأمريكية.

الفصل الثاني عشر

كان سانت بيتر يتناول إفطاره بمفرده في السادسة والنصف، ويقرأ رسائل الليلة الفائتة أثناء انتظاره تحضير القهوة في الدَّوْرَق. لم يحدث منذ وقت طويل أن كان لديه في برنامجه الجامعيّ مُحاضرة في الثامنة، لكن هذا العام أدرجَتْ لجنة تحديد الجداول بمكرٍ محاضرة واحدة. «يمكنُه أن يدفع ليستقلَّ سيَّارة أجرة تقلُّه إلى هنا» قال العميد.

صعدَ الدرج بعد الإفطار ودخل غرفة زوجته. «لديّ موعد مع إحدى السيّدات» قال مُلقيًا الظرف فوق غطائها. قرأتْ زوجته خطابًا من السيدة كرين، السيدة الأقلّ جاذبية بين كادر الكليّة، تطلب لقاء مع البروفيسور في أقرب موعد يناسبه: كما تتمنى أن تقابله بمفرده تمامًا، وتسأل إن كان بإمكانها المجيء إلى مكتبه في المنزل القديم، حيث فهمت أنّه ما زال يعمل هناك؟

«يا لك من مسكين يا غودفري» تمتمت زوجته.

«على المرء ألاّ يسخر من أمر كهذا» قال سانت بيتر أثناء دخوله إلى غرفته ليحضر منديله ثم عاد، مستأنفًا جملته المعلّقة. «أخشى أن يكون المسكين كرين على وشك إجراء عملية جراحية أخرى. أو أن الأمر ينطوي على أسوأ من هذا، وهو أن يخبرها الجراحون أنَّ الحلّ الآخر غير مُجْدٍ. إنه مثل الحفرة والبندول[66]. ينتابني شعور بأنّ الزميل المسكين مُقيّد على سرير العملية تحت رحمة مبضع الجرّاح المشحوذ كالعادة».

نظرت السيدة سانت بيتر بشكل حصيف إلى الرسالة، ثم نظرت مجدّدًا إلى زوجها. لم تقتنع أبدًا أن ذلك الجرّاح سيكون موضوع النقاش عندما يلتقون. فالسيدة كرين باتت تتصرف على نحو غريب جدًّا في الآونة الأخيرة.

تزوّج الدكتور كرين بفتاة لم يكن أيُّ رجل آخر ليفكر بملاطفتها والتقرّب منها. فتاة لطالما كان الناس يقولون عنها: «أوه، إنّها طيّبة جدًّا» لأنّها عاديّة وغير جميلة في المقام الأوّل. لديها ثلاث فتيات عاديات الجمال، ولم يكن لديهن مصدر دخل سوى راتب كرين. لقد بتنَ فقيرات جرّاء عمليات الجرّاحين والأطباء.

قبّل سانت بيتر زوجته ومضى قدُمًا غير مُدرك تمامًا لما يجول في رأس زوجته. اتّصل بالسيدة كرين أثناء فترة الصباح، ورتّب معها لقاء عند الساعة الخامسة. وبما أن الجرس لم يكن يعمل في المنزل القديم آنذاك، انتظر في الطابق السفلي، على الشرفة الأمامية ليستقبل زائرته ويقودها إلى مكتبه. كان الطقس ماطرًا على نحو رهيب، وقد جاءت السيدة كرين في معطف مطريّ، وقبّعة تريكو ريا ضيّة، تخصّ إحدى بنا تها. تنا ول منها سانت بيتر مظلّتها المبللة، وصعد بها طابقين إلى الأعلى.

«لستُ مُجهَّزًا لاستقبال السيّدات بشكل لائق سيدة كرين. لقد كانت هذه غرفة الخياطة كما تعلمين. يوجد كرسي أوغستا، وقد كانت تُصرّ أنّه كرسي مريح».

«شكراً لك» جلست السيدة كرين، نزعت قفازاتها، وطوَتْ خِصَلًا من الشعر المُبلَّل تحت قبعة الكروشيه. اعتلى وجهها الباهت والكئيب، تعبيرًا يوحي بالضيم.

«أتيتُ دون علم زوجي دكتور سانت بيتر لأسألك عمّا يمكننا فعله فيما يخصُّ حقوقنا في براءة اختراع أوتلاند. فأنت تعلم أنّ وضع زوجي الصّحيّ شلّنا اقتصاديًّا، ولا نعلم أبدًا متى تتفاقم مشكلته من جديد. شخصيًّا، لم أشكَّ أبدًا في أنّك ترى الصواب بأن تشاركنا وحدنا».

نظر إليها سانت بيتر مندهشًا. «لكن عزيزتي السيدة كرين، كيف يمكنني أن أشارككم ما هو ليس ملكي؟ لقد أوصى توم بملكيّته ومستحقّاته بطريقة قانونية ومُحكمة. في الحقيقة لقد سمّى ابنتي كمستفيد وحيد ولم يختارني أنا، كما لم يسمِّ أيَّ أحدٍ من أقربائه. أقول لك بصراحة، لم أستلم أيّ دولار من براءة اختراع أوتلاند».

«إنها الشيء ذاته بما أنها ذهبت لصالح عائلتك دكتور سانت بيتر. يجب أن تتمَّ مراعاة زوجي في هذا الأمر. لقد قضى أيامًا وليالٍ يعمل مع أوتلاند. ولم يكن توم لينجح في تطبيق نظريته دون مساعدة روبرت. لقد قال ذلك أكثر من مرة في حضوري وفي حضور آخرين».

«أوه، أنا أصدّق ذلك سيدة كرين، لكن الحرج في أنّ توم لم يكتب أي إقرار يتعلّق بمساعدة زوجك في الوصيّة».

عدّلت السيدة كرين من وضعيّة رأسها ورفعت ذقنها الطويلة بقصد الإيحاء بالوداعة. «حسنًا، هذا ما حدث بروفيسور. لقد جاء السيد مارسيلوس غريبًا إلى هنا، ليقدّم عرضًا لمصنع إديسون للطاقة، في نفس الوقت الذي كانت فيه المدينة مضطربة بسبب مقتل أوتلاند في صفوف المعركة. وكان كل شخص يرغب في فعل شيء تقديرًا للشاب.

لقد أحضرتَ السيد مارسيلوس إلى منزلنا وقدمته لنا. ثم أتى بمفرده بعد ذلك مرّات ومرّات، ونجح في التحايل على زوجي. اعتقد روبرت أنّه لم يكن مهتمًّا سوى بالجانب العلمي، وأخبره الكثير عن آليّة عمله هو وتوم. ثم جاء محامو روزاموند بالوثائق. لم يكن توم يملك مخبرًا لتجاربه الخاصة، وقد سُمح له باستخدام غرفة في المبنى الفيزيائي، بطلب من زوجي. كان يرغب في البقاء هناك، لأنه كان بحاجة دائمة لمساعدة روبرت. الشيء الأوّل الذي علمنا به، هو إعلان خطوبة ابنتك لمارسيلوس، وسمعنا بعد ذلك أن جميع وثائق أوتلاند تم تسليمها له».

وهنا قاطعها سانت بيتر مُستبقًا الكلام «لكن يا سيدة كرين، لا يستطيع زوجك الاحتفاظ بالوثائق، ولم يكن لديه الرغبة للقيام بذلك. كان لا بدّ من تسليمها للموصيّ، وهو محامي ابنتي».

«حسنًا، يمكنني أنا الاحتفاظ بهم، في حال لم يتمكن هو» رفعت السيدة كرين رأسها لتوحي بأنّ موقفها قويّ «الاحتفاظ بهم حتى تأخذ العدالة مجراها. والاعتراف بعض الشيء بدور زوجي في مجمل ذلك العمل البحثي. لو أنّه قام بتقديم تلك الأوراق إلى المحكمة حينها، لكنَّا سنحصل ببساطة على حقّنا. لكن السيد مارسيلوس متملّق جدًّا. لقد خدع روبرت وحصل على كل شيء كان هناك».

«لكنه لم يأخذ أيّ شيء من زوجك، لم يكن ثَمّة مفرّ من تسليم أوراق أوتلاند ومعدّاته إلى الوصيّ».

«إنّها خدعة بائسة» قالت السيدة كرين بتلميح مُبطّن، «أنت تعلم كم أنّ روبرت شخص ساذج، وكصديق قديم كان عليك تحذيرنا».

«من ماذا سيّدة كرين؟».

«من ماذا؟ لقد أدركَ مارسيلوس ذاك أنّ ثمّة ثروة في الغاز الذي صنعه زوجي وتلميذه، ومن حقّنا أن نطالب بإنصافنا قبل أن نمنح صهرك حرية التصرّف في كل شيء».

انتاب الحزن سانت بيتر، وبدأ يذرع الغرفة الصغيرة جيئة وذهابًا.

«وحدها السماء تعلم كم أرغب في رؤية كرين يحصل على شيء من الأرباح، لكن كيف؟ كيف؟ لقد فكّرت كثيرًا في الأمر. ولمتُ توم لكتابته الوصية على هذا النحو. لا أعتقد أنّه خطر على بال الفتى بأنه سيتمّ إثبات الوصية. كان يتوقّع أن يعود من الحرب ويعمل على

تطوير اكتشافه بنفسه. أشكّ فيما إذا كان روبرت بكل ثقافته الرفيعة، كان سيعلم الحيل والالتباسات التي يمكن من خلالها الاستفادة تجاريًّا من براءة الاختراع. لقد تطلب الأمر الكثير من العمل وبراعة من نوع خاصّ لتحقيق ذلك».

«براعة تاجر» وهنا بدَتْ السيدة كرين بغيضة في كلامها.

«إنّه كذلك؛ لكن روبرت لم يكن بالتأكيد رجلًا مقنعًا لأصحاب المصانع والميكانيكيين، وكذلك أنا. لقد استثمر فيه مارسيلوس الكثير من المال؛ قبل أن يعود عليه بأي فوائد؛ صرَفَ كل ما يملك وكل ما استطاع استدانته. استغل فرصًا جمّةً. لم نتمكن مطلقًا أنا وكرين مجتمعين من زيادة جزء في المئة من رأس المال الذي كان ضروريًّا لجعل المشروع ينطلق. فبدون رأس المال، كانت فكرة توم ستبقى مجرّد معادلة مكتوبة على الورق. ولقد بقيت قابعةً لسنتين في مخبر زوجك، وكانت ستقبع هناك أعوامًا أكثر قبل أن يكون بمقدورنا أنا أو هو القيام بأيّ شيء حيالها».

استحال وجه السيدة كرين المروّع إلى وجه أكثر إيحاءً ممّا يحتمل «يقبع هناك لأنه صُنع هناك وينتمي إلى هناك. لقد خسِر زوجي على يد مغامر، وصداقته بك ربّطت يديه. وعليّ القول إنك لم تحسن تقدير صديقك. ربّما كان عليك أن تحذرنا وألّا تدع تلك الأوراق تَفْلِت منَّا. فأنت ترى كيف تتدهور صحة روبرت كل يوم، ويخضع لتلك العمليات الرهيبة، وبناتنا يذهبن بملابس رثّة ويعملْن في باحات المدارس، بينما تركب روزا موند الليموزين وتبني منازلَ ريفيّة فخمة ـ وأنت لا تحرك ساكنًا. لقد تقلّدتَ مناصبًا ـ إنّك تستحقهم، ولا ننسى ذلك، لكنك تنسى وأنت تنتقل إلى منزلك الجديد، ماذا يعني أن تكون في ظروف تعيسة».

اقترب سانت بيتر بكرسيه من السيدة كرين، وخاطبها بصبر «سيّدة كرين، إذا كان لكِ أيّ حقوق شرعيّة في براءة الاختراع، فسأدافع عنهم ضد روزاموند وضدّ أيّ شخص آخر أيًّا يكن. أعتقد أنّ عليها تقدير صداقة الدكتور كرين الطويلة لتوم ومساعدته بأية حال. لا أرى ببساطة كيف يمكن فعل ذلك، لكن أشعر أنّه يجب أن يحدث. وإذا كنتِ تأملين أن أخبر روزاموند بما أشعر. فلماذا لا تقومين أنتِ بطرح المسألة عليها؟».

«لستُ مهتمة بأن أطلب أيّ شيء من السيدة مارسيلوس، سبق وكتبتُ لها منذ وقت مضى، وردّت على رسالتي عن طريق محاميها، قائلة بأن جميع الادّعاءات ضد براءة اختراع أوتلاند

سيتم النّظر فيها تبعًا للمجريات. لا يليق برجل في مكانة روبرت أن يقبل رشوة من عائلة مارسيلوس. نحن نريد العدالة، وأخي واثق بأنّ المحكمة ستمنحنا ذلك».

«حسنًا، أعتقد أن برايت على اطّلاع أكثر مني بإجراءات المحكمة. لكن بما أنّك قررت الذهاب إلى محام، فلماذا أتيتِ إليّ؟»

«هناك بعض الأمور لا تقع على عاتق القانون» قالت السيدة كرين بغموض أثناء نهوضها وارتدائها للقفّاز. «أريدك أن تعرف كيف نشعر حيال الأمر».

تبعها سانت بيتر إلى الطابق السفلي، وفتح لها المظلّة، ثم عاد إلى مكتبه ليفكّر في الأمر. كانت صداقته مع كرين غريبة دائمًا. كانا بعيدين عن بعضهما بشكل واضح ولا ريب فيه خارج الجامعة، لكنهما ناضلا معًا داخلها من أجل قضية مشتركة. قاوما بكل قوّتهما النزعة التجارية الجديدة، الهادفة إلى «إظهار نتائج» من شأنها أن تقوّض التعليم وتبتذله. بدا كلّ من السلطة التشريعيّة ولجنة الأعضاء عاقدين العزم على جعل الجامعة مدرسة تجارية. سُمح للمتقدّمين لنيل بكالوريوس في الآداب بالحصول على اعتمادات للدراسات التجارية؛ وكورسات الحسابات، والزراعة التجريبيّة، وعلم تدبير المنزل، وصناعة الملابس، وما إلى ذلك. كان الأعضاء يحاولون كل عام تقليل عدد الاعتمادات المطلوبة في العلوم والآداب الإنسانية. فالمخصصات التنموية، والترقيات وزيادة الرواتب عادَت جميعها إلى الأساتذة الذين عمِلوا مع لجنة الأعضاء لإلغاء الدراسات الثقافية البحتة. بعيدًا عن أعضاء الجامعة الستين، كان هناك ربّما عشرين رجُلًا ممّن وقفوا أيّما وقفة جديّة مناصرة للمنح الدراسية. وكان روبرت كرين واحدًا من المخلصين. لقد خسر منصب عمادة كلية العلوم بسبب موقفه غير المُساوم لتأثير السياسيين الفاسد في علاقات الجامعة. ومُنح الشرف، بدلًا منه، إلى شاب يافع جدًّا، وهو رئيس قسم الكيمياء، الذي كان مستعدًّا «لمنح دافعي الضرائب ما يريدون».

إنّ الانضمال من أجل الحفاظ على كرامة الجامعة وكرامتهما جمع كل من البروفيسور والدكتور كرين، وقرّبهما من بعضهما أكثر. لقد كانا، علاوة على ذلك، الرجلين الوحيدين في الكلية اللّذين يقومان بأعمال بحثية ذات طبيعة غير تجارية، واللّذين يزوران بعضهما بين الفينة والأخرى ليتبادلا الأفكار. لكن ذلك كان في الأيام الخوالي. فسانت بيتر لا يستطيع دعوة كرين على العشاء؛ لأنّ وجود زجاجة كلاريت[67] على المائدة قد يزعجه. تشرّب كرين

جميع الأحكام المتعصّبة للمجتمع المعمداني[68] حيث ترعرع، وقد حمل هذه الأحكام معه عندما ذهب للدراسة في جامعة ألمانية، وعاد بهم. لكنه كان يعلم أن لا أحد من زملائِه اتّبع نهجه في العمل، وابتهج من قلبه لانتصاراته الصغيرة مثل سانت بيتر.

لا يمكن لسانت بيتر سوى أن يبدي إعجابه بشجاعة الرجل؛ المسكين، والمريض، والمُرهَق، وصاحب الضمير في سخائِه لواجباته كمدرّس، الذي كان يقوم طيلة الوقت بهذه التجارب الشّاقة والحسّاسة المتعلّقة بتحديد مدى الفراغ. لحسن الحظ، بدا كرين متحرّرًا من أي احتياجات أو دوافع اجتماعية. فهو لم يكن يذهب مطلقًا إلى أيّ مكان باستثناء، ذهابه إلى منزل رئيس الجامعة مرة أو مرتين على مدار العام لحضور تلبية لدعوة عشاء. فالموسيقى تزعجه كثيرًا، والرقص يصيبه بالذعر- لا يمكنه أن يفهم لماذا كان يسمح به بين الطلاب. وفي أحد المرات بعد أن جلست السيدة سانت بيتر بجانبه إلى مائدة عشاء رئيس الجامعة، قالت لزوجها: «الرجل كئيب جدا! ظلّ طوال السهرة ينكز بسبابته، ملابسه التحتية السميكة المتدلية، محاولاً إدخالها من أسفل ثنية ساق بنطاله. أنا واثقة أنّه يفكّر كم هو مؤذٍ العيش مع امرأة متذمرة إلى هذه الدرجة مثل السيدة كرين».

بعد أن تخرّج توم أوتلاند من الجامعة، عمل جنبًا إلى جنب مع الدكتور كرين في المبنى الفيزيائيّ لسنوات عديدة. وبلا شكّ، كان الرجل الأكبر خير مساعد للشاب. على الرّغم أنّ هذا النوع من المساعدة، الذي هو نتيجة الانتقاد والمشورة، ليس من السّهل حسابه بالنّسب المئوية، إلاّ أن سانت بيتر ظلّ مُقتنعًا بوجوب حصول كرين على شيء من أرباح براءة الاختراع. عقَدَ العزم أن يرى لِوي ليتباحث معه في الأمر، لكنه فضّل أولًا الحديث مع كرين نفسه، محاولًا منعه من الذهاب إلى محام. فالضّجّة الإعلامية التي ستحدِثها براءة أوتلاند ستسلّط الأضواء على شقيق زوجته برايت، وهو أمر مغرٍ بالنسبة له لكنه سيخسر القضية، ولن يحصل كرين على أيّ شيء، في حين إذا قام بالتواصل مع لِوي بشكل صحيح فسيكون كريمًا معه.

نظر سانت بيتر إلى ساعته. عليه الذهاب الآن إلى المنزل، وبعد العشاء، سيمضي باتجاه المبنى الفيزيائي، حيث يعمل زميله كلّ ليلة. لم يكن يذهب مطلقًا إلى منزل كرين إلّا إذا كان مضطرًّا. فقد كان يعيش في بؤس وكآبة لا داعي لهما على الإطلاق.

قصة للكاتب الأمريكي إدغار ألان بو عن الخوف والعذاب الجسدي والنفسي.

نوع من النبيذ.
أكبر طائفة بروتستانية مسيحية في الولايات المتحدة، كان أغلب المعمدانيون يمتنعون فيما مضى عن ارتياد الحفلات وشرب الكحول.

الفصل الثالث عشر

لم تسأله ليليان على العشاء أيّ شيء بشأن لقائه مع السيدة كرين، وهو لم يُبادر بإخبارها أيّ معلومات. ومع ذلك، لم يكن مفاجئًا لها قوله إنه لن يتمهل ليدخن سيجارة، لأنه متجه إلى المخبر الفيزيائي.

مضى من خلال المتنزّه، عابرًا المنزل القديم من الجهة الشمالية للحرم الجامعي باتجاه ذلك المبنى الذي ينتصب بمفرده وسط بستان من أشجار الصنوبر. لقد شُيّد من الطوب الأحمر، على الطراز الإنكليزي. كان لدى المهندس المعماري فكرة جيّدة، وقد نجح تقريبًا في بناء شيء جيّد، يشبه مبنى سميثسونيان[69] القديم في واشنطن. لكن بعد البدء بعمليات البناء، خذلته اللجنة التشريعيّة بغبن المقاول وإمداده بمواد رخيصة للتنفيذ، مما أفسد كل شيء، في الداخل والخارج. ومنذ الانتهاء من بنائه، لا يبرحه السمكريون والبنّاؤون والنجارون الذين يبقون مشغولين بترميمه وتصليحه. كان كل من كرين وسانت بيتر شابّين آنذاك، وقد قضيا أسابيعًا مع المقاولين، وفي نهاية الأمر وقفا أمام اللجنة التشريعية ليحتجا شخصيًّا على سلامة ذلك المبنى. لكن جهودهما لم تثمر عن شيء. ولم تكن سوى أحد القضايا العديدة الخاسرة.

دخل سانت بيتر المبنى وصعد للأعلى إلى غرفة صغيرة في نهاية سلسلة المختبرات. بعد أن نقَرَ الباب، سمع دعسة مألوفة لخفيّ كرين على السجادة، ثم فُتح الباب.

كان كرين يرتدي معطفًا قطنيًّا رماديَّ اللون، منكمش إلى خرقة جرّاء الغسيل، على الرّغم أنّه لم يكن يعمل الليلة بالسوائل أو البطاريات، لكنّ المكتب المتحرّك القابل للطيّ الممتلئ بالأوراق. كانت الغرفة بمجملها أشبه بمكتب في قاعة محاضرات؛ كتب وملفات مُغبرة، لكن دون مُعدّات ـ باستثناء المصباح الكحولي، وقدر صغير يستخدمه الفيزيائي لتسخين الماء من أجل تحضير الكاكاو في فترات الاستراحة النّظاميّة. كان يعمل على وهج مصباحٍ كهربائيٍّ مكشوف ذو استطاعة عالية ـ بدا الرجل أنّه لم يذق طعمًا للراحة. طلب من زائِرِه الجلوس، واستأذنه للحظة بينما ينسخ بعض التدوينات في المفكرة.

راقبه سانت بيتر كيف يكتب بسرعة بقلمه السائل. اليدان اللّتان كانتا ماهرتين في الإنجاز البارع تبدوان ناعمتين وفاتحتين؛ الأصابع طويلة ومتدليّة برخاوة، مبقَّعة بالمواد الكيميائية، وجامدة في نهايتها مثل أصابع عازف كمان. رأسه مربّع الشّكل والجزء الأسفل من وجهه مغطًى بلحية ملبَّدة ضاربة إلى اللّون الأحمر. كان لعينيه الشّاحبتين وحاجبيه الباهتين وقعٌ وتأثيرٌ أكثر من فمه اللّافتِ للنّظر مقارنة بباقي ملامحه. فالمرء يتذكر في كرين دائمًا فمه الأحمر النادر والمُدهش في وسط لحية مفتولة. لم يكن شكل شفاهه طبيعيًّا كباقي الأشخاص، كانتا ثخينتان عند الزوايا والوسط، والكلام يندفع من خلالها بدل أن يصدر منهما، وكان يخجل منهما بشدة.

رأى سانت بيتر أنّه لا فائدة من المراوغة. فحالما وضع كرين قلمه، أخبره أنّه التقى بزوجته السيدة كرين عصر هذا اليوم. احمرّ وجه زميله، حمل قطّاعة ورق سيلوليد كبيرة، وبدأ يغلق ويفتح يديه حول النَّصل.

«أريد أن أعرف بالضَّبط ما هي رؤيتك للأمر وما هي الحقيقة» بدأ سانت بيتر كلامه. «لم يسبق أن تناقشنا في هذا، وربّما هناك أمور لا أعلم شيئًا عنها. هل سبق لتوم أن قال لك إنّه يريدك أن تشاركه أرباحه، إن حقق أرباحًا؟».

«لا، لم يقُل هذا الكلام حرفيًّا، لم يتكلّم على هذا النحو» هزّ الدكتور كرين كتفيه في معطفه الخفيف وبدا مرتبكًا وحزينًا. «قال أكثر من مرّة، بشكل عام، إنّه يأمل بأن يعود على كلينا بالفائدة، وأنّنا سنستخدم ما نجنيه من الأرباح للقيام بمزيد من التجارب».

«هل تحدّث أكثر عن القيمة التجارية المحتملة للغاز أثناء محاولة تصنيعه؟».

«لا، ليس كثيرًا. قلّما تحدّث في الأمر. ربّما ليس أكثر من ست مرّات خلال السنوات الثلاث التي كان يعمل بها في مختبري. لكن كلّما فعل، كان يتحدث كما لو أنَّ الأرباح لنا نحن الاثنان في حال حقّق غازنا أرباحًا».

«وإلى أيِّ درجة كان بالفعل «غازنا» يا كرين؟»

«بالمعنى الدقيق، بالطبع، لم يكن غازنا. الفكرة فكرة أوتلاند، وقد استفاد من ملاحظاتي، وساعدتهُ كثيرًا في تجاربه. لم يكن لديه مهارة فنيَّة للقيام بالتَّجارب في المختبر. كان سيفشل مرارًا وتكرارًا حتى في تطبيق تجربة بسيطة بسبب تهوّره وعدم إتقانه».

«هل تعتقد أنّه كان سيتوصل إلى نتائجه دون مساعدتك؟».

كان كراين مثبّتًا قطّاعة الورق بكلتا يديه. «لا أستطيع قول هذا. كان قليل الصبر، ولربّما كان سيُصاب بالإحباط ويلتفت إلى شيء آخر أيضا. وعلى كل حال، ربّما سيكون أبطأ بكثير في حصوله على نتائج. كانت نظريته صحيحة، لكنه كان بحاجة ماسة إلى المعالجة الدقيقة، وهو مُستكشف مُهمل».

شعَرَ سانت بيتر أنّ كلامه ليس لائقًا وكأنه استجواب، وحاول تغيير نبرته.

«أريد أن أراك تحصل على تقدير وتعويض لكل جزء قدّمته في اختباراته، إذا كان ثمة طريقة لذلك. لكن لطالما كنتَ مهملًا يا كرين. لم تقم بالخطوات الصحيحة. بحق السماء، لماذا لم تتوصّل إلى تفاهم مع توم عندما كان يحصل على براءة اختراعه؟ لقد كنت تعلم كل شيء عن الأمر».

«لم يخطر على بالي حينها. حالما انتهينا من التجارب، أخرجتُ كل شيء من رأسي. كنت أحاول التركيز على عملي الخاص. لم أتوقّع أن يكون ما توصّل إليه من نتائج مفيد من الناحية العلميَّة».

«هل حصل وصنّعت الغاز، أو قدّمت أي دراسة غيرّت مجرى الأمور خلال العامين اللَّذين أمضاهما توم هنا مع مخطوطاته ومعادلاته؟».

«لا، بالطبع لا. إنه بعيد عن نهجي، ولم يثِر اهتمامي أبدًا».

«إذن، لم يثِر اهتمامك إلاّ عندما بدأت براءة الاختراع في درّ المال؟».

هزّ الدكتور كرين كتفيه «نعم، إنّه المال».

«وحدها السماء تعلم كم أرغب في رؤيتك تحصل على شيء منه. لكن لماذا أجّلتَ مطالبتك بالمال لوقت طويل؟ لماذا لم تطالب بحقّك عندما سلّمت الأوراق إلى وصيّه، بما أنك لم تفعل من قبل؟ ولماذا لم تفتح الموضوع معي قبل ذلك، وجعلتني أطالب بحقك من الملكية؟».

لم يحتمل الدكتور كرين أن يبقى جالسًا على كرسيه، بدأ يمشي بهدوء بخفّيه، شاردًا، لكن، أثناء حديثه، كان يلتقط الأشياء المبعثرة هنا وهناك- أدوات الرسم، كوب الكاكاو، إبريق القشدة الصيني، يقلّبهم بعناية ويعيدهم مرة أخرى، تمامًا كما اعتاد أن يتعامل مع قطع معدّاته أغلب الأحيان عندما يكون في المحاضرة.

«أعلم أن الأدلة ضدي، لكن عليك أن تتفهّم إهمالي. فأنت تعلم ضآلة الفرص التي على المرء تقصّيها في مساره البحثي هنا. وتعلم كم من الوقت منحت طلابي الذين يبذلون جهدًا حقيقيًّا في أعمالهم. بالطّبع كان أوتلاند أذكى طالب قابلته على الإطلاق، وقد منحته وقتًا وأفكارًا دون أن أبخل عليه. وبكل سرور طبعًا. لو أنّه جنى ثمار اختراعه بنفسه، لما كنت تفوّهت بكلمة ـ مع أني لا أملك أدنى شك بأنه كان سيعوضني بسخاء. لكن لا يبدو منطقيًا أن يأتي غريب ويحصل على الأرباح بدل أن تذهب لمن ساعده. وأنت ـ بالطبع، حصلت على بعض الأرباح ـ بشكل غير مباشر، إن لم يكن على نحو مباشر. لا يمكنك إغماض عينيك عن حقيقة أنَّ هذا الأموال القادمة إلى عائلتك، زادت من رصيدك وعزّزت أمانك الاقتصادي عمومًا. وهذا ما ينبغي أن يحصل. لكن مطلبك ليس مطلبًا محقًّا مثل مطلبي. لقد أهدرتُ وقتًا وبذلتُ جهدًا إضافيًّا فوق طاقتي في سلسلة من التجارب الّتي أفضت إلى هذه النتيجة. وقد ذهبت الأرباح لمارسيلوس الذي استفاد من عملي وعمل أوتلاند. لقد تعرضت للاستغلال بشكل واضح، وكما قلتَ من الصعب الحصول على تعويض عندما أطالب به متأخرًا. بالتأكيد إنّ الأمر لا يمسُّ مصداقيّتي، إنَّني لم أتّخذ إجراءات لحماية حصصي. فأنا لم أهتمّ بعمل تلميذي من أجل المال. هناك آخرون قاموا بذلك، وأنا لم أفكّر في الأمر». ختم بمرارة.

«لماذا لم تطالب بحقّك من مارسيلوس مقابل وقتك ومشورتك كخبير؟ أعتقد أنّه سيرحّب. إنّه مُقدَّم على السَّكن هنا. فهو على الأغلب لا يرغب بأن يكون منبوذًا على أنّه حديث النعمة، في وسط مليء بأصدقائك. أعتقد يمكنني إقناعه أنَّ تجاهل أيَّ مطالب منطقيّة هو تصرّف أحمق».

«فكّرتُ في هذا، لكن شقيق زوجتي نصحني بمسار مختلف».

«أوه، نعم. لقد قالت السيدة كرين شيئًا من هذا القبيل. حسنًا يا كرين، في حال كنتَ ستقصد محامي من أجل هذا الأمر، آمل أن تستشير محامٍ موثوق، فأنت وأنا، نعلم أن هومر برايت ليس كذلك».

تلوّن الدكتور كرين ولُجم. «أنا متأكّد أنّك لستَ مهتمًّا يا سانت بيتر، لكن، وبلا ريب، أعتقد أن محاكمتك العقليّة قد حادت عن مسارها تبعًا لمجريات الأحداث. أنت لا تدرك

مدى وضوح الأمر لأيّ شخص غير منحاز. مع أني لستُ ذاك الرجل العملي، إلاّ أنني أملك دليلًا يثبت صحّة ادّعاءاتي».

«وهل ترى أنّه من الأفضل الاعتماد على ثرثار مثل برايت. أرغب في رؤيتك تكسب قضيتك في حال لجأت إلى القانون».

قال سانت بيتر ليلة سعيدة، ونزل الدرج إلى الأسفل، وخرج في الظلام بين أشجار الصنوبر. قال كرين لديه دليل؛ ربّما يقصد رسائل توم التي كتبها له في الشتاء الذي كان يعمل فيه في جامعة جون هوبكنز.

حسنًا، ما من شيء يمكن فعله، إلاّ إن تمكن من الوصول إلى الدكتور هوتشينز العجوز لإقناع كرين بتوكيل محام حاذق. قد تؤثّر بلاغة هومر برايت الكلامية على هيئة المحلّفين في قضيّة سلب أو قضية تعدّد زوجات، لكنها قد تستفزُّ القاضي في محكمة إنصاف[70].

انعطف الدكتور إلى داخل المنتزه قبل ذهابه إلى المنزل. لقد أحبطه اللقاء، وكان خائفًا من أن يصاب بالأرق. لم يسبق أن رأى زميله من قبل أعمى البصيرة. كان كرين ضيّق الأفق، لكنه رجل مستقيم؛ رجلٌ يمكن الاعتماد عليه في اللعبة الماكرة لسياسات الكليَّة. لم يتصرَّف من منطلق تحقيق منفعة شخصية. مما دفع سانت بيتر ليقول أنّ هذا النجاح الشعبي لفكرة أوتلاند لم يعنِ شيئًا لكرين أكثر من كونه منحه شعورًا بالفخر كمدرّس وكصديق.

كان المنتزه مُقفرًا، وأضواء الأقواس مطفأةً. والأشجار العارية تنتصب جامدة تمامًا في ضوء النجوم الصافية. بدا العالم حزينًا لسانت بيتر عندما نظر حوله؛ ضفاف بحيرة البلدة مستوية وعميقة، وهاملتون صغيرة، وضيّقة، وخانقة. بدت الجامعة، منزله الجديد، منزله القديم، وكل شيء حوله لا يُطاق كما يبدو حال المركب الذي احتجز فيه، بالنسبة لرجل مصاب بدوّار البحر. نعم، كان من المحتمل أن يصبح ذلك العالم الصّغير، في رحلته بين جميع الكواكب، مثل مركب لا يمكن للمرء الإبحار فيه، كما لا يستطيع منه أن يطمح لشيء أو أن يكون في مواجهة تلك الحلقات الساطعة أو دورانها.

عاد أدراجه مضطربًا. أوه، نعم يا كرين؛ تلك كانت المشكلة، لو كان أوتلاند بيننا الليلة، لربما قال مع مارك أنتوني، لقد أفسدت ثروتي الرّجال الشّرفاء.

مؤسسة تعليمية وبحثية مع مجموعة متاحف تقع في مدينة واشنطن.

محاكم خاصة بحقوق الملكية.

الفصل الرابع عشر

مع نهاية الفصل الدّراسي، ذهب سانت بيتر إلى شيكاغو برفقة روزاموند لمساعدتها في شراء بعض الحاجيات لمنزلها الريفيّ. كان بحاجة ماسة للبقاء في المنزل والراحة ـ لأن العمل الجامعي أنهكه في ذاك الشتاء إلى حد كبير أكثر من المعتاد؛ لكن روزاموند أصرّت على ذهابه معها، كما قالت زوجته إنَّ الرفض ممنوع. يجلب تجار شيكاغو الكثير من الأثاث الإسباني العريق، ومن هذه الناحية، لن يقيّم أحد جودتها أفضل من سانت بيتر. وتبعًا لذلك، افترضوا أنّه يعرف الكثير عن السجّاد أيضا. عندما كانت زوجته تقول أمرًا مُهِمًّا يجب القيام به من العادات الثابتة، كان سانت بيتر يطيعها أغلب الأحيان. كانت فطرتها الطبيعية أفضل منه بما يتعلّق بواجبات المرء تجاه الآخرين.

رافقهم لِوي إلى شيكاغو حيث كان سينضم لأخيه الذي كان يعمل في تجارة الحرير في الصين، ويذهب معه إلى نيويورك لِيَلْتَمَّ شمل العائلة. كان سانت بيتر مُستمتعًا وسعيدًا أنَّ لِوي أراد حقًّا البقاء معهم ـ فهو لو تشجّع قليلًا لكان أرسل أخيه بمفرده وبقي هو في شيكاغو برفقة زوجته وحميه. تناولوا الغداء جميعًا، اصطحب البروفيسور بعد ذلك الأخوين مارسيلوس مع روزاموند إلى محطة لاسال ستريت. عند ما ودّعهم لوي مرسلاً قبلات الوداع بيده مرارًا وتكرارًا من رصيف المحطة خلف عربة مُراقبة تومينتِيَث سِنشري[71]، واندفع بعيدًا وهو يصيح مُودّعًا زوجته، إلاّ أنّ سانت بيتر الذي لطالما اشتكى من وجود لوي الكثيف في حياته، شعَرَ حينها بهبوط مفاجئ، إحساسٍ واضح بالخسارة. أمسك ذراع روزاموند وابتعدا عن حاجز المحطة الفضيّ.

« علينا أن نجتهد في مهمتنا يا روزي، فهو يتوقّع منّا نتائج مذهلة».

***

صعَد سكوت ماكغريغور قطار «بلو بيرد»، عائدًا من رحلة عمل كلّفته بها الجريدة. وبدخوله إلى عربة المدخّنين، صادف حميّه مُستلقيًا على كرسيّ جلديّ، ثيابه مغبرة، عيناه مغمضتان، وسيجاره الخامد مُثبّتٌ بين الأصابع المرتخية في كفّه العضلية المُكمَدة. بادَرَ سكوت بالحديث لأنّه شعَر أن البروفيسور ليس على ما يرام.

«مرحبا بروفيسور، ماذا تفعل هنا؟ أوه، نعم، تذكّرت رحلة التسوّق. أين روزاموند؟».

«في شيكاغو، في البلاكستون».

«لقد صمدَت أكثر منك، أليس كذلك؟».

«إنه كذلك» قال البروفيسور بابتسامة اعتذار، كما لو كان خجلًا من الاعتراف بذلك.

جلس سكوت إلى جانبه مُحاولًا إثارة اهتمامه في موضوع تلو الآخر، دون أن ينجح. ما حدث أنّه لم يسبق له أن رأى البروفيسور هامدًا وفاتر الهمّة على هذا النحو. كان ذلك مؤشّرًا سيئًا؛ إلاّ أن سكوت كان سعيدًا لأنهم على بعد ساعة ونصف فقط من هاملتون. «الرجُل المُسّن يحتاج للراحة»، قال مفكّرًا، « لقد أنهكته روزاموند في شيكاغو، ما كان يجدر بهم معاملته كمرافق للسيّاح على أيّة حال! سأخبر كاثلين أنّه علينا الاعتناء قليلًا بوالدها. عائلة مارسيلوس بلا رحمة، وليليان تستخفُّ دائمًا بالأمر وكأنَّ زوجها بقوة ثلاثة رجال».

في ذلك المساء، وقفت السيدة سانت بيتر بمحاذاة النّوافذ الفرنسية في غرفة ملابسها، تترقّب بشيء من القلق وصول زوجها. كان قطار شيكاغو دقيقًا في موعده أغلب الأحيان، وبالتأكيد سيستقلُّ سيارة من المحطة نظرًا لبرودة تلك الليلة من ليالي فبراير وهبوب الرياح المتجمّدة فوق البحيرة. ومع ذلك، وصل سانت بيتر سيرًا على قدميه. وحالما دخل من البوّابة، أدركت من مشيته ووضعية كتفيه أنّه متعب للغاية. أسرعت لفتح الباب الأمامي، وسألته لماذا لم يطلب سيارة أجرة.

«ألا تعرفين حقًّا لماذا؟ أنا شخصٌ روتينيّ وهذه ليست من عاداتي».

«وأنت مرتدٍ أخفّ معطف، أظنُّ أنَّك ارتديت هذا لأنَّك ببساطة كنت عازمًا على شراء معطف فروٍ جديد من شيكاغو».

«حسنًا، لم أفعل» قال بعد برهة. «دعينا نحذف فعل 'نشتري' بجميع أشكاله لبعض الوقت. ألن تحضري لي العشاء يا ليليان؟ أريد أن آخذ حمامًا دافئًا، وأرتدي ملابسي، لقد تعرضت لبردٍ قارسٍ وأنا قادم»

مضَتْ السيدة سانت بيتر إلى المطبخ، وبعد فترة فاصلة سادها السُّكون، تبعتْ زوجها إلى الأعلى إلى غرفة نومه.

«أعلم أنّك مُتعب، لكن أخبرني شيئًا واحدًا: هل وجدتم غرفة نوم إسبانية مطليّة؟».

«أوه، نعم عزيزتي، وجدنا العديد منهم».

«وهل كانوا جميلي المظهر؟».

«جدًّا. على الأقل، كنتُ أعتقد أنني سأجدهم كذلك في حال ركزنا عليهم لوحدهم، ولم نشتّت انتباهنا في البحث عن أشياء كثيرة أخرى. إنَّ الإفراط في أيِّ شيء أسوأ بالتأكيد من الحرص الزائد. يغدو الأمر وكأنَّه مجرّد عِناد على الاقتناء».

«هل فقدَت روزاموند صوابها؟».

«أوه، لا. إنّها هادئة جدًّا. ويجدر بي القول إنّها تملك باعًا جيّدًا في الشراء. وتساءلَت كيف لفتاة ترعرعت في ذلك المنزل القديم أن تمتلك خصلة كهذه. كانت مثل نابليون في نهبه للقصور الإيطالية».

«لا تكن فظًّا. لقد قضيتَ إجازة قصيرة وجميلة على أيّة حال».

«إجازةٌ باهظة جدًّا لبروفيسور فقير، والقليل من الرَّاحة».

بدا وجه السيدة سانت بيتر بمظهر قلق على نحو حادٍ «هل تعني»، وتنفّست بصوت مكبوت، «أنَّها سمَحت لك أن—».

قاطعها بحدّة» أعني أنّي دفعت ثمن أشيائِي، كما أتمنّى دائمًا أن أكون قادرًا على القيام بذلك. أي اقتراح عكس هذا قد يكون لبِقًا من الطرف الآخر، لكنه سيُقابل بالرفض من جانبي. أنا مُستعد لأسمح لنفسي ببعض الإسراف خدمة لنساء عائلتي. وأيّ إجراء آخر سيكون مُهينًا».

«إذن ولهذا لم تشترِ معطف الفرو؟».

«يمكن أن يكون هذا أحد الأسباب. لم أكن في مزاج يسمح بهذا».

نزلت السيدة سانت بيتر بسرعة إلى الأسفل لتُعدّ له الكوكتيل. شعرَت بحزن غير مألوف لديه، وشعرت بمرارة لاذعة في نبرة كلامه إذا جاز القول. كانت تعلم أنّ الرجل قد يُجرح من ابنته على نحو مختلف، جرحٌ قاسٍ من لحمه ودمه. انفطرَ قلبها حزنًا على غودفري.

عندما نال البروفيسور قسطًا من الدفء والراحة بعد تناوله عشاء لذيذًا، أشعل سيجارة وجلس أمام الموقد ليقرأ. وبعد برهة لاحظت زوجته أن الكتاب انزلق إلى ركبته وهو شاردٌ

في النار. تمعنت بهيئته المعتمة، لاحظت أن زاويتي حاجبيه مرتفعين بمرح، كما لو أن شيئًا يُسلّيه.

«بماذا تفكّر يا غودفري؟» قالت على الفور. «لقد كنت تبتسم للتوّـ ومُنسجمًا إلى حد كبير».

«كنتُ أفكّر» ردّ بفظاظة. «أفكّر بيوريبيدس[72]، كيف مضى، عندما أصبح عجوزًا، ليعيش في كهف بمحاذاة البحر، وقد كانت فكرة غريبة في ذلك الوقت. يبدو أنَّ المنازل لم تعُد تطاق بالنسبة إليه. أتساءل إن كان ذلك لأنه أمضى حياته على مقربة من النساء».

اسم عربات للمراقبة في القطار كانت موجودة في القرن الماضي.:Twentieth Century

يوريبيدس: روائي ومسرحي يوناني، عاش قبل الميلاد.

الفصل الخامس عشر

كان مارس الشّهر الأكثر كآبة وبرودة طيلة العام في هاملتون، وقد جاهد لِوي ليجعله ممتعًا بفتح حديث عن خطط الصَّيف. لمّح عدّة مرّات بأن لديه خطّة عن مشروع سرّي ومدهشٍ للغاية، وعلى الرَّغم من أنّه لم ينجح في إبقاء الأمر سرًّا عن السيدة سانت بيتر، فإنَّه لم يخبر البروفيسور بشيء حتى تلك الليلة عندما كانوا يتناولون العشاء في منزل عائلة مارسيلوس. ظلّ مارسيلوس طيلة العشاء يحدّثهم عن المطاعم الفرنسية وخصوصية هذا المطعم وذاك، كي لا يكون للبروفيسور عذرًا في التهرب من الرحلة معهم.

حالما غادروا غرفة العشاء، اندفع لِوي في التحضير للأمر. فقد عزم هو وروزاموند على اصطحاب الدكتور والسيدة سانت بيتر إلى فرنسا لقضاء إجازة الصيف. حدّد المواعيد، والمركب، ويوميات الرحلة؛ كان مبتهجًا جدًّا بالتخطيط للرحلة.

«أتعلمون» قال «ستكون رحلتنا من وإلى هاملتون في أكثر القطارات الفسيحة راحة، لكن ليس في أفخمها. سنترجّل في بياريتز[73] لنستمتع قليلًا بمظاهر الحياة الأنيقة، ثم سنتوقف في مارسيليا لنلتقي بصديق طفولتك، تشارلز ثيريولت، وباقي الصيف سنعيش حياة ثقافية في باريس. أتمنى أن تمضي معنا لأسباب بعينها. بالتأكيد ستكون رفقتك ممتعة جدًّا، لكن لديّ أيضا أسباب أخرى. أريد أن أتعرف على الجانب الثقافي لباريس، وأقابل بعض العلماء ورجال الأدب الذين تعرفهم. من المؤسف أنّ غاستون باريس[74] ليس على قيد الحياة. كان بالإمكان إقامة سهرة لطيفة جدًّا على شرفه في مطعم اللابيروز. ومع ذلك ثمّة شخصيات أخرى سواه».

توسّعت السيدة سانت بيتر في الطرح قائلة: «نعم يا لِوي، يمكنك أنت وغودفري تناول الغداء مع العلماء، في الوقت الذي نتسوّق فيه أنا وروزاموند».

تنبّه مارسيلوس: «ليس كذلك على الإطلاق عزيزتي. أعني أنّني سأتسوق معك طيلة الوقت. أنا مغرم بالتسوّق في باريس. إلى جانب ذلك، نرغب ببقائك معنا عندما نتناول الغداء مع الشخصيات البارزة. وهل ثَمَّة رجل فرنسي أو عالِم لا يكون متحمّسًا لرفقة سيّدتين جميلتين على الإفطار؟ وربّما لديك الكثير من الأصدقاء المتزوجين حديثًا؛ وكم جميل أن يكون

لديك مجموعة متنوعة. كل ما عليكِ هو الالتزام قليلا بالمواعيد المسجّلة لديّنا أنا والبروفيسور: يوم الإثنين على الفطور، السيد إميل فاغيت[75]. يوم الأربعاء على العشاء السيد أناتول فرانس[76]، وهلمّ جرّا».

ضحكت سانت بيتر بخفوت «أخشى أنّك تبالغ في محيط دائرتي الاجتماعية يا لِوي، فأنا لم أحظَ حتى بشرف التّعرّف على السيد أناتول فرانس».

«لا مشكلة، يمكننا أن نلتقي بالسيد بول بورغيت[77] في يوم الأربعاء».

«يمكن أن تساعدنا أيضا في العثور على أشياء للمنزل يا أبي» قالت روزاموند.

«نتوقع أن نعثر على عدّة أشياء جميلة. لا بدّ أن عائلة ثيريولت على دراية بمحلات جيدة في الجنوب، حيث تكون الأسعار مناسبة».

«أخشى أن تكون محلات التحف الأثرية موجودة في باريس، لم أشاهد من قبل شيء لافتًا للنّظر من هذا القبيل في ليون أو في الجنوب الفرنسي. ومع ذلك، يجب أن يكون ثَمَّة محلات».

« ما زال تشارلز ثيريولت يعمل في شحن البضائع في السفن التي تعبر مدينة مكسيكو وصولًا إلينا. يمكن تمريرهم دون ضريبة، ولِوي يفكر أنّه بإمكانه الحصول عليهم عبر الحدود مثل البضائع المنزلية».

«أظن هذا ممكنًا يا روزي. يمكن تدبير الأمر».

ضحك مارسيلوس وربّت على يد زوجته، « أوه، عزيزي أبي، أنت لم تدرك بعد إلى أيّ درجة يمكن أن نكون عمليين».

«حسنًا يا لِوي، إنها فكرة جذّابة. وسأفكر فيها. سأرى إن كان بإمكاني تنظيم أمور عملي».

أدرك سانت بيتر في تلك اللحظة أنّه لن يكون أبدًا ضمن هذه الرحلة الاستكشافية المسلّية، وبَغَض نفسه لشعوره بحالة انقباض سيئة في منطقة الحجاب الحاجز.

ناقشت العائلة خططهم الصيفيّة طيلة السهرة، أراد لوي أن يحجز غرفًا على الفور في مارسيليا لكن السيدة سانت بيتر اعترضَتْ لأنه خيار باهظ.

في تلك الليلة، بعد أن اندسّ في فراشه، حاول سانت بيتر أن يبرر لنفسه رفضه القاطع. إنه يحبّ باريس ويحبّ لِوي. لكن المرء لا يمكنه القيام بما يحب على أهواء الآخرين؛

والحقيقة هي أن يكون المرء أنانيًّا أو غير أنانيّ. إلى جانب ذلك، لن يكون أحد بحاجته. يمكن أن يعتمد على لوي في الاهتمام بليليان، وليس بمقدور أحد أن يسعدها مثل صهرها. على ما يبدو أنّ العناية الإلهية ترسل الصّهر ليحل مكان الزوج عندما ينتهي الحب بين الزوجين.

لم يفوّت مارسيلوس إبداء أيّ من مئات المجاملات الساذجة الصغيرة التي تحبّها ليليان. وفوق كلّ هذا، كان معجبًا بتبذيرها، وتميّزها الراقي جدًّا. أعجِبَ بها أناسٌ كثيرون، لكن لِوي أشدّهم. تلك الخبرة الحياتية، وذلك الاستعداد لمعظم المناسبات والأشخاص، الذي تجلّى لدى ليليان بكثرة في السنوات القليلة الماضية، بدا أمرًا طبيعيًّا ومناسبًا للوي بقدر ما بدا غير طبيعيّ إلى غودفري. تحلّت ليليان دائمًا بهذه الخصلة، وبما أنّ الأمر تجلّى فقط في مدى إلمامها بالتفاصيل، ولم يكن وسيلة لغاية ما، فقد راق أيضا لسانت بيتر. فهو يعلم أنّه وبسبب خبرتها الحياتية، أكثر من كون الأمر عائد لامتلاكها القليل من المال، لم تكن هي أو بناته يظهرنَ مطلقًا بشكل رتيب أو حتى بمظهر مثير للشفقة، كحال بعض النسوة في الكلية. لم يملكن الكثير من المال، لكن لم يكنّ سخيفات أبدًا. لم يقمنَ بأي تنازلات مُشينة، ففي حال لم يتمكنّ من الحصول على الشيء المناسب، يتخلين عنه. لكن في أغلب الأحيان يحصلن على الشيء المناسب، ويدفعن ثمنه بطريقة ما. لا يمكنه أن يقول إنهنَّ مبذرات؛ لقد كان المنزل القديم مُسليًا وخاليًا من الأثاث تقريبًا في الوقت نفسه، لكنه لم يحتوِ على أشياء قبيحة.

منذ أن تزوجت روزاموند إلى مارسيلوس، تغيّرت هي ووالدتها في بعض الجوانب على نحو محيّر- تغيرتا وأصبحتا متشدّدتين في رأيهما. ولوي الذي تسبب بهذا التحوّل السلبي، لم يطرأ عليه أي تغيير. كان بالنّسبة إليه، ذلك الشخص الذي يناشد بإنصاف ما- من أجل أوغستا، ومن أجل البروفيسور كرين، من أجل مشاعر الأشخاص المجروحين الأقل حظًّا. وبسبب لِوي أكثر من أيّ سبب آخر كان البروفيسور يرفض هذا الاقتراح السَّخيّ.

***

فكّر البروفيسور أنّه بإمكانه التَّملُّص من الرحلة دون أن يجرح أحدًا- مع أنّه يعلم أن لوي سيحزن. فهو قادر ببساطة على الإصرار والتعذّر بالعمل، وأنه لا يستطيع ذلك بعيدًا عن مكتبه

القديم. كان هناك بعض الفوائد كونه كاتب في مجال التاريخ. فالمكتب بمثابة ملاذ يمكن اللُّجوء إليه، كالحفرة التي يمكن للمرء أن يندسّ فيها.

عندما أخبر سانت بيتر عائلته بقراره، أصيب لِوي بخيبة أمل؛ لكنه احترم قراره، وسلّم عن طيب خاطر أنّ البروفيسور يولي عمله الاهتمام الأكبر. لكن روزاموند استاءت وشكّكت بالعذر؛ لم تستوعب كيف يمكنه أن يكون أنانيًّا ويفسد مخطّطًا من شأنه أن يُسعد الجميع. أمّا بالنسبة لزوجته؛ فقد نظرَتْ إليه بذهول.

وعندما أصبحا بمفردهما، تطرّقت إلى الأمر بشكل مباشر على غير عادتها.

«غودفري» قالت بهدوء وحزن. «أتساءل ما هو الشّيء الذي يجعلك تبتعد عن عائلتك؟ أو من هو؟».

«عزيزتي، هل تشعرين بالغيرة؟».

«أتمنَّى لو كان الأمر كذلك. أفضّل كثيرًا أن أراك تتصرّف بحماقة مع بعض النساء على أن تصبح وحيدًا وقاسيًا».

«حسنًا، أعتقد أنّ عادة الخلوة مع الأفكار تستحوذ على المرء ولا يمكن تفاديها، تمامًا مثل العادة الأكثر بهجة وهي العيش مع نساء مختلفات. هناك ما يمكن قوله في كلتا الحالتين».

«أعتقد أن أفكارك كانت أفضل عندما كنتَ على طبيعتك».

تنهّد سانت بيتر «كلامك صحيح، لكن يجب أن أكافح قدر المستطاع، فلم نعُد في ربيع العمر».

«لستَ مُسنًّا بالحدّ الذي يجعلك تتخذ هذا الموقف. هذا ما يُحيّرني. حافظت على شبابك لسنوات عديدة، ولم تكن تبدو أبدًا وكأنّك تزداد في العمر، عكسي أنا. منذ عامين كنت شابًّا طائشًا. والآن تنأى بنفسك عن كل شيء. أنت عاطفيّ وحنون بشكل فطريّ؛ وعلى حين غِرَة بدأتَ تبتعد عن الجميع. لا أعتقد أنّ هذا سيجعلك أكثر سعادة». كانت تلقي عليه محاضرة بعض الشيء. وفجأة عبرَتْ الغرفة وجلست على ذراع كرسيه، ناظرة إلى وجهه، ومداعبة بإبهامها وبنصرها طرفيّ حاجبيه العسكريين. «ما الحاجة إلى هذا يا غودفري؟ لم أشعر بأيّ تغيير في وجهك، مع أنّي أشاهدك عن كثب. الأمر برمته في تفكيرك، في مزاجك. شيء طارئ

حدث معك. هل مردّه أن ثقافتك غدَت عميقة؟ إنني أتساءل فحسب؟ عميقة أكثر مما ينبغي إلى الحد الذي يجعلك تكتفي بها وتكون سعيداً بمفردك؟ لطالما كنتَ الشَّخص الأكثر حكمة في العالم، ما الأمر؟ ألا يمكنك أن تصارحني؟».

«لا يمكنني أن أصارح نفسي حتى يا ليليان، فالأمر لا يتعلق فقط بتسلسل الأحداث. إنه الشّعور بأني تركتُ الكثير خلف ظهري، حيث لا يمكنني العودة إليه مجدّدًا- ولا أرغبُ حقًّا في العودة. سيكون الطريق طويلًا جدًّا ومُرهقًا جدًّا. بالنسبة إلى رجل مقيم في المنزل، ربّما عانيت ما فيه الكفاية. لم أكن أرغب بإهمال أي شيء- سواء أنتِ، أو مكتبي، أو طلابي. والآن أبدو متعبًا للغاية. يبذل المرء جهده في جميع الأحوال. فلكلٍّ منّا طاقته؛ وعندما تنفد، ينها ر. حتى مع نابليون الأوّل». ضحك الاثنان، حيث كانت نكتة قديمة-سر البروفيسور الدفين[78]. عند جرن المعمودية سُميّ نابليون غودفري سانت بيتر، كان اسم نابليون متوارثًا في العائلة، منذ أن تمّ تسريح ذلك الجد البعيد من الخدمة في الجيش الكبير. وفي كانساس تم اختصار الاسم إلى غودفري، وحتى ابنتيه لا تعلمان ماذا كان اسمه الأصلي.

«أعتقد أنّك تعرفين» قال لزوجته حالما نهضَ ليذهب إلى السرير «إنّني بحاجة لتجديد طاقتي والتقاط أنفاسي. لكنني في الوقت الحالي لا أريد شيئًا مُحرّضًا البَتَّة. باريس جميلة جدًّا، ومليئة بالذكريات».

مدينة جنوب غرب فرنسا.

كاتب وباحث وبروفيسور ومؤرّخ فرنسي (1839-1903).

كاتب فرنسي (1847-1916).

شاعر وصحفي وروائي فرنسي (1844-1924)، حائز على جائزة نوبل للآداب عام 1921.

روائي فرنسي (1852-1935).

السر هو اسم نابليون المتوارث في العائلة، لكن مع غودفري اختلف الحال ولم دعونه نابليون، واكتفت العائلة باسم غودفري سانت بيتر. بقي اسم نابليون سرًا لا يعلمه سوى زوجته.

الفصل السادس عشر

في أحد الصباحات الربيعيّة من يوم السبت، عندما كان البروفيسور يعمل في منزله القديم، سمع دعساتٍ نشيطةً تصعد الدرج غير المفروش. وصاح صوت لوي:

«أبي العزيز، هل لي أن أقاطعك وآخذ من وقتك؟»

وقفَ سانت بيتر وفتح له، كان لوي يرتدي جوارب الغولف، وسترة بنفسجيّة ذات ياقة من الفرو.

«لا، لست ذاهبًا إلى الغولف، لقد غيّرتُ رأيي، لكن لم أجد الوقت لأغيّر ملابسي. أريدك أن تخرج بصحبتنا إلى شاطئ البحيرة. روزي ذاهبة إلى الغداء مع بعض الأصدقاء في نادي البلدة. سنقلّها في طريقنا، ثم نودعها هناك ونمضي، إنه يوم مشرق». جالت عينا لوي بحماس واهتمام في الغرفة الصغيرة الرَّثَّة. ضحك بخفوت. « لا يحب الدّب العجوز سوى الجُحر القديم، أليس كذلك؟ يمكنني تفهّم ذلك بكل بساطة. أطفالك ولدوا هنا، ليس فقط ابنتيك- بل أيضا فتيانك، فتيان مغامراتك الإسبانية الرائعين. وأنا فخور بالعلاقة التي تجمعني بهم، وإن كانت عن طريق الزواج. ودثارك أيضا، بالتأكيد إنّها تحمل طابعًا إسبانيًا ». استلّ لوي الدثار البنفسجي، وألقى به على صدره، ممّا جعل السيدة السلكية تنزاح جانبًا، وتأمّل نفسه بنظّارات أوغستا.

«يمكن أن يُصنع منه رداء مناسبًا جدًّا للوي، أليس كذلك؟».

«لقد كان لأوتلاند-إنه شيء عزيز ولا يُقدّر بثمن. أحضره صديقه المفقود من مكسيكو».

«هل حقًا كان لأوتلاند؟» مسّده لوي وتمعّنه في النظارة بإعجاب متزايد. «لا يمكنني أن أسامح القدر الذي لم يُتح لي فرصة التّعرّف على هذا الشاب الرائع».

ارتفع حاجبا البروفيسور في استغراب وحيرة. «قد يكون الأمر مُحرجًا لروزي كما تعلم».

قال لِوي وهو يرمي بالدثار، مُلقيًا به بعيدًا: «لا أعتبره مُنافسًا أبدًا، بل أخًا محبوبًا وموهوبًا».

بعد نصف ساعة كانوا يجوبون البلدة سويّة في السيارة، وقد بدوا متعبين، روزاموند ووالدها على المقعد الخلفي، ولوي مقابلهم. لاحَظَ البروفيسور أن لوي يفكر بأمر ما؛ فعيناه اللامعتان

والمضطربتان كانتا تتفحصان زوجته بدقة، وكأنه يترقب لحظة مواتية.

«أتعلم دكتور» قال في الحال، «قررنا تسليم منزلنا قبل أن نسافر، وإيقاف الإيجار. سننقل الكتب، والصور إلى الأوتلاند (وهدايا زفافنا طبعًا)، وسنضع القطع النقدية في البنك. لن نكون بحاجة إلى الكثير من أثاثنا الحالي. لا أعلم إن كان يلزمك شيئًا منه؟ ولقد خطر لي الآن يا روزي»، وهنا مال إلى الأمام وربّت على ركبتها، «يمكننا أن ندعو سكوت وكاثلين للمجيء واختيار ما يعجبهما. شيء لا فائدة من بيعه، ولن ننل منه الكثير».

نظرَتْ إليه روزاموند مندهشة. كان من الواضح جدًّا أنهما لم يناقشا الأمر مُسبقًا. «لا تكن ساذجًا يا لوي» قالت بهدوء. «إنّهم لا يريدون أشياءك».

«لكن لمَ لا»، أصرّ في كلامه على نحو هزلي. «إنها أشياء جميلة جدًّا. ليست مناسبة لمنزل أوتلاند، لكنها مناسبة جدًّا لشقّة صغيرة. لقد اخترناها بعناية، ولا نريدهم أن يذهبوا إلى متجر متسّخ خاص ببيع الأشياء المستعملة».

«ليسوا مضطرين لذلك. يمكننا تخزينهم في عليّة الأوتلاند. إنّها كبيرة كفاية. ولستَ مضطرًّا للتصرّف فيهم الآن بأية حال».

«يا للأسف، يؤسفني أنه لن يستفيد منهم أحد آخر. أعلم أنّ سكوت سيكون حريصاً مع الشيفونية خاصّتي. لقد أعجبته جدًّا، على ما أذكر، وقال إنه لم يحظ أبدًا بخزانة بها أدراج مناسبة لقمصانه مثلها».

زمّت روزاموند شفتيها.

«توقفي عن هذا يا روزي! إنه غير لائق» مال للأمام حتى لامسها وهزّها بلطف من كوعها. «ثمّ كيف لنا أن نعرف أن عائلة ماكريغور لا يرغبون بأشيائنا وأنتِ لم تسأليهم بعد؟ يا لها من أفكار إيجابية تطرق مخيلتك».

«لن يرغبوا بهم لأنهم لنا، لك ولي، إذا كنت تريد معرفة السبب» قالت ببرود وهي تتراجع مُبتعدة عنه.

استعاد لوي جلسته في المقعد واسترخى فيه «لماذا تفكرين بأشياء بغيضة كهذه؟ أتعلمين، لا أصدّق هذا. أنتِ سريعة الانفعال. قد يكون سكوت وكاثلين متحفّظيْن بعض الشيء، لكن من الممكن جدًّا أن يتقبّلا الأمر على نحو أفضل في حال فتحتِ الموضوع معهما بطريقة

لائقة». استجمع قواه وعاد للإقناع مجدّدًا. «لقد أقنعت نفسها بأن عائلة ماكغريغور يضمرون ضغينة يا دكتور، ولا يوجد شيء من هذا القبيل».

بدَت روزاموند شاحبةً جدًّا. كما أنّ شفتها العليا، التي تشبه شفة والدتها عندما تكون دَمِثَةً، والتي تصبح جامدة أكثر عندما لا تكون ودودة، ارتخَت مثل ستارة فولاذيّة.

«لقد علمت بالصُّدفة يا لِوي، أنَّ سكوت صوّت ضدّك في معهد الفنون والآداب، هل يمكن أن تسمي هذا ضغينة أم لا، افهم الأمر كما يحلو لك».

ارتعش مارسيلوس على نحو واضح، وبدا الحزن عليه «حسنًا، إن كان قد فعلَ حقًّا، فهو أمر غير لائق بالتأكيد، لكن هل أنتِ متأكّدة يا روزي؟ فالإشاعات رائجة دائمًا، والناس تحب إثارة خلافات العائلة».

«ليسوا الناس، وليست إشاعة. أنا متيقّنة من هذا، لقد أخبرتني صديقة كاثلين المقرّبة».

تراجع لِوي إلى الخلف وترنّح ضاحكًا. «أوه، السيدات، السيدات. كيف ينقلن الأحاديث لبعضهنَّ يا بروفيسور؟».

تضايق سانت بيتر على نحو كبير. «لا أعتقد أنه يمكنني أن أقبل بدليل كهذا يا روزاموند. لا أصدّق أنّ سكوت يفعل مثل هذا الأمر، وأظنّ أن لِوي يفكّر بشكل صحيح. الناس مثل الأطفال، وسكوت طيّب ويحترم نفسه. وأعتقد أن شيفونية[79] لِوي ستبهج قلبه، في حال قدّمها له لوي. وأخشى ألّا تقومين بذلك بالتهذيب المطلوب».

«بروفيسور، سأذهب إلى مكتب ماكغريغور وأقدّمها له. وفي حال استهزأ بالأمر، سيكون تصرّفًا سيّئًا منه، وسيفوّت عليه تحفة يدوية جميلة للغاية».

تحوّل شحوب روزاموند إلى احمرار. ولحسن الحظ كانوا يجوبون الحلقات المرصوفة بالحصي والتي تفضي عبر العشب المكشوط إلى نادي البلدة. «لك حرية التصرف بأشيائك يا لوي. لكنني لا أرغب بأن يكون أيّ من أغراضي في بنغل[80] ماكغريغور كما أعرف جيّدًا سخرية سكوت، وكيف يسخر من كل شيء بِنِكاتِه الّتي يُطْلِقُها».

توقفت السيارة، ثم ترجّل لوي ومدّ يده لزوجته. صعد معها الدّرجات وصولًا إلى الباب، كان شكل ظهره يوحي بقدرة كبيرة على الصبر، واللّطافة والرِّعاية ممّا جعل البروفيسور يعضّ

شفته العليا مستاءً. عاد لوي وقد بدا شاحبًا تمامًا ومرهقًا، همد في المقعد إلى جانب البروفيسور، تعتلي وجهه ابتسامة شخص حزين وحكيم.

«لِوي» تحدّث سانت بيتر بتأثّرٍ شديدٍ، «هل حدث أن قرأت رواية «الأميركي» لهنري جيمس؟ تتناول حادثة أكثر من جميلة، عن شاب فرنسيّ، يُصاب في مُبارزة، ويعتذر عن سلوك عائلته. إنني أرغب بفعل شيء من هذا القبيل، أريد أن أعتذر منك نيابة عن روزاموند، وعن سكوت في حال فعل شيئًا لئيمًا كهذا».

أشرقَ وجه لوي المكتئب في الحال، وشدّ على ذراع البروفيسور بدفء. «أوه، كل شيء على ما يرام يا سيدي. بالنسبة لسكوت، أتفهّم الأمر. إنه الصهر الأول في العائلة، وكان يستحوذ على الاهتمام كلّه. ثم ظهرتُ أنا، شابًّا غريبًا، وفُزت بروزي، وبدأت أمور براءة الاختراع تسير بشكل جيّد- لدرجة تجعل أيّ رجل يغار، فضلًا عن كونه اسكتلنديًّا! لكنَّني أعتقد أنّ سكوت سيعود إلى رشده في نهاية المطاف؛ كما يحدث عادة مع الأشخاص، عندما تُحسن معاملتهم، وأنا أنوي ذلك. أحبّ هذا الرجُل، وبالنسبة لروزاموند، فلا تكترث لها. أحبّها عندما تكون مُشاغبة. أحيانًا تكون غير منطقية بعض الشيء، لكنّي أتمنى دائمًا أن يكون الأمر مجرّد كلام ساذج، ولغو مُبالغ فيه، فهذا من شأنه أن يكون بدايةَ سعادةٍ عظيمةً لنا نحن الإثنين».

«لوي، أنتَ شهمٌ وعظيم» قال حماه المغلوب على أمره بصوت خفيض.

الفصل السّابع عشر

أبحرت ليليان وعائلة مارسيلوس إلى فرنسا في مطلع شهر مايو. بقيَ البروفيسور بمفرده، يزجي وقته الوافر بسقاية نباتاته المتسلّقة، وحديقته التي لم تعُد جميلة أبدًا كما كانت في شهر يونيو الماضي. بعد أن أنهى واجباته الجامعية، قام بنقل فراشه وملابسه خِفيةً إلى منزله القديم واستقرّ لحياة عزوبية هانئة. لقد أدرَكَ أنّ عليه البدء بالعمل. فالحديقة التي كان يجلس فيها طوال اليوم، لم تعُد عذرًا مُجديًا لتحول بينه وبين مكتبه، لكن المهمّة التي كانت بانتظاره هناك صعبة. إنها أمر بسيط، لكنها من الأشياء الصغيرة التي تجعل اليد تعي ذاتها، وتشعر بنفسها متيبسة وخرقاء أمام ما تفعله.

كانت خطته تقتضي بأن يفرّغ جزءًا من هذا الصيف ليوميات توم أوتلاند، في تعديل وكتابة الحواشي تهيئة للطباعة. والمزعج هو كتابة مقدمة. فاليوميات تغطي حوالي ستّة أشهر فقط من حياة الفتى، عن ذاك الصيف الذي قضاه في الميسّة الزرقاء، ولا تتضمن تقريبًا أي شيء عن توم نفسه.

لتدوين أيّ شيء، يجب أن يكون مُستهلًا بمسودّة عن أوتلاند، وبعض الوصف لحياته اللاحقة وإنجازاته. ستكون الكتابة عن عمله العلمي سهلة نسبيًّا. لكن ذلك ليس القصة برُمَّتِها؛ فعقله متعدد الجوانب، مع أنّه ذو شخصيةٍ بسيطةٍ ومستقيمةٍ.

وبالطبع أصرّت السيدة سانت بيتر أنه لم يكن مستقيمًا تمامًا؛ وذلك لأنه لم يكن متماسكًا بالإجمال حسب قولها. كباحِث، كان ذو نظرة ثاقبة وعقل ذكي؛ لكن في العلاقات الاجتماعية كان ميّالًا إلى المبالغة والدونكيخوتية[81]. تعامل بمثالية مع الأشخاص الذين أحبّهم ولم يندفع في أداء مسؤولياته من منطلق شخصي بل من منطلق مثالي، لذلك كان سلوكه مُبالغًا به بعض الشيء مقارنة بالظروف- فاعتادت ليليان أن تقول إنها «فروسية السينما». إحدى اعتقاداته الساذجة أنه يجب ألاّ يكون لأصدقائه أيّ فضل ماديّ عليه لأي سبب كان، ويجب أن يُحافظ على تقدّمه بمعزل عن العاطفة كما لو كانا عنصريين كيميائيين سيفسد أحدهما الآخر. اعتقد سانت بيتر أن هذه هي النتيجة المنطقية لنشأة توم الغريبة وعلاقاته التي تكونت في سن مبكرة. كان يعلم أنَّ ثَمَّة حلم من الصداقة المُتفانية والحب النزيه بين العمال

المياومين، أولئك الرّجال الذين شغَّلوا قطارات السكة والقوارب والحصّادات والدرّاسات، ومناجم العالم. وقد حمل توم بين جوارحه هذه الخصال عندما دخل إلى الجامعة، حيث الترفّع من خلال النفوذ الشخصي يُعدّ امتيازًا. لم تبدأ ليليان في غيرتها من أوتلاند حتى أصبح راشدًا. كان فردًا من العائلة لمدة عامين تقريبًا، ولم تجد أي عيب في الفتى. لكن عندما بدأ البروفيسور باصطحاب توم إلى المكتب والحديث معه حول أمور العمل، بدأت تنشأ بينهما صداقة، عندئذ بدأت ليليان تتراجع في محاباتها وتشجيعها لتوم. كان بإمكانها أن تتغيّر بسهولة؛ فالصداقة لم تكن من طباعها. وعندما كان يجمعها صداقة مع أيّ أحد آخر، كانت بالطبع تجد أسبابًا لتقلباتها. لقد نبّهتْ زوجها أن توم ليس واضحًا، على الرّغم من بساطته.

كان توم متحفّظًا دائمًا فيما يخص شؤونه الشخصية، ولم تصدّق ليليان أنّ الحقائق التي تكتّم عليها مُشرّفة. كانوا يعلمون دائمًا أنّ لديه سرًّا ما، شيء يتعلّق بشخصية رودي بليك الغامضة والحساب البنكي في نيو مكسيكو، الذي لم يكن له حرية التصرّف فيه. لا بدّ أنّ الشاب شعر بالتغيير الذي أبدته ليليان في معاملتها له، ولهذا بدأ يتذرّع في ذلك الشتاء بعمله كي يقلل من مجيئه إلى المنزل خلافًا للعادة. وبات يتقابل هو وسانت بيتر في الكوّة خلف قاعة المحاضرات الخاصة بالبروفيسور في الجامعة.

في أحد أيام الآحاد، قبل فترة وجيزة من تخرج توم، أتى إلى المنزل ليطلب من رزاموند الذهاب معه إلى حفل التخرّج. كانت العائلة تحتسي الشاي في الحديقة؛ حيث ارتفعت حرارة الطقس لبضعة أيام على نحو شديد حتى تفتّحت الأزهار. وسألت روزاموند توم الجالس ببلوزته البيضاء وقبعة القش، إذا كان الربيع في الجنوب الغربي دافئًا على هذا النحو.

«أوه، لا» ردّ قائلًا، «شهر مايو يكون باردًا عادة، مع شمس مشرقة، ومساءات لطيفة، بيد أنّ الرياح تكون لاذعة بعض الشيء. ذكّرتني ليلة البارحة بليالي مايو اللطيفة في واشنطن».

حملقتْ به السيدة سانت بيتر قائلة: «هل تعني واشنطن العاصمة؟ لم أكن أعلم من قبل أنك مضيتَ بعيدًا صوب الغرب».

بدا الانزعاج واضحًا على مُحَيَّا الشاب. اكفهرّ وقال بصوت منخفض: «نعم، لقد كنت هناك، أعتقد أني لا أتكلم عن الأمر لأنه ليس لديّ ذكريات جميلة جدًّا عنه».

«كم بقيت هناك؟» سأله مُضيفه.

«أمضيتُ شتاءً وربيعًا. أكثر من ستة أشهر. مدة طويلة كفاية لدرجة جعلتني أشتاق للديار». ومضى على الفور في طريقه، كما لو كان خائفًا من أن يُسأل أكثر.

إلاّ أن الموضوع أثير مرة أخرى بعد أسابيع قليلة. فبعد تخرّج توم، عُرض عليه مسارين؛ أن يكون محاضرًا براتب صغير في القسم الفيزيائي تحت إشراف الدكتور كرين، أو منحةَ دراسات عليا في جامعة جون هوبكينز. وقد عمل سانت بيتر جاهدًا لإقناعه بالأخيرة. وفي أحد المساءات عندما كانت العائلة تناقش الآفاق المتاحة أمام توم، لخّص البروفيسور جميع الأسباب التي تُحتّم عليه الذهاب إلى بالتيمور[82] والعمل في المختبر الذي اشتهر به الدكتور رولاند. أكّد له، أنّه بالإضافة إلى هذا، سيحظى بطقس جميل لمدينة جنوبية قديمة».

«نعم أعلم «، قاطعَه توم أخيرًا. «إنه يبعث على البهجة، لكنه لا يناسبني بتاتًا. يسبب لي الوهن بشكل مُخيف. سبق وذهبت إلى هناك عندما كنت في واشنطن، كان يصيبني بالكآبة. لا أعتقد أنّ بإمكاني العمل هناك إطلاقًا».

«لكن هل يمكنك الوثوق بانطباع طفل لتحديد مسارك الآن في قرار مُهِم كهذا؟، سألته السيدة سانت بيتر بجديّة.

«لم أكن طفلًا سيدة سانت بيتر، كنت كبيرًا كما الآن، وأنضج في بعض النواحي. كان ذلك بحلول العام الفائت، قبل مجيئي إلى هنا».

«لكنك يا توم كنت ضمن طاقم قسم الغانغ العام الفائت. لماذا تخلط الأمور وتشوّشنا جميعا؟».

أمسكَت كاثلين بيده وضغطت على براجمه جميعها، كما تفعل عندما كانت ترغب في معاقبته.

«حسنًا، ربّما كان ذلك قبل عامين، لا يهم. لا أعلم إن كانت المدة بالتحديد عامين كاملين على وجه الدقة»، تمتمَ بشرود.

وغادرَ مرة أخرى بطريقة مفاجئة. وبعد بضعة أيام أعلَم سانت بيتر أنه قبِل بالتأكيد أن يكون مُحاضرًا تحت إشراف الدكتور كرين، وسيقيم في هاملتون.

وخلال فصل الصيف بعد تخرّج أوتلاند، علم سانت بيتر بكل ما خفيَ بشأن الوديعة. كانت السيدة سانت بيتر والفتاتين في كولورادو، والبروفيسور بمفرده في المنزل، يعمل على

كتابة المجلدين الثالث والرابع من عمله التاريخي. كان توم يواصل العمل على بعض تجاربه الخاصة في المختبر الفيزيائي في الأعلى. كان هو وسانت بيتر يجتمعان معًا أغلب الأوقات في المساء، وكانا يذهبان إلى السباحة في بعض الظهريات اللطيفة. يُسلّم البروفيسور كل سبت منزله لعاملة التنظيف، ويذهب هو وتوم إلى البحيرة، يقضيان النهار في قاربه.

وكان يروق للبروفيسور أن يقضي أجواء الصيف في هاملتون. فقد كان يتولى أمر الطبخ بنفسه، ويتكفّل باختيار نوع الجبن والخمور الإيطالية الخفيفة من مستورِدٍ يستورد موادًّا مميّزة في شيكاغو. يقوم كل صباح وقبل أن يجلس إلى مكتبه بجولة إلى السوق ويختار الفواكه والخضروات. وفي موعد عشائه عند الثامنة، يطهو ساقًا فاخرةً من لحم الضأن الهبرة، يفركها جيّدًا بالثوم قبل أن يضعها في المقلاة، ثم يدعو أوتلاند لتناول العشاء. وبوجود طبق من الهليون المسخّن، ملفوف في منديل للحفاظ عليه ساخنًا، وزجاجة من نبيذ الأستي البرّاق، كانوا يتحدثون ويشاهدون حلول الليل في الحديقة. وعندما يكون المساء ماطرًا أو قارسًا، كانوا يجلسون في الداخل يقرؤون لوكريتيوس[83].

لقد كان ذلك في إحدى الليالي الماطرة، أمام الموقد في غرفة المعيشة، عندما أفصح توم أخيرًا عن القصة التي تكتّم عنها طويلًا. لم يكن ثَمَّة شيء إجرامي في قصّته، ولا شيء لافت؛ ليست سوى خسارة في مرحلة الشباب، من تلك القصص التي يكون الفتى حساسًا حيالها ـ حتى يشتدّ عوده.

المثالية الوهمية نسبة إلى شخصية (دون كيخوت) في رواية الروائي ميغيل دي ثيربانتس سابيدرا.

مدينة في ولاية ماريلاند الأمريكية.

تيتوس لوكريتيوس: شاعر وفيلسوف روماني قبل الميلاد.

قصّة توم أوتلاند

الفصل الأوّل

إنّ ما غيّر مساري وجعلني أتأخر كثيرًا في متابعة دراستي في الكليّة حادثة غريبة بعض الشيء، أو سلسلة من الأحداث. بدأت مع لعبة بوكر، عندما كنت صبي مُهِمَّات في باردي في نيو مكسيكو.

في ليلة باردة وصافية من أحد ليالي الخريف، خرجتُ في أثر طاقم شحن كان يهمّ بالمغادرة منتصف الليل، بعد يوم واحد من دفع الرواتب بالضبط. بعدما سرّب لي أحد الرفاق أنّ لعبة بوكر ستجري في غرفة لعب الورق[84] الواقعة آخر حانة روبي لايت. وقد علِمتُ أن معظم طاقمي سيكون هناك، ما عدا كوندكتور ويليس، الذي كان لديه طفل مريض في المنزل. وبالطبع، كانت النوافذ الأمامية مظلمة. دخلتُ من الزقاق الخلفي وولجتُ منزلًا متداعيًا وباردًا، ثم ساحة، وصولًا إلى داخل غرفة من الطوب ليست مفتوحة إطلاقًا على الحانة المقصودة. كانت غرفة مكتظة وحارّة وخانقة إلى درجة كبيرة. كانوا ستّة أو سبعة في اللعبة، وحشد من الرفاق يقفون متحمّسين بمحاذاة الجدار، يستندون عليه حتى علِقت آثار الكلس الأبيض على معاطفهم من ناحية الأكتاف. وكان هناك قفص طائر معلّق في إحدى النوافذ، مغطى بقميص قطني قديم، لكن الكناري كان مستيقظًا وغناؤه يصدح مناجاة للحياة. كان مغنّيًا جميلًا ـ درّبه مكسيكيّ مُسّن ـ وهو أحد الأشياء الجذّابة في المكان.

تزامن مجيئي مع بدء الرهان، وكان اثنين من الرفاق اللذين أتيتُ من أجلهما من ضمن المتراهنين، وبطبيعة الحال كانوا على وشك توزيع البطاقات. وقفتُ عند الباب مع ساعتي لحساب الوقت لهما. ومن بين اللاعبين، رأيتُ اثنين من رعاة الغنم اللذين لطالما أحبّا أيّ لعبة حماسية، وأخبرني أحد المتفرّجين أنه يتوجب عليّ شراء فيشة بقيمة مئة دولار لأتمكن من البقاء تلك الليلة. كان الحشد مُتذمّرًا بشأن أحد الرفاق، وهو رودي بليك، الذي أتى من قاطرته دون أن يستحم. لم يكن هذا التصرّف مألوفًا؛ ففي الدقيقة التي يصل بها أيّ رجل من مناوبته، عليه أن يستحمّ، ويرتدي الملابس المدنية، ويذهب إلى الحلاق. بليك هذا، كان رجلَ إطفاء جديد في قسمنا. وقد قدِم إلى البلدة بثياب العمل المشحّمة وقميصِه الأزرق المتعرّق، وبوجه دائم الغضب، كان يشرب، فرائحته تشي بذلك، وعيناه زائغتان من الشرب. كان جميع الرجال الآخرون نظيفين، وقد حلقوا حديثًا، لهذا أزعجهم مظهر بليك ـ قائلين إن

يديه كانتا مشحّمتين كثيراً لدرجة تركت علامات على ورق اللعب. أراد بعضهم إخراجه من اللعبة، لكنه كان شخصًا ضخمًا، قويّ البنية، فلم يرغب أحد بتولي الأمر على عاتقه. ولم يُسعدهم كثيرًا أنّه ربح المراهنة.

أخرجتُ صديقيّ وهرعتُ بهما بسرعة، وحلّ محلهما في طاولة اللعب اثنين آخرين من الصف الواقف إلى الحائط، طلب مني أحد الشبّان ممّن غادرا برفقتي الذهاب معه إلى منزله ليأخذ حقيبة السفر خاصته مع ملابس العمل. لقد خسِر كل سنت من راتبه، ولم يشأ أن يواجه زوجته، سألته من الرابح.

«بليك. الطّفْرة القذِر، أخذ كل شيء. لكن الرفاق سيسلبونه ربحه قبل الصباح».

قرابة الساعة الثانية، عندما انتهى عملي في تلك الليلة، وكنت ذاهبًا إلى المنزل للنوم. عرّجت على غرفة لعب الورق لأرى كيف سارَت الأمور. كانت اللعبة قد انتهت. وقد تحوّلوا مذ غادرتهم في منتصف الليل إلى لعبة بوكر مكشوفة. سلبهم بليك، رجل الإطفاء، كل شيء. كان يُصرّف فيشته لحظة وصولي، لم يكن صف الفيشة قليلة نوعًا ما، لكن بليك لم يقلق حيال ذلك. كان أمامه على الطاولة أكثر من ستمائة دولار وبعض الذهب. كان بعض الأشخاص في الحشد يهينونه، محاولين جرّه إلى شجار وسلبه المال. لم يكترث لشيء وبدأ يجمع المال، دون أن ينظر إلى أيّ أحد. طوى الأوراق النقدية ووضعها داخل شريط قبعته. ملأ جيوب سروال بدلته بالذهب، وجرف ما تبقّى ليضعه في منديله الأحمر الكبير.

لقد كُنتُ مهتمًّا بذلك الزميل منذ وطأ قسمنا أول مرة؛ كان كتومًا وعدوانيًّا. من أولئك الأشخاص الذي يتمتعون بجسد قوي وناضج، ووجه فتيّ، كما تشاهد هذا الأمر عادة بين العمّال. كان هناك شيء من الهدوء والسخرية والاستهزاء في تعابير وجهه- وهو ما تراه عادة بين العمّال أيضا. عندما جمع كل ماله، انتصب ومضى إلى الباب دون أن يَنْبَسَ بِبِنْتِ شَفَةٍ، ودون أن يقول ليلة سعيدة لأيّ أحد.

«تصرّف خنزير، وخنزير قذر أيضا». صرخ التافه بارني شيا من خلفه. كان ظهر بليك بالكاد بلغ المدخل؛ حرّك أحد كتفيه، لكنه لم يستدر أو يُصدر أيّ صوت.

تسللتُ بعده وتبعته إلى آخر الشّارع، كانت مشيته غير ثابتة، والذهب يُخشخش في جيوب سروال بدلته الفضفاضة مع كل خطوة. سرّعت خطوتي قليلًا حتى لحقته. «ماذا تنوي أن تفعل بكل هذه الأموال يا بليك؟» سألته.

«سأخسرهم ليلة الغد. لست خنزير مال. يا لهم من رجال ملاعين، حليقي الشّعر[85]».

فكّرتُ أنه سيكون من الأفضل لو تبعته حتى المنزل. كنت أعلم أنه يقيم مع عجوز مكسيكيّة، في الحيّ الأصفر، خلف المبنى الدائري. غرفته مفتوحة على الشارع، بباب أزرق سماوي. دلفَ إلى الداخل، لم يُنِر أيّ ضوء ولم يحاول خلع ملابسه، لكنه حالما بلغَ السرير، ألقى بنفسه وغرَقَ في النوم. علّقت قبّعته بين القضبان الحديدية لرأس السرير، اندلقَ الذهب من جيوبه وتدحرج على الأرضية العارية في الظلام.

أشعلتُ عود ثقاب وأضأتُ شمعة. يشغل السرير نصف الغرفة؛ وعلى خزانة الملابس حقيبة سفر تحتوي على ملابسه النظيفة، كما أحضرها تمامًا من مناوبته. أخرجتُ الملابس وبدأت بالتقاط النقود؛ مُخرجًا الأوراق النقدية من قبّعته، مُفرِغًا جيوبه، وقمت بتجميع القطع النقدية المتموضعة في جوف السرير حول وركيه، ووضعتها جميعها في الحقيبة، ثم أطفأتُ الضوء وجلستُ أصغي.

كنتُ واثقًا في جميع الفتيان الذين كانوا في روبي لايت تلك الليلة، ما عدا بارني شيا. فقد يقوم بمحاولة سلب أيّ غريب في مدينة مكسيكو. ومع ذلك، قضينا ليلة هادئة، وباردة. وجدتُ معطف بليك الشتوي معلّقًا على الحائط ولففته فيه. لم ينتابَني أيّ ندم عندما بدأت الديكة بالصياح، والكلاب بالنباح في جميع أنحاء بلدة مكسيكو. أشرقت الشمس أخيرًا، وفي الحال أضفَت اللون الأحمر على الصّحراء وبلدة الطوب. بدأت بهزّ الرّجل على السرير. كان إيقاظ الرجال النائمين غير الراغبين في الاستيقاظ جزءًا من عملي، لم أتركه حتى تأكّدت من وقوفه على قدميه.

«مرحبا أيّها الفتي، هل أتيتَ لزيارتي؟».

أخبرته أني قادم لأستدعيه إلى الإفطار في هارفي هاوس. «إنك تدين لي بمعروف. لقد رافقتك إلى المنزل ليلة البارحة».

«بالطبع، سررتُ برفقتك، انتظر حتى آخذ حمامًا سريعًا». أخذ الصابونة، ومنشفته ومشطِه، وخرج إلى الفناء؛ مربّع رملي صغير وأنيق، مسوّر بالأزهار والكرمة، استحمّ في الحوض تحت المضخّة. ثم نادا ني كي أرشّ له الماء على رأسه. بعد أن وقف دفق الماء البارد لبضع لحظات، اعتدل وأسنانه تصطك.

«هذا كفيل بإزالة الويسكي من رأس المرء، أليس كذلك؟ شعرتُ بالراحة يا توم». وفي الحال بدأ يتحسس جيوبه الجانبيّة. «هل كنتُ أحلم أو شيئًا من هذا القبيل، أم حقًّا ربحتُ الرهان البارحة؟».

«المال في حقيبتك» قلتُ له. «لم تكن بكامل قواك، كنت غارقًا في السّكْر لدرجة لن تكون قادرًا فيها على الحفاظ عليهم. كان عليّ أن أتبعك وألتقطهم من الوحل».

«حسنًا، سنتقاسمه. ما يأتي بسهولة، يذهب بسهولة».

أخبرته أني لا أريد أيّ شيء منه سوى الإفطار، وأريده لذيذًا في الحال.

«تمهّل أيّها الصبي. عليّ تبديل قميصي، فهذا مُبلّل».

«إنه أسوأ من كونه مُبلل. يجب ألاّ تخرج إلى البلدة دون تبديله. فأنت غريب هنا وهذا سيترك انطباعًا سيّئًا عنك».

هزّ كتفيه وبدا متشامخًا. كان وجهه مربّع الشّكل، بملامح صادقة وعينين ثابتتين لا تحملان تعابير ساخرة بشكل واضح. كنتُ أعلم أنه شاب مؤدّب على الرّغم من أنّه كان يشرب ويتصرّف على نحو كريه منذ أن قدِم إلى قسمنا.

خرجنا بعد الإفطار ووقفنا تحت أشّعة الشمس في مكان على الرصيف الخشبيّ الذي يشكّل ما يشبه الجسر فوق أخدودٍ رمليّ. تحدثتُ طويلًا معه. كنتُ أحمل الحقيبة مع ما كسبه، وأقنعته في نهاية الأمر بالذهاب معي إلى البنك. وضعنا كامل المبلغ كوديعة بحيث لا يمكنه المساس به لبعد عام.

منذ ذلك اليوم أصبحنا أنا وبليك صديقين فجأة. كان صديقًا من النّوع الذي يفعل أيّ شيء لشخص آخر، ولا يفعل لنفسه. وكان هذا الاندفاع حاضرًا بكثرة بين العمّال. فهم لم يتعلموا انتهاز بعضهم وتحقيق النجاح بشيء من الأنانية الممنهجة. كان رودي سيء الحظ في العلاقات الاجتماعية. كان يهرب من المنزل عندما كان طفلًا لأن والدته تزوّجت مرة أخرى- من عشيقها الذي تعرّفت عليه قبل وفاة والده. خطب فتاة من منطقة جنوب المحيط الهادي، وقد خانته حسب قوله. ذهب إلى «أولد مكسيكو»[86] وأودع جميع مدّخراته مع أصدقائه في بئر نفط، واحتالوا عليه. كل ما كان بحاجته هو صديق، صديق نزيه ليشهد معه. كنت أصغر منه بعشرة أعوام، وكانت تلك ميزة.

لقد أحبّ أن يكون بمثابة أخ أكبر، وأفترض كوني كنت ضالًّا نوعًا ما ولا عائلة لي، سهّل عليه أن يعاملني بأريحية. وبالتأكيد انشغل بالتفكير بي، كما انشغلتُ به. كان ذلك في الشتاء الذي أصبتُ فيه بالالتهاب الرئوي. لم يمكن بمقدور السيدة أوبراين فعل الكثير لي؛ لقد كانت منشغلة بأعمالها الكثيرة، امرأة مسكينة، متخمة بالأعمال، في منزل يملؤه الأطفال. اصطحبني بليك إلى غرفته، وتكفّل هو والسيدة المكسيكيّة العجوز برعايتي. كان يتوجب عليه أن يُنجب أولادًا من صلبه ليعتني بهم، وإن كانت الطبيعة مليئة بمثل هذه البدائل، لكنها بدائل تبدو حزينة حتى في النباتات.

لم أتمكن من البقاء حتى حلول الربيع، ثمّ إنّ الدكتور والأب دوتشين قالا إنّه عليّ التخلّي عن العمل الليليّ والعيش في مكان مفتوح في الصيف. وقبل أن أعلم بأيّ شيء عن الأمر، كان بليك قد ترك عمله في «سانتا في»، وحصل على عمل له ولي في شركة سيتويل للمواشي. كان جوناس سيتويل من أكبر أصحاب المواشي في منطقتنا في نيو مكسيكو. اقتضى عملنا أنا ورودي أن نجتاز المرعى مع قطيع من الماشية العاشبة كل صيف، ثم نأخذه إلى مخيّم شتوي على نهر كروزادوس ونبقهِ في المراعي حتى حلول الربيع.

غادرنا في أوائل شهر مايو، وانضممنا إلى قطيعنا، على بعد عشرين ميلًا جنوب باردي، نزولًا باتجاه البلوميسّة. والبلوميسّة هي أحد المعالم الاستدلالية التي نشاهدها دائمًا من باردي- مَعْلمٌ مهمٌ جدًّا في أرض مستوية. وإلى الشمال الغربي، باتجاه يوتا أكثر، يوجد تلال المورمون، ثلاث قمم زرقاء حادّة تنتصب هناك بشكل ثابت. كانت البلوميسّة إلى الجنوب منّا، وكان لونها واضح جدًّا، أقرب ما يكون للّون البنفسجي. يقول الناس أنّ الصخرة نفسها تحتوي على قالب بنفسجي في أعماقها، فهي تبدو، من بلدتنا، مثل صخرة زرقاء عارية تنتصب بمفردها في السّهل، مربّعة تقريبًا باستثناء تلك القمّة، كانت الأعلى في أحد نهاياتها. يقول المستوطنون الأوائل أن لا أحد تسلَّقها من قبل، لأنَّ حوافَّها شديدة الانحدار، كما أن نهر كروزادوس يلتفُّ حولها في إحدى النهايات ويقطعها.

علمنا أنا وبليك أنَّ مخيّم آل سيتويل الشتوي يقع إلى جانب نهر كروزادوس، تحت الميسّة تمامًا، وطوال مدة الصيف بينما كنّا نجنح مع قطيعنا من بئر ماء إلى آخر، خطّطنا كيف سنتسلّق الميسّة ونكون أول شخصين يبلغا ذاك المكان. وبعد العشاء، كان تسلّق الميسّة موضوع حديثنا الأساسي عندما أشعلنا الغلايين وشاهدنا الغروب. كان عملنا هيّنًا؛ ولا

يستدعي أن ننشغل به نحن الاثنين. كان آل سيتويل ماهرين في أعمالهم. وكان جون راب، رئيس العمّال، يأتي مرّة في الشّهر في عربته الخشبيّة، ليشاهد كيف تسير الأمور مع الماشية ويمُدّنا بالمؤونة ورزم الجرائد القديمة.

كان بليك قارئًا مُثابرًا للجرائد، كان يرغب دائمًا بمعرفة ما يجري في العالم، مع أنّ معظمه كان يزعجه. كان يُفكّر مُطوّلًا في المظالم الجسيمة في عصره؛ إعدام الفوضويين في شيكاغو، الحادثة التي بالكاد يذكرها، وقضيّة دريفوس. لقد تناقشنا كثيرًا في القضايا التي كنا نقرؤها لكننا لم نتشاجر أبدًا. المشكلة الوحيدة التي واجهتها مع بليك هي قيامه بحصّتي من العمل. اتخذ من حالتي الصحيّة ذريعة ليتولّى جميع المهام الشّاقة، وبعد فترة طويلة تعافيتُ وأصبحتُ بقوّته. أحضرت معي كتاب قيصر، وكنت قد قطعت وعدًا للأب دوتشين بقراءة مائة سطر كلّ يوم. رآني بليك أقرأ وجعلني أفسّر الأشياء المبهمة بصوت عال. قال لي لو أنني تعلّمت اللاتينيّة فيما مضى، لم أكن لأضطر للقيام بأيّ عمل على ظهري مثل الحمار طوال حياتي. كان يُقدّر التعليم على نحو عظيم، لكنه اعتقد أنه صنف من الأهواء الذي يجعل المرء يعيش دون عمل. كان معنا كتاب روبنسون كروسو، وكتاب رودي المفضّل «مغامرات جوليفار» الذي لم يمل منه أبدًا. وفي أواخر شهر أكتوبر، قدِم راب، رئيس العمّال، ليرافقنا إلى المخيّم الشتويّ. مكثَ بليك مع القطيع على بُعد خمسة عشر ميلا إلى الشّرق، حيث العُشب ما يزال جيّدًا، وخرجنا أنا وراب لتهوية الكوخ الخشبي، ومضينا بعيدًا لتخزين مؤونتنا الشتوية.

هي الغرفة المخصصة للعب البوكر

تعبير يستخدم للتحقير.

تشير مكسيكو القديمة إلى إسبانيا عادة.

الفصل الثاني

يقع الكوخ الخشبي في بستان صنوبر صغير، على بُعد ثلاثين ياردة إلى الخلف من نهر كروزادوس، مُفتوحًا من الجهة الجنوبية، ومحميًّا بتلة منخفضة من جهة الشمال. نما عشب الجراما حتى بلغ عتبة الباب، كانت الأرانب تركض، والجنادب تصطدم بالباب عندما توقّفنا ونظرنا إلى المكان. لم يكن هناك فضلات حولنا، كان المكان نظيفًا مثل منزل كلب المروج. لم يكن ثَمَّة مبانٍ ملحقة، باستثناء زريبة لأحصنتنا. كان سفح التل خلفنا رمليًّا، تغطيه شلحات طويلة من صبّار قرن الغزال، لكن من الجنوب لم يكن ثمّة شيء سوى العشب، مع خطوط من شجيرات الأرنب الصّفراء البرّاقة. وعلى طول النّهر، كانت أشجار الحور القطني والحور الرجراج قد أصبحت ذهبيّة اللون تمامًا. بمحاذاتنا، وفوقنا مباشرة، تنتصب الميسّة، كتلة صخرية بنفسجية اللون، يغطيها شجر البطم الأحمر، والحور الأصفر في صدوع المنحدرات العالية. ومن الكوخ، في الليل والنهار، يمكن سماع النّهر يهدر بعنف فوق الصخور من المكان الذي حتّ فيه منعطفًا حول سفح الميسّة. كان مكانًا جميلا حتى ليشعر المرء أنه يرغب في البقاء هناك إلى الأبد.

ساعدتُ راب في فتح مصاريع النوافذ الخشبيّة، وكنَسْنَا الكوخ، ووضعنا بطانيّات نظيفة على الأسرَّة، وعبّأنا شرائح لحم الخنزير المُقدّد والقهوة والمعلّبات على الرفوف خلف موقد الطهي. أعترف أني كنت أتطلّع للطهي على موقد حديديّ بأربعة ثقوب. وضّح لي راب أنه لن يكون بإمكاننا أنا وبليك التمتّع سوية بكل هذه الرفاهية في آن معًا. أراد أن يبقى القطيع على مسافة منّا إلى الشمال طالما أنّ العشب ما يزال يانعًا هناك. ونتناوب أنا ورودي في الأمر، أحدنا يخيّم بالقرب من القطيع والآخر ينام في السرير.

«لا توجد مراعٍ كافية هنا ليقضوا شتاءً طويلًا» أردف قائلاً، «والأكثر أمانًا هو إبقائهم يرعون أعلى في الشمال قدر الإمكان. إلى جانب ذلك، في حال أحضرتهم إلى هنا سيكون الطقس دافئًا جدًّا، سيجفلون، وفي هذه الحالة ستكون الميسّة القابعة هناك مشكلة، لأنهم سيسبحون في النهر وينطلقون باتجاهها، وهذا آخر مشهد يمكنك رؤيتهم فيه على الإطلاق. لقد فقدنا الكثير من الحيوانات بهذه الطريقة. كانت الميسّة تعجّ بالماشية المنفلتة منّا، وحتّى

الآن ثمّة مجموعة لا بأس بها من أعداد البقر البريّ قابعة هناك. ومع هبوب الرياح، تشتمّ الأبقار رائحتها وتنطلق باتجاه النهر.

سألته إن كان أحدهم قد أقدَم على استرداد الحيوانات المفقودة.

حدّق راب فيّ، وقال: « من تلك الميسّة؟» لم يبلغها أحد من قبل حتى الآن. فالجروف تبدو مثل قاعدة النّصب، تلتف حولها من جميع الجهات. الطريق الوحيد إلى هناك هو عبر ذلك الوادي العميق الموازي لسطح الماء، في النقطة التي ينعطف عندها النهر. لا يمكنك بلوغها عبر ذلك الطريق، لأن النهر عميق لدرجة يصعب خوضه، وجارف لا يمكن السباحة فيه. أوه، لقد اعتقدت أن الحصان يمكنه السباحة فيه، بما أن القطيع يسبح فيه، لكن لم أرغب أن أكون أنا مَن يحاول».

عقّبتُ بقولي أنّي وضعتُ الميسّة نصب عينيّ طيلة الصيف، وعزمت تسلّقها.

«لا تفعل هذا وأنتَ تعمل لدى شركة سيتويل، لا تتهوّر! وإذا كنت من الأولاد الذين يقومون بأيّ حماقة من هذا النوع، فسأطردك على الفور! ستُكسّر عظامك، ونخسر القطيع بسببك. عليك مراقبتهم عن قرب، كي لا يذهبوا بعيدًا، إنّني أحذّرك. لولا وجود الميسّة لكان هذا المكان أفضل مرعى شتوي في نيو مكسيكو».

بعد أن غادرنا كبير العمّال، نعمنا بعيش رغيد وطقس جميل؛ أيام مُبهجة ومشرقة وليالٍ صافية وباردة جدًّا. توجّهنا بالقطيع صوب الشمال والشرق وتناوبنا على العناية به. ففي الوقت الذي يكون فيه أحدنا مع القطيع، يكون الآخر قد نال قسطًا من النوم في الكوخ وأعدّ الطعام. كانت الميسّة جارتنا الوحيدة، وأقرب شيء يمكن بلوغه، والأكثر إثارة بالنسبة لنا. لم تكن مجرّد نتوء عديم الملامح كما تبدو من بعيد. فهي تبدو في الأفق مثل مجسّم لوحش كبير راقد؛ القمة من جهة الشمال أعلى من الجوانب المدوّرة التي يحيط بها النّهر. يمكن الاعتقاد ببساطة أن الطرف الشمالي لا يمكن اجتيازه- لأنّ الجروف شديدة التحدّر الهابطة من القمّة نحو السهل ارتفاعها أكثر من ألف قدم. أمّا القسم الجنوبي، من جهة النهر صوبنا، يبدو سهل البلوغ من الحافة العلوية إلى النهر، وذلك عن طريق الوادي العميق الذي يقسم الكتلة إلى قسمين، ثم ينعطف مرّة أخرى إلى داخل المربع الصلب لذلك لم يكن مرئياً على بُعد مسافة معيّنة، مثل مسار فأر يدور في قطعة جبن كبيرة. لم يتجاوز هذا الوادي الحدود الصلبة للميسّة، وعليك أن تكون قريباً لترى أنه موجود فعلاً. كنّا مقابل الميسّة من أقصر

جوانبها؛ على ارتفاع ثلاثة أميال فقط، من الشمال إلى الجنوب، لكن ارتفاعها من الشرق والغرب بلغ ضعف تلك المسافة تقريبًا. حتى وإن كانت القمّة مُشجّرة فلم يكن بالإمكان رؤيتها ـ كانت شاهقة جدًّا فوقنا ؛ في حين أنّ الجروف والوديان على جوانب النهر كانت مُهدّبة بأحراج الحور الرجراج الجميلة الوارفة، والصنوبر والقليل من شجر الأرز الأسمر القابع في الهواء مثل حدائق بابل المعلّقة. وفي ساعات محددة من النهار، تميل بقدر كبير أشجار الأرز تلك على الصخور، لتكتسي بلون الجروف الزرقاء ذاتها. يُشرق الضوء هناك قبل أن يصل إلينا بوقت طويل، فعندما كنتُ أنهض في الفجر وأنزل إلى النهر لأجلب الماء، يكون مخيّمنا باردًا ومظلمًا، لكن قمّة الميسّة تكون في هذه الأثناء متوهجة مع شروق الشمس، وتكون جميع أشجار الأرز النحيلة على امتداد الصخور نحاسية اللون، مثل رقائق الذهب الملطخة.

كانت تلوح بعض الصباحات فوق النهر المعتم مثل جبل بركاني مُشتعل. لقد اختصرت الميسّة مدّة النهار إلى حدٍ كبير. فالشمس تحتجب خلفها باكرًا بعد الظهر، ومعسكرنا يقع في ظلّها. وبعد لحظات، يبدأ لون الغروب بالإشعاع من خلفه. وتظهر الميسّة مثل صخرة ضخمة بلونها الغامق المُزرق في مواجهة سماء متوهجة.

لا عجب أن الشيء الذي أربكنا وأغرانا؛ كان دائمًا أمامنا، وكان يتغير على نحو دائم. ولطالما كانت العواصف تلتف من خلفها وتنقضّ علينا مثل نمر دون سابق إنذار. يختال الضوء حولها وينغرز فيها ممّا جعلنا نتوقع دائماً أنّ الأجمة ستشتعل. لم أسمع في حياتي أبدًا صوت الرعد قويًّا إلى هذه الدرجة كما كان هناك. اعتقدنا أن للميسّة نفسًا من تردد الصوت، ولذلك كان عاليًا. بيدَ أنّ الجروف التي أرجعت الصوت إلينا لا بدّ أنّها مليئة بالوديان والكهوف العميقة وهذا ما يفسّر الهدير الطويل والدويّ الذي يعقب الصخب الذي يُحدثه الرّعد. فبعد أن ينتهي الانفجار في السماء، يستمر الصوت في الانبعاث من الميسّة مثل صوت الطبل، فتشعر وكأنها تهذر وتصدر إزعاجات.

في أحد الظهريات، كنتُ خارج الكوخ أصطاد ديكًا روميًّا. ومع غروب الشّمس صادفت بحرًا من أزهار الأقحوان الأصفر واليانع، تتخللهم أشعة الشمس العمودية، مُضفية شكلًا مميّزًا لمحيط الأرض. لاحظتُ عددًا من المتاريس المستقيمة، مثل الأخاديد المحروثة، تجري في قاع النهر. كان قد تأخّر الوقت على معاينتهم. قطعتُ شُجيرة صفصاف وعلّقتُ

غُصنًا على أحدها لتمييزها. وفي اليوم التالي، تناولتُ رفشًا ونزلت باتجاه الأرض المزروعة أقحوان، وحفرت حول التربة الرملية. صادفتُ أنبوب ريّ قديم، لا لبس فيه، مُترا صف بحصى قاسية وملساء، وإسمنت طينيّ، مع فتحات تصريف تسمح للمياه بالتدفّق إلى الخنادق. وعلى امتداد هذه المصارف اكتشفتُ بعض القطع الفخاريّة المكسورة، ورؤوس سهام، ومعول حجري مصقول وأنيق جدًّا.

لم أعد إلى الكوخ في تلك الليلة، لكنني أخذت العيّنات إلى بليك، الذي كان ما يزال في الشمال مع القطيع. وبالطبع، كنّا نحن الاثنين نعلم أن الهنود عاشوا هنا على امتداد هذه الأرض، لكننا متيقّنون أنهم لم يستخدموا المعدات الحجرية منذ أمد بعيد. لا بدّ أن مستعمرة من هنود بويبلو عاشوا هنا في العصور القديمة: مقيمين دائمين، مثل هنود تاوس والهوبس، وليسوا متجوّلين مثل ناڤاجوس.

بالنسبة للبشر الذين يعيشون في عزلة لوحدهم، مثلنا، ثمّة ما يثير الدهشة فيما يخص إيجاد أدلة تؤكّد على وجود النشاط البشريّ والعناية بالتربة في منطقة فارغة. يبدو الأمر وكأنه رسالة ما، تجعلك تشعر بشيء مختلف تمامًا حيال الأرض التي تمشي فوقها كل يوم. لقد أحببتُ المرعى الشتوي أكثر من أي مكان أقمت فيه على الإطلاق. لم أخرج من باب الكوخ فقط لجلب الماء الذي لم أكن أشعر أنّه لذيذ ومنعش في أحيائنا الدافئة، أو لأستكشف النهر والميسّة القابعة هناك منذ الأزل، والتي تشتعل قمتها مثل شعلة نار، بل أردتُ أن أرى كيف تبدو الأشياء من الجانب الآخر، وفي الحال أخذتُ إجازة وخضتُ النهر شمال مخيمنا حيث كان عريضًا وضحلًا. تجوّلتُ بعيدًا حول الميسّة، حتى تراءى النهر أمامي يتدفّق أسفل الجهة الجنوبية.

في تلك الجولة، توصلت لفكرة أقرب عن تكوينها الحقيقي؛ وهي أن جميع الطرق المحيطة كانت جروفًا من الصخر الأزرق الصلب، بنفس درجة التحدّر، لكنها تمتزج في بعض الأماكن بحجر أكثر نعومة. وعلى امتداد هذه الصخور الناعمة، يوجد قنوات مائية عميقة وجافة والتي يمكن بالتأكيد تسلقها إلى أبعد نقطة فيها، لكنها لا تؤدي إلى أي مكان في قمّة الميسّة. بدَتْ القمّة وكأنها بلاطة واحدة وضخمة لصخرة صلبة جدًّا، تتموضع فوق الكتلة الخليطة للقاعدة، مثل سطح طاولة رخامية قديمة الطراز. القنوات تالفة بسبب المياه المتدفقة من مئات الجروف المستقرة، لكنها تنتهي دائمًا أسفل هذه الحافة الصخرية

الضخمة، التي تنتأ بفعل التعرية مثل لوح من الغرانيت. من الواضح أن السبب في تعذّر بلوغ الهضبة المنعزلة والشديدة التحدّر هو هذه الطبقة العليا الثابتة. عُدت أدراجي إلى المخيّم ذلك المساء، مُقتنعًا أنه في حال تسلّقنا الميسّة يومًا ما، فعلينا أن نسلك الطريق الذي عبرته الماشية، عبر النهر وصعودًا إلى الوادي الوحيد الذي انهار إلى مستوى المياه.

الفصل الثالث

جلبنا القطيع إلى أسفل إلى المرعى الشتوي في أواخر نوفمبر. وفي مطلع ديسمبر، قدِم رئيس العمّال بمُؤن وأطعمة وافرة من أجل عيد الميلاد. أحضر معه هذه المرّة شحنة فاخرة، ورجلًا مُسنًّا، هزيلًا ومثيرًا للشفقة، اصطحبه معه من تاربين، وهي بلدة على خط السكة الحديدية تبعد عنّا ثلاثين ميلًا إلى الشمال الشرقي، المكان الذي اشترى آل سيتويل مؤونتهم منه. كان هذا العجوز الإنكليزي منبوذًا، واسمه هنري أتكينز. عمِل خادمًا، ومُمرّضًا في مستشفى، وطبّاخًا، ومُضيفًا في شركة أنكور لاين للسفن[87]. ومؤخرًا كان يطبخ لمجموعة أغنام ترعى في مراعي المنطقة بعد أن أصبح وجودها غير مرغوب به. لقد قاموا بعمل كريه وهذا ما عجّل في طردهم.

حطّت رحالهم عند العجوز هنري في تاربين حيث صرَفَ هناك كلّ مدّخراته. وعندما أقلّه راب معه إلى هنا، كان يعيش على المساعدات.

«لقد أخبرته أنه لا يمكننا أن ندفع له أيّ شيء» قال راب موضّحًا. « لكن في حال أراد البقاء هنا وإعداد الطعام للولدين ريثما أقوم برحلتي القادمة، سيجد سقفًا يؤويه والكثير من الطعام في متناول يده. كان ينام في إسطبل العلف في تاربين. قال إنّه طبّاخ جيّد، وأعتقد أنّه قد يُضفي البهجة على أجواء الكريسماس. لن يُزعجكما، فليس لديه أيّ من أساليب المتسكعين الوضيعة- فأنا أعرف المتسكّع من رؤيتي له . وعندما آتي في المرة القادمة سأحضر له بعض الملابس القديمة من مزرعة الماشية، وبإمكانك طرده متى تشاء. لا يملك سوى حزمة الجرائد تلك، ولا يوجد في داخلها سوى الأحذية- زوج من الجلد اللمّاع، وزوج رياضيّ. الشيء المهم، هو إياكما والتهوّر، لأيّ سبب كان، وتركه لوحده مع القطيع. ولا حتى لساعة. أحذركما، فهو لا يملك القوّة والوعي الكافيين».

باتت حياتنا عبارة عن إجازة بعد أن تعرّفنا أنا وبليك إلى هنري العجوز. كان طبّاخًا ماهرًا ومُدبرًا جيّدًا لشؤون البيت. لقد حافظ على نظافة الكوخ حيث كان يلمع مثل مسرح؛ زيّنه بأغصان صنوبر البا ينون، وقصّ الجرائد بأشكال بارعة ليزيّن بها رفوف المطبخ. لقد تعلّم ترتيب أسرّة الأطفال عندما عمِل ممرّضًا في مستشفى، وقد جعل أسرّتنا تبدو وكأنها أسرّة في

هارفي هاوس. وحتى هذا اليوم لم أجد وصفًا أفضل من هذا. كان إلى حدٍ كبير مثل ولد كبير مهذّب ودمِث؛ بسيط ولطيف مثل طفل. ولطالما تساءلت كيف لشخص بريء ومُسالم جدًّا التكيّف والانسجام، والبقاء على قيد الحياة ما يقارب السبعين عامًا في عالم قاسٍ كهذا. فأيّ شخص يمكن أن يستغله. لم يحمل أي ضغينة تجاه أي شخص أساء له. كما أنّه يتحدّث بمحبة عن المشاهير الذين كان يستضيفهم، والنصائح السخية التي قدّموها له. كان نموذجًا للسلوك الحسن في ذلك المكان، حيث لم يكن بإمكانه تجرّع الويسكي وهو برفقتنا. « كي لا تقولوا أنّ الشّرب نقطة ضعفي» كان يقول معتذراً بين الفينة والأخرى. كان يحلق كل صباح وكان قشيبًا مثل دبوس لامع، وقد تعلّقنا به بكل معنى الكلمة، وأصبحنا ثلاثتنا عائلةً سعيدةً.

وفي كل مرة نُنزل قطيعنا إلى المخيّم الشتوي، كانت الماشية البريّة تظهرُ جلية على الميسّة وتغدو أكثر وضوحًا للعيان. كانت تهبط أغلب الأحيان إلى النهر للشرب والتجوال في المكان، والرعي في ذلك الوادي المنخفض لدرجة أننا بدأنا نطلق عليه اسم وادي البقرة. كانت حيوانات جميلة المظهر أيضاً. كما يمكن للمرء أن يلاحظ المرعى الجميل القابع هناك. كان لدى هنري نظريةً تفيد بأنه يجب أن يكون بمقدورنا استمالتهم إلى طرفنا بالملح. أراد قتل إحداها من أجل أن نحصل على شرائح لحم البقري. وبعد فترة وجيزة من انضمامه إلينا فقدنا بقرتين. فرّوا إلى الميسّة، دون سابق إنذار، كما قال رئيس العمال. شاهدنا بعد ذلك القطيع من مسافة أقرب؛ لكن قبل الميلاد ببضعة أيام، عندما كان بليك يصطاد بعيدًا وكنتُ أنا أرعى، تسللت أربعة عجول صغيرة وممتلئة إلى أسفل وصولًا إلى حافة المياه من خلال الأجمة، وقبل أن أعلم بالأمر كانوا يسبحون في النهر- بدوا وكأنهم يفعلون ذلك دون أيّ عائق على الإطلاق. وثبوا فرحًا على الجانب الآخر، متمهّلين في سيرهم إلى الوادي، ثم اختفوا. غضبتُ لأنهم هربوا بعيدًا عني، وقطعت عهدًا لنفسي بأن أتبعهم وأعيدهم ثانية.

وفي صباح اليوم التالي ابتعدنا بالقطيع بضع أميال صوب الشرق، لتفادي خسارته. اختلقتُ ذريعة لبليك، وعُدتُ أدراجي إلى الكوخ، وطلبتُ من هنري أن يضع لي طعام الغداء. أخبرته بخطتي، لكنني حذّرته من إفشاء السّر، إلاّ في حال لم أعد إلى الديار مع عودة بليك في المساء، يمكنه حينها أن يخبره أين ذهبت.

رافقني هنري نزولًا إلى النهر ليراني عندما أجتازه، وقد أصبح أبرد ممّا كان عليه في الصباح، كبرودة الثلج. كان الرجل العجوز خائفًا من عاصفة ما؛ قائلًا إنه ربّما يفاجئني الثلج؛ لكني عقدتُ العزم، ولم أكن أرغب في تأجيل محاولتي القيام بذلك. حزمتُ بطانيتي وغدائي على كتفيّ، وعلّقت فردتي حذائي حول رقبتي كي تبقيا جافتين، ودسستُ جوربيّ داخل قبعتي، وخُضنا النهر.

خاض حصاني الماء دون أيّ اهتياج، مع أنه ارتجف إلى درجة كبيرة. اجتاز بحذر شديد، وعندما أصبح النهر عميقًا جدًّا، سبحَ دون هلع. دفعنا التيار قليلًا باتّجاه مجرى النّهر، لكني لم أنزلق عن ظهره، بلغنا القاع أخيرًا بعد برهة، ونزلنا بيُسر، لوّحت لهنري بيدي من الجانب الآخر ودخلت الوادي، أركض إلى جانب حصاني لأدرأ البرد.

كان الوادي عريضًا عند حافة الماء، مع أنّه دائري بطريقة ارتجاعية إلى داخل الميسّة بالتواءات حادّة، مُحافظًا على ميزة العرض والاتّساع هذه. لقد كان بالفعل واديًا عميقًا بجوانب منحدرة بلطف، وعِرة وصخرية، لكنها معشوشبة. ثَمّة طريق واضح، لا يمكن التعويل على الأحصنة في إدراك الطريق، لكن يمكنك الوثوق بالماشية في العثور على أسهل طريق ممكن وعبور أخفض المنحدرات. لقد منَحَ الصّخر المزرق والعشب الملوّح بالشمس، تحت السماء بلونها البنفسجي-الرمادي النادر، لونًا لطيفًا جدًّا للوادي بأكمله، مزيجًا من اللون الأرجواني والذهبي الباهت، حيث بدَت أشجار الأرز النامية بشكل متباعد إلى جانب الصخور داكنة ذلك الصباح. ربّما كان الطقس يُنبئ بسقوط الثلج، لكن بالنسبة لي لم أستنشق أنقى من هواء ذلك الوادي على الإطلاق، لدرجة شعرتُ بوخز في فمي وفتحتيّ أنفي مثل وخز الماء المشحون، وبدا كأنه تغلغل قليلًا إلى رأسي مُحدثًا نوعًا من الاسترخاء. وبقيتُ أقول لنفسي أنه كان مختلفًا جدًّا عن الهواء في الجانب الآخر للنهر رغم أنه نقيّ وغير ملوّث لدرجة كبيرة.

عندما تجاوزت ميلًا أو ما يقارب ذلك في هذا الوادي، صادفت واديًا آخر، مفتوحًا من جهة الشمال-واديًا مربّعًا، مختلفًا جدًّا في طبيعته. لا يوجد انحدار ظاهر، والجدران متعامدة ولم تكن مائلة فعليًّا، كان ارتفاعها من ثمانمائة إلى ألف قدم من كلّ الجوانب، كما توصلنا بعد ذلك بالقياس.

كانت الأرض عبارة عن تكتّل من الصخور الضخمة، قطعًا كبيرة من صخرة سقطت من أعلى منذ عصور بعيدة، وأصبحت مُدوّرة وملساء مثل الحصى بفعل حركة المياه عبر الزمن. بعضها كبير بحجم أكوام التبن، حتى أنهم مكوّمين فوق بعضهم الآخر مثل حمولة من الحصى. لم يكن بمقدور حصاني السير على الحصى الملساء، لذلك شددتُ قوائمه، وتقدمتُ بمفردي قليلًا إلى الأمام، لأرى فقط كيف تبدو. كانت عيناي مثبتتان على الأرض- لأن أيّ زلّة قدم هناك قد تؤدي إلى الشّلل.

لقد كان تدافعًا وعرًا لدرجة أنه سرعان ما تبللت ملابسي من غزارة العرق. وعندما توقفت لألتقِطَ أنفاسي، حدَثَ أن لمحتُ على جدار الوادي، أتمنى لو أمكنني إخبارك ماذا رأيت هناك، كما تجسّد أمامي، في ذلك الصباح أوّل مرّة، عبر طبقة من الثلج المنهمر بخفّة.

رأيتُ فوقي، على مسافة بعيدة، على ارتفاع ألف قدم أو نحو ذلك، في مغارة كبيرة على سطح الجرف، رأيتُ مدينة صغيرة من الحجارة، نائمة هناك. كانت أقرب للمنحوتة- شيء يشبه هذا. بدَتْ مُتراصّة مع بعضها وكأنّها مركّبة: منازل صغيرة وباهتة من الحجر، متراصفة بجانب وفوق بعضها البعض، مع أسقف مستوية، نوافذ ضيّقة، جدران مستقيمة، وفي منتصف هذه المجموعة، برج دائري. كان ذلك البرج متناسِقًا على نحو جميل، يزداد توسّعه كلمّا ارتفع فوق القاعدة بقليل، ثم يعود أضيق مرّة أخرى. كان تضخّم البناء يحمل شيئًا من التناسق والقوّة. والبرج هو الشيء الجميل الذي يجمع بين كل هذه البيوت المبعثرة ويجعل لوجودهم على هذا الشكل معنى. كان لونه أحمر حتى في ذلك اليوم الضبابي. وعندما تُشرق أشّعة الشّمس، يصبح بلون أوراق شجر البلوط الشتوية. نما شجر الأرز وسوّر حافة الكهف مثل حديقة. كانوا الكائنات الحيّة الوحيدة. فالمكان يوحي بالصمت والسكون، والرّاحة- الراحة الأبديّة. كانت تلك القرية تتموضع مُطلّة على الوادي بوداعة الأبديّة.

لقد أضفَت ندف الثلج المتساقطة، المنثورة على صنوبر البانون، أضفَتْ شيئًا خاصًّا من المهابة. لا يمكنني وصفه. كان أقرب إلى المنحوتة منه إلى أيّ شيء آخر. علمتُ على الفور أنّني أمام مدينة من الحضارة المندثرة، مخفيّة منذ عصور في هذه الميسّة التي يتعذّر الوصول إليها، محفوظة في الهواء الجاف وأشعة الشمس الدائمة تقريبًا مثل حشرة في كهرمان، تحرسها الجروف والنهر والصحراء.

حالما وقفتُ أتمعَّنها، تساءلت إن كان عليّ إخبار بليك بأمرها؛ أم يتوجب عليّ عدم العودة عبر النهر وإبقاء هذا الأمر سرًّا كما أبقته الميسّة. عندما استدرتُ عائدًا في نهاية المطاف، رأيتُ أنه ما يزال هناك وادٍ آخر يتفرّع من هذا الوادي، وكان ما زال فيه قنطرة أخرى، مع مجموعة أخرى من الأبنية. صدمتني الفكرة مثل رصاصة بندقية، أن هذه الميسّة كانت في يوم من الأيام مثل خليّة نحل؛ تعجّ بالقرى الصغيرة المعلّقة على الجروف، وكانت موطنًا لقبيلة عريقة، وحضارة استثنائية.

عندما عُدت في ذلك المساء، كان بليك على ضفة النهر ينتظرني. أخبرته أني أفضّل ألاّ أتحدّث في أمر رحلتي إلاّ بعد الانتهاء من العشاء ـ لأنني مُنهك. أعتقد أنه كان ينوي توبيخي لأنني تسلّلت، لكنه لم يفعل. أدرك فورًا أنّ الأمر جِدِّيٌّ بالنسبة لي، واستدركه على هذا النحو.

بعد العشاء، عندما أشعل كلّ منّا غليونه، أخبرتُ بليك وهنري بقدر كاف من الوضوح كيف حال المكان هناك في الأعلى، وتحدثنا عن الأمر ثانية. فموقع البلدة في الجروف يُفسّر وجود قنوات الريّ. وعلى غرار جميع هنود بويبلو، أقام هؤلاء الناس مزارعهم بعيدًا عن مساكنهم. كانوا بحاجة الصخور لإنشاء حصن، وبحاجة أرض طريّة وقناة ريّ للزراعة.

«وهذا يُثبت» قال رودي، « أن هناك طريقًا في الطرف الشمالي من الميسّة، ويفسّر أنّهم نقلوا محاصيلهم عبر المخاض. ففي حال كان وادي البقرة هذا هو المدخل الوحيد، لما كان بمقدورهم أبدًا الزراعة هنا». اتّفقنا بأن عليه الذهاب إلى هناك مع أول يوم دافئ، ومحاولة العثور على ممر يؤدي إلى المدينة الجرفية كما أسميناها للتوّ.

تحدثنا وتكهّنا حتى بعد منتصف الليل، كانت أمسية عيد الميلاد، وقال هنري أنه من الأنسب القيام بشيء استثنائي. لكن بعد أن ذهبوا إلى الفراش، متعبين مثلي، لم أتمكن من النوم. نهضتُ وارتديتُ ملابسي ومعطفي، وتسللتُ خارجًا لألقي نظرة على الميسة. هبّتْ الرّياح واحتشدَت الغيوم في السماء. كان القمر بدرًا تقريبًا، يشعّ مباشرة فوق الميسّة، حيث لم أره من قبل بهذه المهابة والسكون. تساءلتُ كم من كريسماس جاء وانقضى منذ أن بُني ذلك البرج الدائري. لقد عشتُ في قرى الأكوما والهوبي لكن لم يسبق لي أن رأيت برجًا مثل هذا. بدا لي أنّه يشير إلى شيء مختلف. شعرتُ أن مَن يبني هكذا برج هم أناس أقوياء وطموحين، وأصحاب حسٍّ إبداعي، فتصميم المباني على شكل عنقود، ضمن القوس، والهبوط الدائري

من مداخلها المفتوحة في الهواء الطلق، وجدار الجرف فوقها كانت واضحة في ذهني تمامًا كما الصورة. وحتى إن أغلقتُ عينيّ يمكنني رؤيتها مرّة أخرى في الظلام، كأنني جهاز عرض الصور.

قطَع بليك النهر قبل يوم رأس السنة، لكنه لم يعثر على أيّ طريق للانتقال من قاع الوادي الضيّق ذي الجدران العمودية إلى داخل المدينة الجرفية. تيقّنَ أن قاطني تلك القرية السماوية وصلوا إليها عبر طريق من قمة الميسّة نزولًا، وليس من قاع الوادي صعودًا. استكشف قليلًا الأودية المتفرعة، ووجد أربع قرى أخرى، أصغر من الأولى، تتموضع في أقواس مشابهة.

هذه الأقواس التي كنّا نراها عادة في وديان ضيّقة أخرى. يمكن أن تجدهم في الغراند كانيون[88] وعلى امتداد نهر ريو غراندي. وكلّما كان سطح الصخرة أقسى من الصخرة التي تحته، يبدأ الحجر الأكثر ليونة بالتصدّع والتفتّت جرّاء الطقس في المكان الذي يلامس فيه حافة الصخرة القاسية. يستمر الحال في التفتّت والانهيار حتى استحال هذا الانجراف إلى كهف فسيح مع مرور الوقت. تتموضع المدينة الجرفية في كهف استثنائي كبير. توصلنا بعد ذلك إلى أن طوله ثلاثمائة وستين قدَمًا، ويبلغ ارتفاعه في الوسط سبعين قدَمًا. وكان البرج الأحمر خمسون قدمًا في أعلى نقطة له.

بدأتُ أنا وبليك في وضع الخطط. انتهى اتفاقنا مع شركة سيتويل بحلول شهر مايو، عندما سلّمنا قطيعنا إلى كبير العمّال، كنّا نرغب في الذهاب إلى الميسّة مع ما يمكننا حمله من طعام وعتاد، ومحاولة العثور على ممر أسفل الطرف الشمالي، حيث كنا متأكدين من وجود ممر ما. وفي حال وجدنا ممرًّا أسهل للدخول والخروج من الميسّة، فسنخصّص الصيف وأجور الشتاء لاكتشافها. يمكننا الحصول من تاربين، السكة الحديدية الأقرب، على الإمدادات والمعدات والمساعدة في حال تطلّب الأمر. اعتقدنا أنه يمكننا تدبر أمر العمل بأنفسنا في حال أراد هنري العجوز البقاء معنا. رأينا أنه ليس من الضروري أن نفصح عن الأمر أكثر. وتردَّدنا في الكشف عن تلك الأماكن الجميلة والهادئة أمام العامة الفضوليين. أوضحنا أخيرًا خطتنا لهنري، وأخبرناه أننا لا نستطيع أن نعده بأجور منتظمة.

«لن نبوح بالأمر» قال ملوّحًا بيده. «لن أطلب أكثر من مشاركتكم مغامرتكم. كان طموحي في شبابي الذهاب إلى مصر ورؤية مقابر الفراعنة».

«قد تصيبك نزلة برد شديدة بعبوركَ للنَّهر يا هنري».

حذّره بليك قائلًا: «إنه معبر وعِر، ستشعر بالدوّار وأنت تسبح. عليك أن تسير بهدوء».

«لم أشعر أبدًا بدوّار البحر عندما كنت مساعدًا في مطبخ سفينة أنكور لاين عندما كانت على رأس عملها» أعرَبَ قائلًا «ستجدني قويًّا ونشيطًا حالما أندفع في العمل. فأنا أنحدر من عائلة مكافحة، لكن تأكّد أن بنية جسدي ظلمتني بعض الشيء».

راق لهنري الحديث عن عائلته والعمل الذي قام به، والزمن الجميل الذي عاصره، والحلوى التي صنعتها والدته. «كنّا ثمانية عشر، عندما كنا نجلس حول المائدة»، كان يتحدّث بابتسامة خفيفة ومتأسّفة تعلو وجهه، «أب وأم، عشرة على قيد الحياة، أربعة ميّتون، واثنان أجهضا». أجهدنا مخيلاتنا أنا ورودي في محاولة تخيّل سهرة عشاء عائلية كهذه.

بالنسبة لنا، سار كلُّ شيء على ما يرام، أظهر كبير العمّال اهتمامًا كبيرًا بخططنا حيث أخبرناه بكل شيء. أصرّ علينا البقاء في ذلك المخيّم الشتوي طالما نحن بحاجة إلى مكان نقيم فيه، واستهلاك المؤونة المتبقيّة. وباع حصانين بسعر مقبول جدًّا، من أجل أن يدفع لنا أجرتنا.

شركة سفن، تأسست عام 1855 وتوقفت عن العمل عام 1980.

الغراند كانيون أو الأخدود العظيم: هو وادي سحيق حفره نهر كولورادو في ولاية أريزونا الأمريكية، ويعد من المعالم الأثرية المهمة.

الفصل الرابع

تسلّقتُ أنا وبليك الميسّة لأول مرّة معًا في أوائل شهر مايو. أخذنا كل ما نستطيع حمله من طعام، با لإضافة إلى فأس ومجرفة. تطلّب الأمر عدّة أيام للعثور على ممرٍّ يقودنا من قا ع الوادي الضيّق إلى المدينة الجرفية.

كان ثمّة فجوات فيه؛ تقطعه حوافٌّ شديدة الانحدار حتى يصعب على المرء تسلُّقها. وجدنا بجانب إحدا ها، جذع شجرة أرز، قديم ومجفف، محفو ر فيه فتحا ت في جزءه السفلي، ممّا أوحى لنا باقتراح بسيط؛ قطعنا بعض الأشجار وألقيناها لنغلق بها الفجوات في الطريق. وبحلو ل نهاية الأسبوع، عندما نقُصَت مؤونتنا، قمنا بالجو لة الأخيرة في تسلقنا، وعبرنا فوق الحافة التي كانت أرضيّة المدينة الجرفية.

أمام كتلة الأبنية، كان هنالك فسحة مفتوحة مثل الفناء. وعلى امتداد الحافة الخارجية لهذا الفناء هنالك جدار حجري منخفض. كان الجدا ر متهدّمًا في بعض الأماكن جرّا ء عوامل الطقس، لكن الأبنية ذاتها تتموضع إلى الخلف بكثير تحت الحافة الصخرية، حيث لا تصل إليهم الأمطار. رأيت، أثناء العواصف المطرية، كيف ينزل الماء في الألواح التي تغطي سطح تلك الكهوف دون أن تصل أيّ قطرة ما ء للقرية. لم يكن الفناء مكتظًّا با لنباتات، لأنه لم يكن ثَمَّة تربة. كانت صخورًا جرداء، تنمو بين صدوعها بعض أشجار الأرز المُعمّرة، مسطحة الرأس، والقليل من العشب الباهت. لكن كل شيء بدا نظيفًا ومرئيًّا، وكانت الحجارة، على ما أذكر دافئة عند لمسها، ناعمة وتمنح شعورًا جميلًا.

كانت الجدران الخارجية للبيوت سليمة، إلاّ في بعض الزوايا النافرة المتهدمة. وهي جدران ملبّسة بالحجارة ، يكسوها الطو ب من الداخل والخارج ، ملوّنة بألوا ن فاتحة ، من الورد ي والأصفر الباهت والأسمر. ما جعل حجرة الطابق الثاني تتصل بالحجرة في الطابق الأوّلى هو جذع شجرة أرز متدلٍّ من السقف؛ باستثناء ذلك، يوجد القليل من القمامة والفوضى. وكما أشار بليك أن الرياح والشمس عمّال نظافة جيّدون.

من المؤكّد أنّ هذه القرية لم تتعرّض أبدًا للسلب على يد أيّ عدو. ففي داخل ا لحُجر الصغيرة ثمّة جرار ماء وطاسات سليمة، وحُصر من ألياف اليُكّة[89] على الأرضيّات. تمكنا من

إلقاء نظرة خاطفة على المكان فقط، حيث كان طعامنا على وشك النفاد وعلينا العودة من طريق النهر قبل حلول الظلام. تجولنا بهدوء تفاديًا لإزعاج أيّ شيء- حتى هدوء المكان. ظهرَ، إلى جانب البرج، هنالك ثلاثون مسكنًا صغيرًا منفردًا. وخلف كتلة البيوت، كان هناك ما يشبه الفناء الخلفي، يمتد من طرف الكهف إلى أقصى طرفه الآخر؛ مساحة طويلة، منخفضة وملتوية، تنخفض تدريجيًّا أكثر باتجاه الخلف حتى تلتقي الحافة الصخرية بأرضية الكهف، تمامًا مثل السقف المنحدر للعليّة. كان ثَمّة شفق دائم في الجهة الخلفية، شفق هادئ وظليل، يوحي بامتنان كبير بعد شمس متوهّجة في الفناء الأمامي. عندما دخلناه، تداعى إلى سمعنا صوت تقطير خفيف، فوجدنا ينبوعًا يتدفق من الصخرة إلى داخل حوض حجري، يجري عبر مزراب من الحصى الكبيرة المرصوفة ويُقطّر في الجروف.

لم أتذوّق مطلقًا في أيّ مكان ماءً باردًا كالثلج ونقيًّا كهذا الماء. وبعد ذلك بمدّة طويلة، جاء الأب دوتشين ليقضي أسبوعًا معنا في الميسّة؛ كان يحمل معه دائمًا كوبًا صغيرًا للشرب، وقد اعتاد أن يملأه من النبع ويضعه تحت أشّعة الشمس. بدتْ المياه مثل الكريستال السائل، شفافة تمامًا، دون مسحة بنيّة أو خضراء طفيفة كالتي يحتوي عليها الماء أغلب الأحيان، وبدا مثل الألماس تحت أشعة الشمس. وبجانب هذا النبع، كان هنالك بعض الجرار المائية، من أجمل الجرار التي وجدناها على الإطلاق- والتي أعطيت السيدة بيتر واحدة منهن- مركونات هناك وكأنهن تركنَ بالأمس. وجدنا في الفناء الخلفي، إلى جانب الجرار والطاسات، أشياء رائعة جدًّا: صف من أحجار الطحن، وعدّة أفران طينية تشبه إلى حد كبير تلك التي يستخدمها المكسيكيون اليوم. وكان هناك أيضا فحم وعظام متفحمة، وعلى امتداد السّقف طبقة سميكة من السخام. كان من الواضح أنه يشبه المطبخ المشترك، حيث كانوا يشوون ويخبزون وربّما يثرثرون. وثمة أكواز ذرة في كل مكان، وعرانيس مع حباتها التي ما تزال عليها - مثل الفوشار. وجدنا بقولياتٍ مجففة أيضا، وخيوطًا من بذور اليقطين، وبذور البرقوق، وخزانة مليئة بالأدوات الصغيرة المصنوعة من عظام الديك الرومي. وفي وقت متأخر من ظهر ذلك اليوم، عبرتُ أنا ورودي النهر، وعُدنا إلى كوخنا لنستريح بضعة أيام.

في المرة الثانية التي عبرنا إلى هناك، وجدنا ممرًّا طويلًا متعرّجًا يقود من المدينة الجرفية صعودًا إلى قمة الميسّة- وهو طريق ضيّق يندخل عميقًا في الحواف الحجرية التي تسقف القرية، ثم يسير متراجعًا إلى داخل غابة من الصنوبر الصغير على القمّة. واصلنا سيرنا في هذا

الطريق إلى الحافة الشمالية من الميسّة، وجدنا ما تبقى من طريق قديم يؤدي إلى السهل. لكن جعل هذا الطريق سالِكًا كان مسألة أسابيع، وكان علينا الحصول على عمّال وأدوات من تاربين. إنّه طريق مُشاة ضيّق، بالكاد يتسّع ليمشي فيه بغل بخطى ثابتة، ويلتفّ نزولًا عبرَ الوادي الأسود، ثم ينحدر في دوائر على امتداد سطح المنحدرات المرعبة. وينتهي فجأة في الفراغ على ارتفاع ما يقارب المئة قدم فوق النهر. هنالك حيث انهار جدار من الصخر، جرّاء انهيار أرضي ربّما. كلّفنا هذا الجزء الأخير من الطريق ثلاثة أسابيع من العمل الشّاق، وجزء كبير من أجورنا الشتوية. أبقينا على العمّال فترة كافية لبناء كوخ خشبي ثابت على قمّة الميسّة، بعيدًا قليلًا إلى الخلف من الحافة المتدلية فوق المدينة الجرفية. وبينما كنّا منشغلين بباء الطريق، فتحنا طريقًا مختصرًا من كوخنا إلى أسفل باتجاه المدينة الجرفية ووادي البقرة. وفوق المدينة الجرفية تمامًا، كان هناك صدع في الحافة، شيء يشبه فتحة المجاري، ثبّتنا فيها سلّمًا من جذوع شجر صنوبر موصولين معًا بسلاسل خفيفة، تاركين الشوكة المتفرّعة من أجل موطئ الأقدام. وبنزولنا على هذا السلّم، اختصرنا حوالي ميلين من الطرقات المتعرّجة، وهبطنا مباشرة في وادي البقرة، حيث من المفترض أن نترك أحد الأحصنة يرعى بشكل دائم. وباتخاذنا لهذا الطريق مسلكًا، سنجد في أي وقت مخرَجًا سريعًا من الميسّة- وفي هذا الوقت اعتدنا السباحة في النهر، وكانت ملابسنا المبللة تجفُّ بسرعة في الصيف.

أثبت، بيل هوك، عامل الإسطبل الذي كان يؤوي هنري العجوز عندما كان مشرّدًا، أنه صديق كفء. كان يقُلّ عملنا في الذهاب والإيّاب خدمة لنا، جالبًا لنا مؤونتنا إلى أعلى الميسّة على ظهر بغاله، وعندما اضطّر أحدنا إلى البقاء في المدينة طوال الليل، سمح لنا النوم في حظيرة التّبن الخاصّة به ليوفّر علينا فاتورة نُزل. كان يعلم أن نفقاتنا باهظة وفعل كل شيء من أجلنا بأقلّ سعر.

ومع مطلع شهر يوليو، كانت نقودنا على وشك النفاد تقريبًا، لكننا قد انتهينا من فتح الطريق، ومن بناء الكوخ على سفح الميسّة. أحضرنا هنري العجوز من طرق الأحصنة الجديد وبدأنا أعمال التدبير المنزلي. أصبحنا جاهزين الآن لما يُدعى التنقيب، قمنا ببناء رفوف صخرية واسعة حول غرف نومنا، وهناك وضعنا الأدوات الصغيرة التي وجدناها في المدينة الجرفية. رقّمنا كل عيّنة وكتبتُ في مدوّنة الملاحظات اليومية أين وجدناها والظرف الذي وجدناها به، ومن أجل ماذا استُخدم حسب اعتقادنا. كان لديّ دفتر حسابات لتاجر من

تاربين، وكل ليلة بعد العشاء، بينما يقرأ رودي الجرائد، أجلسُ أنا إلى طاولة المطبخ وأدوّن حساب عمل اليوم. إلى جانب قيام هنري بالأعمال المنزلية، كان مُتحمّسًا لمساعدتنا في «المكافآت الإضافية» كما أسماهم. كان أكثر صبرًا منّا، وكان يحفر بأصابعه نصف يوم ليستخرج إناء من كومة قش دون أن يكسره. وفوق كل هذا، كان العجوز يتمتع بمعرفة واسعة أكثر من أيّ منّا، وكان هذا لمصلحتنا في أغلب الأحيان.

عندما كنّا نعمل في منزل ورديّ باهت، مكوّن من طابقين، وشيء يشبه الشرفة أمام النوافذ العلوية، اقتربنا من خزانة في الحائط في الغرفة العلوية؛ كانت تحتوي على عدد من الأشياء الغريبة، من بينها حقيبة من جلد الغزال مليئة بالأدوات الصغيرة. وسرعان ما قال هنري إنّها أدوات جراحية؛ مبضع حجري، ومجموعة من إبر العظام الدقيقة، وملقط خشبي، وقسطرة.

شيء واحد عرفناه عن هؤلاء الناس وهو أنهم لم يبنوا مدينتهم على عجل. كل شيء يُثبت صبرهم وتروّيهم. فالعوارض المصنوعة من شجر الأرز تمّ قطعها بفؤوس حجرية، وفركها بالرمل لتنعيمها. كما كانت الأعمدة الصغيرة المتموضعة والمثبّتة للأرضيّة الطينيّة في الغرفة العلوية مصقولة بنعومة. كانت عتبات الأبواب مُثبّتة بعناية (والأبواب عبارة عن بلاطات حجرية مثبّتة في أماكنها بقضبان خشبية داخل مشابك إغلاق). كان الصلصال الطيني الذي يغطي الجدران الحجرية ملوّنًا، وبعض الحجرات مزخرفة بنقوش هندسية من الجص، لونًا تلو الآخر. وفي أحد الغرف حواف ملوّنة، وخيام صغيرة، مثل الخيام الهندية، بلون أحمر مدهش.

لكن الشيء الرائع في مدينتنا، الشيء الذي جعل العمل ممتعًا هناك، ولا بدّ أنه جعل العيش ممتعًا أيضا، هو الموقع. فالبلدة معلّقة مثل عش طائر في الجرف، تُطِلُّ على الوادي الضيّق في الأسفل، وعلى الوادي الأوسع، الأبعد، الذي سمَّيْناه وادي البقرة، في مواجهة مدى مفتوحٍ من الهواء النقيّ. إنّ الأناس الذين تحلّوا بالصّلابة للبناء هناك، والذين عاشوا يومًا بعد يوم ينظرون باستخفاف إلى هذه العظمة وقد جابوا هذه الممرّات الخطِرة ذهابًا وإيابًا، لا بدّ أنّهم، كما قلنا مرارًا لبعضنا، كانوا شعبًا رائعًا. لكن ماذا حلّ بهم؟ ما الكارثة التي ألمّت بهم؟

لم يذهبوا بعيدًا، لأنّهم لم يأخذوا شيئًا من مقتنياتهم، ولا حتى ملابسهم. أوه، نعم، لقد وجدنا ملابسًا، أحذية مصنوعة من اليُكة[90]، وشيئًا بدا أنه قماش قطني، منسوج بالأبيض والأسود. لم يكن صوفًا أبدًا، لكنها جلود غنم مدبوغة مع الفراء التي فوقهم. ربّما كانت أغنامًا جبليّة؛ فالميسّة مليئة بهم. تحدثنا في أمر إطلاق النار من أجل أن نحصل على اللحم لكننا لم

نفعل أبدًا. فعندما يلوح خروف جبليّ على الحافة بارتفاع مئات الأمتار فوقك، بقرنيه البوقيّان، يوحي بشيء نبيل- فهو يبدو كالكاهن. لم نرغب أبدًا في إطلاق النار عليهم وجعلهم يجفلون. كان يروقنا منظرهم. أطلقنا النار على بقرة بريّة عندما أردنا لحمًا طازجًا.

وفي النهاية، صادفنا أحد السكّان الأصليين- لم يكن هيكلًا عظميًّا، بل جسدًا بشريًّا مُجفّفًا لامرأة. لم تكن في المدينة الجرفية، بل وجدناها في مجموعة صغيرة من البيوت عالقة في قوس مرتفع أسميناه عشّ النسر. كانت متموضعة على حصيرة من اليُكة، مغطّاة بالخِرَق بشكل جزئي، وقد جفّت إلى مومياء في ذلك الهواء النقي للماء العذب. خمّنا أنها قُتلت؛ فثمّة جرح كبير في خاصرتها، والأضلاع ناتئة من اللحم الجاف. فمها مفتوح كما لو كانت تصرخ، وحافَظَ وجهها رغم مرور كل تلك السنوات على سكرة الموت المرعبة. جزء من أنفها كان مفقودًا، لكن أسنانها موجودة ولم تفقد أيًّا منها، وشعرها أسود كثيف وخشِن. وأسنانها بيضاء وعلى استقامة واحدة وبيضاء، وبالكاد تكون مهترئة وهذا ما جعلنا نعتقد أنها كانت شابة. أسماها هنري الأمُّ حوّاء، وناديناها نحن كذلك. قمنا بلفّها ببطانيّة، وأبقيناها في حجرة في المدينة الجرفية مع عناية فائقة.

نعم، لقد وجدنا بعد ذلك ثلاثة أجساد أخرى. وفي أحد الأيام، وبينما كنّا نعمل في المدينة الجرفية، وجدنا لوحًا حجريًّا في إحدى نهايتي الكهف، التي بدت أنها تؤدي بشكل مباشر إلى الصخرة. كانت مثبتة بالإسمنت، وعندما أزحناها، وجدنا أنها تُفضي إلى حجرة صغيرة ومُظلمة. وفي هذه الحجرة ثمّة منبر من أعمدة جميلة من شجر الأرز، مصفوفة جنبًا إلى جنب، لكنها تعرّضت للتكسير. وفي هذا الخراب، يوجد ثلاثة أجساد، رجل وامرأتان، ملفوفين بألياف اليُكّة، جميعهم في الوضعية ذاتها ومن الواضح أنّه جرى تحضيرهم للدفن. كانوا أجساد عجائز، وبحسب توقعاتنا أنهم من كبار السّن الذين كانوا يُتركون لوحدهم عندما نزلت القبيلة للعيش في فصل الصيف، فهم ماتوا أثناء غياب أهل القرى، ووضعوا في قاعة الموتى في انتظار عودة القبيلة، ليقيموا طقوسهم الجنائزية. ربّما قام هؤلاء الأشخاص بحرق موتاهم. بالطبع كان بإمكان أي عالم آثار إخبارنا الكثير عن تلك الحضارة بناء على هيئة تلك الأجساد. لكن لم يصل إليهم أي عالم آثار- على الأقل، ليس في هذا الجانب من العالم.

يكية أو اليوكا جنس من النباتات

تبات من الفصيلة الزئبقية.

الفصل الخامس

حلّ الأول من أغسطس، وكان كل شيء يسير على ما يرام معنا. لم نواجه أي مفاجآت غير سارة، وعلى الرغم من أنه لم يتبقّ لدينا سوى القليل من المال، وبالرغم من وجود حساب ادخار غير مستخدم لبليك في البنك في باردي، وكان لدينا الكثير من الإيداعات في تاربين. أبدى التجار هناك اهتمامهم وكانوا ودودين. لكنّ بزوغ القمر الجديد الصغير، الذي بدا بريئًا جدًّا، جلب لنا المتاعب. وبطريقةٍ مروّعة، فقدنا العجوز هنري. منذ البداية، شعرنا بالانزعاج قليلًا من الأفاعي الجرسية[91] ـ التي توجد عمومًا في المقالع الحجرية القديمة والبناء القديم. أخرجنا معظمهم من المدينة الجرفية، ولم نرَ أيّ واحدة هناك لمدة أسابيع. ولكن في أحد أيام الأحد، اصطحبنا هنري وذهبنا في رحلة استكشافية إلى الطرف الشمالي من الميسّة، على امتداد الوادي الأسود. من ثمّ ألقينا نظرة على مجموعة صغيرة من الأنقاض التي لم نلاحظها من قبل، وتدافعنا بِطَيش للوصول إليهم. كنّا على وشك الوصول، وكان هناك امتداد لجدار صخري أملس للغاية، لدرجة أننا لم نتمكن من تسلقه بدون سُلم. كنت الأطول بين الثلاثة، وكان هنري الأخف وزناً؛ كان يعتقد أنه يمكنه الوصول إلى هناك إذا وقف على كتفي. كان يقف على ظهري، رأسه فوق أرضية المغارة مباشرةً يبحث عن شيء يرفع نفسه به، عندما لدغته أفعى من الحافة الناتئة ـ أصابته في منطقة الجبهة. حدث ذلك في طرفة عين، نزل والأفعى معه. وبينما حملناه وقلبناه، بدأ وجهه ينتفخ، وأصبح لونه أرجوانيًا. وفي غضون عشر دقائق، أصابته نوبة هلع، وتطلّب الأمر منا نحن الاثنان حمله ومنعه من القفز في الفجوة. لقد لُدغ في نقطة قريبة من الدماغ لذلك لم يكن في اليد حيلة، استمرت النوبة ما يقارب الساعتين. نقلناه بعد ذلك إلى المنزل، هبط رودي من على السُلم إلى وادي البقرة. امتطى حصانه متوجّهًا إلى الطبيب الشرعي في تاربين. كان الأب دوتشين يلقي موعظة هناك في الكنيسة التبشيرية في ذلك الأحد، وعاد معه.

دفنا هنري في الميسّة. مكث الأب دوتشين معنا لمدة أسبوع بغية البقاء بصحبتنا. كنا على وشك الاستسلام والتوقف عن العمل. بيد أنه كان يخطط للخروج لرؤية اكتشافنا الذي طال انتظاره، وإلهائنا عن مأساتنا. كان يخرج كل يوم للعمل بجدية، اطلع على كل ما قمنا به

وفحص كل شيء بدقة: الفخار، والأقمشة، والأدوات الحجرية وبقايا الطعام. قاس رؤوس المومياوات وأكّد أن لديهم جماجم سليمة. قطع أحد أشجار الأرز المعمّرة التي نمت بالضبط في منتصف الدرب العميق الوعر في الصخر، وعدّ حلقات نمو النباتات تحت المجهر الذي كان يحمله في جيبه. لا يمكنك عدّهم بالعين دون مساعدة، لأنهم ينمون في شق صغير في الصخر كما نمت تلك الشجرة، كان النمو ضئيلًا جدًّا كلّ عام لدرجة أن الحلقات كانت غير مرئية إلا بالمنظار. بلغ عمر الشجرة التي قطعها ثلاثمائة وستة وثلاثين عامًا، ولم يكن من الممكن أن تبدأ النمو في هذا الطريق الوعر إلاّ بعد أن توقفت أقدام الإنسان عن الذهاب والإيّاب هناك.

كيف اندثروا؟ لقد حيّره هذا السؤال أيضا. هل وباء الجدري هو ما أدى إلى ترك الجثث غير مدفونة. قال الأب دوتشين ما تكهّن به بعد ذلك الدكتور ريبلاي في واشنطن بقوله: لقد أبيدت القبيلة، ليس هنا في معقلهم، ولكن في معسكرهم الصيفي، في الأسفل بين المراعي على طول النهر. كان الأب دوتشين يعيش بين الهنود منذ ما يقرب عشرين عامًا، وكان لديه سبعة عشر من هنود البيوبلو في أبرشيّته، ويتحدث عدة لهجات هندية. كان قادرًا أن يشرح استخدام العديد من الأدوات التي وجدناها، خاصة تلك المستخدمة في الاحتفالات الدينية.

في الليلة التي سبقت مغادرته، لخّص نتائج دراسته الأسبوعية، أو شيء من هذا القبيل:

«كان البرجان المربّعان الواقعان على قمة الميسّة، اللذين لم توليهما اهتمامًا كافيًا، مخازنًا للحبوب بلا شك. ويوجد تحت الحجارة والأتربة المتساقطة من الجدران كمية من الذرة المجففة على العِرنوس. لا بدّ أنّ الحياة انتهت هنا في الصيف، لذلك لم تكن غلّة الذُّرة كبيرة، فلم يكن المحصول الجديد مكدّسًا بعد، وكان مخزون حبوب العام الماضي ينخفض. إنّ النتوء الهلاليّ على قمة الميسّة، والذي يمكنك رؤيته بوضوح بين الصنوبر عندما تنخفض الشمس وتجعله بارزًا على نحو جليّ، هو جدار مطمور لمدرج ربما كان مكانًا للألعاب والطقوس الدينية. أنصحك ألا تحفر فيه، ربما يكون هذا هو الشيء الأكثر أهمية هنا، ويجب تركه للعلماء ليُنقبوا فيه.

«ربما كان البرج الذي أعجبك كثيرًا في المدينة الجرفية برجًا للمراقبة، كما توقعت، ولكنني أعتقد أنه بناء على الوضع الغريب لتلك الشقوق الضيقة، التي تشبه النوافذ أنه تم استخدامه للرصد الفلكي. أنا أميل إلى الاعتقاد بأن أفراد قبيلتك كانوا شعبًا متفوقًا، ربما لم

يكونوا كذلك عندما وصلوا إلى هذه الميسّة في بادئ الأمر، لكنهم تمكنوا ضمن شروط حياتية منظمة وآمنة نعموا بها هنا، أن يُطوّروا بشكل كبير فنون السلام. هنالك أدلة في كل ناحية على أنهم عاشوا من أجل شيء أكثر من الطعام والمأوى. كان لديهم تقدير للرفاهية، وقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك. لا بدّ أن حياتهم معقدة للغاية مقارنة بحياة الناڤاجو الرُّحل. ممّا لا شكّ فيه أن ثمّة شعور مختلف يوحي به تصميم ما أطلقت عليه اسم المدينة الجرفية. لم يتم تجميع المباني على هذا النحو بمحض الصدفة، ربّما اقتضت، إلى حدٍ كبير، متطلبات الراحة تصميمًا مناسبًا على هذا النحو.

«ثَمَّة مهارة في استخدام الخشب والحجر في بناء المساكن. إن أشكال وزخارف خوابي الماء وآنية الطعام أفضل من أي من مثيلاتها التي أعرفها لدى البيوبلو الحاليين، حتى إنّها أفضل من الفخار المصنوع في أكوما. لقد رأيت مجموعة من الفخاريات البدائية المجلوبة من جزيرة كريت. العديد من الزخارف الهندسية على هذه الجرار ليست متشابهة فقط، وإنما متطابقة إن لم تخني الذاكرة.

«أعتقد أن أفراد قبيلتك كانوا يتمتعون بنظرة ثاقبة أو بالأحرى كانوا عميقي التفكير، جعلوا لأنفسهم مصدر رزق آمن من خلال جني المحاصيل واصطياد الطيور- فالعدد الكبير لعظام وريش الديك الرومي دليل على أنهم قاموا بتدجين الديك الرومي البري. وبوجود الحبوب في مخازنهم، ومطاردتهم للأغنام الجبلية والغزلان، نستدلُّ كيف تطوروا تدريجيًّا من الحالة الوحشية. ومع التنوع المناسب في النظام الغذائي للحوم والخضراوات، تطوروا بدنيًّا وتحسنوا في الفنون البدائية. كان لديهم أنوال وطواحين، وقاموا بتجربة الأصباغ. في الوقت نفسه، من المحتمل أنهم تراجعوا في فنون الحرب، في القوة والشراسة الوحشيتين.

«أراهم هنا، منعزلين ومنقطعين عن القبائل الأخرى، يحددون مصيرهم، جاعلين هذه الميسّة مؤهلة أكثر وأكثر لتكون موطنًا للإنسان، مضفيين شيئًا من النقاء لحياتهم من خلال الاحتفالات والشعائر الدينية. يحترمون موتاهم، ويحمون الأطفال، مُستمتعين بلا شك ببعض مشاعر الألفة والتعاطف لهذا المعقل الذي كانوا فيه آمنين ومرتاحين للغاية في الوقت نفسه، حيث تغلّبوا عمليًا على أسوأ المصاعب التي كان على الانسان البدائي أن يخشاها. ربما كانوا متقدمين إلى حد كبير بالنسبة لوقتهم وبيئتهم.

«ربما تم القضاء عليهم، وإبادتهم تمامًا من قبل بعض القبائل الهندية البربرية المتجولة والتي لا تتحلى بأيّ فضائل أو أواصر ألفة، ومن قبل بعض الأقوام الذين داهموهم في معسكرهم الصيفي وبطشوا بهم بسبب جلودهم وملابسهم وأسلحتهم، أو لمجرّد حب القتل. أنا متأكد من أن هؤلاء الغزاة الوحشيين لم يعلموا أبدًا بوجود هذه المائدة الصحراوية «الميسّة»، المكتظة بالمساكن مثل خلية نحل. لو جاؤوا إلى هنا، لكانوا دمروا كلّ شيء، قتلوا، ومضوا في سبيلهم.

«ما لا أستطيع فهمه هو عدم عثورك على بقايا بشرية أخرى. فالجثث الثلاث التي عثرت عليهم في حجرة الدفن تم تجهيزهم للدفن من قبل كبار السن الباقيين. لكن ماذا عن آخر الناجين؟ ربّما عندما انقضى الخريف، ولم يعد أحد من المراعي، تجمّع كبار السن معًا، وذهبوا بحثًا عن أفراد قبيلتهم، ولقوا حتفهم في السهل.

«أشعر مثلك، بإجلال لهذا المكان، حيث شقّت الإنسانية طريقها من أصعب بداياتها وانتزعت نفسها من بِركة الوحشية، إنّها بقعة مقدسة. كان شعبك منعزلًا هنا دون تأثير أو محاكاة أي شعب مماثل، وبدون حافز أيضا، ولكن مع بعض التوق الفطريّ إلى النظام والأمن، احتشدوا هنا في هذه المائدة الصحراوية وأضفوا الطابع الإنساني عليها».

اتّفق الأب دوتشين بشدّة مع بليك على وجوب ذهابي إلى واشنطن وتقديم تقرير ما إلى الحكومة، حتى يتم إرسال الخبراء المناسبين لدراسة الرّفات التي وجدناها.

قال: «عليك الذهاب إلى مدير مؤسسة سميثسونيان. سيرسل لنا عالم آثار يوضح كل ما هو غامض. سوف يحيي هذه الحضارة بطريقة علمية، ربما بهذه الطريقة تلقي الضوء على بعض النقاط المهمة في تاريخ بلدك».

بعد أن غادرَنا الأب دوتشين، بدأنا أنا وبليك في وضع خطط واضحة لرحلتي إلى واشنطن. كان على بليك أن يعمل في السكك الحديدية في ذلك الشتاء ويوفِّر أكبر قدر ممكن من المال، سيتمّ دفع تكاليف رحلتي مما أطلقنا عليه حساب « الجائزة الكبرى»، التي أودعناها في البنك في باردي. وستدفع الحكومة جميع نفقاتنا الأخرى في الميسّة. لمّح رودي كثيراً إلى أننا سنحصل على مكافأة سخية من نوع ما. عندما كنا نكسر أو نفقد أي شيء أثناء عملنا، كان يبتسم ويقول: «لا تهتم، أعتقد أن عمّنا سام[92] سيتسامح معنا».

حظينا بخريف جميل في ذلك العام، معتدل ومشمس كالحلم. كان الطقس ذاته حتى في تلك الأجواء المرتفعة، كان هناك هَبُوب خفيف للرياح، لدرجة أن الورق الأصفر تدلّى من أشجار الحور والحور الرجاج في أواخر نوفمبر. بقينا على الميسّة حتى بعد عيد الميلاد. أردنا أن يجد لدينا عالم الآثار عندما يأتي، كل شيء في حالة جيدة. أزلنا جميع القمامة التي خلّفناها من حفر الأشياء، وقمنا بتخزين جميع العيّنات، حتى المومياوات، في الكوخ الخشبي، وأغلقنا الأبواب والنوافذ قبل أن نغادرها. دوّنتُ كل شيء في مذكراتي اليومية بأدق التفاصيل حتى النهاية، بالإضافة إلى أنني كتبت بعضًا من استنتاجات الأب دوتشين. وتركتُ هذه المذكّرات مخبأةً في الميسّة. تسلقتُ إلى عش النسر حيث وجدنا مومياء المرأة المقتولة التي أسميناها الأم حواء، وفجأة لاحظت وجود خزانة صغيرة وأنيقة في الجدار. وضعت دفتر المذكرات في هذه الكوّة وأغلقتها بالأسمنت. وبالمناسبة، حازت الأم حواء على اهتمام بالغ من الأب دوتشين. ضحك وقال إنّ هذا الاسم يناسبها جدًّا. ولم يعتقد أن الكشف عن سبب موتها قد يوضّح سبب هلاك شعبها. قال بمكر: « أشتم رائحة مأساة شخصية، ربما عندما نزلت القبيلة إلى المخيم الصيفي، كانت سيدتنا مريضة ولم تذهب، ربما اعتقد زوجها أن مرضها يستحق العودة وقد عاد بغتة في إحدى الليالي، ووجدها بصحبة أحدهم وفي وضع غير لائق. وربما يكون الشاب قد فرّ. وهنا يُسمح للزوج في المجتمع البدائي بمعاقبة الزوجة الخائنة بالموت».

عندما بدأ الثلج ينهمر لأوّل مرة في ذلك الشتاء، قلنا وداعاً للميسّة وركبنا الخيول إلى تاربين، استغرق أمر تجهيزي لرحلتي إلى واشنطن عدّة أيام. اشترينا حقيبة سفر (ولم أكن أملك في حياتي أيّ حقيبة من قبل)، وتزّودت بالقمصان البيضاء، ومعطفٍ ثقيل كالرّصاص تقريبًا فقط من أجل البرد، وبدلتين من الملابس. احتال عليّ تاجر لعين بمعطف مطرقة[93] لا بدّ أنه كان مخزّنًا لديه منذ عشرين عامًا. أقنع رودي بسهولة أنه مناسب جدًّا لمناسبات الخروج. أعتقدُ أنَّ رودي توقع أن يستقبلني السفراء- ربما اعتقدت ذلك أيضا.

اقترض لي رودي ستمائة دولار من البنك ليدعمني، واشترى لي تذكرة الرحلة، وبطاقة الحافلة داخل واشنطن. ذهب معي إلى المحطة في صباح اليوم الذي غادرت فيه، ودّعته بمصافحة قوية.

وكان بإمكاني حتى بعد انطلاق قطاري بفترةٍ طويلة من رؤية الميسّة بضخامتها باللون الأزرق عبر الأفق. لم أكن أرغب بمغادرتها، لكنني فكّرت بأنها اعتنت بنفسها بدوني لمئات السنين. عندما رأيتها مرة أخرى، قلت لنفسي، سأقوم بواجبي تجاهها، سأحضر معي رجالًا يفهمونها، ويقدرونها ويخرجون كل أسرارها.

الأفعي المجلجلة أو الجرسية

إشارة للحكومة الأمريكية.

معطف له ذيل.

الفصل السادس

ترجلت من القطار خلف مبنى الكابيتول[94] مباشرة، في صباح يوم بارد ومشرق من شهر يناير. وقفت لفترة طويلة وأنا أشاهد القبة البيضاء في سماء زرقاء متلألئة، تملؤني مشاعر رهبة خالصة. بعد أن تنزهت في المكان ورأيت الحدائق الخضراء جدًّا رغم الشتاء، ومبنى وزارة المالية، ووزارتي الحرب والبحرية، قررت تأجيل عملي لبعض الوقت ومنح نفسي أسبوعًا للاستمتاع بالمدينة. كان هذا أكثر شيء منطقي فعلته عندما كنت هناك. كنتُ سعيدًا بشكل كبير في ذلك الأسبوع.

انتهيتُ من مشاهدة معالم المدينة السياحية، وانصرفتُ بعدها إلى مُهَمَّتِي. ذهبت أوّلًا لمقابلة النائب المسؤول عن منطقتنا، لأطلب خطابات توصية. كان شخصًا ودودًا للغاية، لكنّه قدم لي نصيحة سيئة. لقد كان إيجابيًّا بشأن ضرورة تقديم تقرير للمفوضية الهندية، وأعطاني رسالة إلى المفوض. كان المفوض خارج البلدة، وقد أهدرتُ ثلاثة أيام بالانتظار في مكتبه، واستجوبني الموظفون والسكرتيرات. لم يكونوا مشغولين إلى حدٍ كبير، ويبدوا أنهم وجدوني مسليًا. اعتقدتُ أنهم مهتمين بمهمتي، وما أردته كان إثارة الاهتمام. لم أعرف مدى تأثير هؤلاء الأشخاص- لكنهم تحدثوا كما لو كانوا يتمتعون بنفوذ كبير. كنت قد أحضرت في حقيبة التلسكوب خاصّتي[95] بعض القطع الفخارية الجيدة- لكنها ليست الأفضل، كنت أخشى وقوع حادث ما، لكن بعضها كان نموذجيًّا- وجميع الصور التي التقطتها أنا وبليك. لم يكن لدينا سوى كاميرا كوداك صغيرة، وهذه الصور لم تكن واضحة بما يكفي - بدت الأماكن في هذه الصور مثل أطلال صغيرة قذرة كالتي يمكن للمرء أن يجدها في أي مكان تقريبًا. لم يعطوا أي فكرة عن جمال واتساع المكان، بدا الموظفون في المفوضية الهندية فضوليين للغاية بشأن كل شيء وجعلوني أتحدث كثيرًا، كنت ساذجًا ولم أكن أجيد التحدث بشكل أفضل. ولكن عندما حاول أحد الموظفين هناك إقناعي بأن أعطيه أفضل وعاء فخاري ليجعل منه منفضة لسجائره، بدأت أشك في طبيعة اهتمامهم.

عاد المفوض أخيرًا، لكن كان لديه مواعيد مستعجلة، تسكّعتُ عدة أيام أخرى قبل أن يُقابلني. بعد استجوابي لمدة نصف ساعة تقريبًا، أخبرني أن عمله كان يخصُّ الهنود الأحياء،

وليس الهنود الموتى، وأنه كان على مكتبه إبلاغي بذلك منذ البداية. نصحني بالعودة إلى عضو الكونغرس لدينا والحصول على رسالة إلى هيئة سميثسونيان. حزمت القطع الفخارية وخرجت من المكان، شعرت بحزن شديد. تبعني رئيس الموظفين إلى الممر، وسألني عن المبلغ الذي سأطلبه لقاء هذا الوعاء الفخاري الصغير الذي سلب عقله. قال إنه عديم القيمة في السوق، وسيجد واشنطن مليئة بمثل هذه الأشياء، وأن هنالك صناديق مليئة بهم في المخزن في سميثسونيان ولم يتكبّدوا عناء تفريغها، ولم يكن لديهم أي مكان لوضعهم فيه.

عدت إلى عضو الكونغرس المسؤول عن منطقتنا. لم يكن ودودًا هذه المرة كما كان من قبل، لكنه زوّدني برسالة إلى سميثسونيان، حيث تكرّر الأمر ذاته، لا يمكن رؤية المدير إلا بموعد، وعلى سكرتيره أن يقتنع بأن عملك مهم قبل أن يعطيك موعدًا مع رئيسه. بعد الصباح الأول وجدت صعوبة في رؤية حتى السكرتير. كان مشغولًا دائمًا بمواعيد أخرى. قيل لي أن أجلس وأنتظر، ولكن عندما كان يفرغ من موعده، كان يسارع لتناول الغداء.

كنت أقضي طوال فترة الصباح مع مجموعة من الأشخاص البائسين: فتيات يرغبن العمل على الآلة الكاتبة، رجال مسنّون لطيفون ومهذبون يريدون المشاركة في الاستطلاعات والبعثات الصيف المقبل. وأخيرًا، يخرج السكرتير مرتديًا معطفه، مُسرعًا عبر غرفة الانتظار وهو يقرأ رسالة أو تقريرًا، دون أن يرفع نظره.

شجّعني الموظفون المساعدون في المكتب على المواظبة في المجيء، واستمررت على هذا المنوال عدة أيام، جالسًا طوال الصباح في تلك الغرفة، متأملًا أشكال السجاد، وأحذية المنتظرين الصبورين الذين يأتون مثلي بانتظام. ويومًا ما بعد أن خرج السكرتير، جاءت موظفة النسخ؛ فتاة لطيفة من فيرجينيا، جلست على كرسي فارغ بجوار مقعدي وبدأت التحدث معي. لم تكن جميلة، لكنها سحرتني على الفور بعينيها اللطيفتين وصوتها الجنوبي الناعم. أرادت أن تعرف ماذا بحوزتي في هذه الحقيبة، ولماذا كنت هناك، ومن أين أتيت، وكل شيء عن ذلك. كان قد خرج الجميع تقريبًا لتناول الغداء- بدا أن هذا هو الشيء الوحيد الذي كانوا يفعلونه بانتظام في واشنطن. تحدثت معها مطوّلًا في غرفة الانتظار الخاصة بنا. كان اسمها فيرجينيا وورد.

كانت صغيرة جدًّا، لكنها تتمتع بعينين جميلتين وشخصية لطيفة. بدَت مستاءة بسبب تأجيلي لفترة طويلة بعد مجيئي عدّة مرّات وحتى الآن.

قالت أخيرًا: «دعني الآن أوضّح لك الأمر. إنّ السيد ڤاغنر منزعج من العدد الكبير من الحمقى الذين يهدرون وقته، وهو يرتاب منهم. أفضل طريقة هي أن تدعوه لتناول الغداء معك. سأرتب ذلك. فأنا أضع قائمة مواعيده، وأعلم أنّ غدًا لن يشارك أحدًا على الغداء. سأخبره أنه سيتناول الغداء مع فتى لطيف، عانى مشقة الطريق والقدوم من نيو مكسيكو لإبلاغ الإدارة باكتشاف مُهم. سأخبره بأن يلتقي بك في فندق شورهام، عند الساعة الواحدة. إنه مكلف، ولكن دعوته إلى مكان رخيص لن تجدي نفعًا. وتذكر بأنه عليك أن تدعه أن يطلب الغداء بنفسه. ربما سيكلفك عشرة دولارات، لكنك ستحصل على نتيجة».

شعرت بالامتنان لهذا الكائن الصغير اللطيف- لم تكن أكبر مني. رجوتها في ذلك اليوم أن تتناول الغداء معي ونتجاذب أطراف الحديث.

«أوه، لا!» قالت، واحمرت خجلًا مثل الخشخاش، «لماذا، أخشى أنك تفكر....».

أخبرتها أنني لم أفكر بشيء سوى كم كانت لطيفةً وكم كنت وحيدًا. ذهبت معي، لكنها لم ترغب الذهاب إلى أيِّ مكان مزدحم، وأخبرتني الكثير من الأشياء المفيدة.

قالت: «إذا كنت تريد جذب انتباه أي شخص في واشنطن، ادعُه لتناول الغداء، فالناس هنا يفعلون أي شيء تقريبًا مقابل غداء جيد».

قلت لها: «بالتأكيد لا تقصدين أشخاصًا رفيعي المستوى كمدير هيئة سميثسونيان على سبيل المثال؟ لماذا سيهتم براعي بقر من نيو مكسيكو، بينما يمكنه تناول الغداء مع العلماء والسفراء؟».

كانت تتمتّع بضحكة جنوبية صاخبة بعض الشيء، «ما عليك سوى ذكر اسم فندق مثل شورهام للمدير، جرّب ذلك! يجب أن يكون ثَمَّة شخص ما يدفع ثمن وجبة الغداء، لا يُقدم العلماء والسفراء على هذا الأمر عندما يمكنهم تجنبّه. سيقبل دعوتك، وفي المرة القادمة التي يذهب فيها لتناول العشاء مع وزير الخارجية، سيقدِّم قصة صغيرة ولطيفة عن الأمر، وسيقدّمك بشكل جميل لدرجة أنَّك بالكاد ستتعرف على نفسك».

عندما سألتها ما إذا كان من الأفضل أن آخذ الفخّاريات- كانوا تحت الطاولة بيننا- إلى شورهام ليراها السيد ڤاغنر، ضحكت ضحكة مكبوتة مرة أخرى. «لا تتعب نفسك، في حال تفاخرت بفخاريات شورهام، سيكون ذلك مجديًا أكثر».

في صباح اليوم التالي، عندما وصل السكرتير إلى مكتبه، توقف بالقرب من كرسيي وقال إنّهم أبلغوه بموعده معي الساعة واحدة. وأضاف أنها فكرة: كان منفتحًا أكثر وهو بعيد عن روتين العمل في المكتب.

كان مضى على تواجدي في واشنطن اثنان وعشرين يومًا عندما اصطحبتُ السكرتير لتناول الغداء. كان غداءً فاخرًا، طلبنا زجاجة شاتو ديكيم. لم أسمع أبدًا بمثل هذا النبيذ من قبل، لكني أتذكره لأنه كلّف خمس دولارات. شربت كأسًا واحدًا فقط، وهذا ما أسعده أيضا، لأنه شرب الباقي. على الرغم من أنه كان ودودًا وتحدث كثيرًا، إلا أنني حزنت من أعماق قلبي، لأنه لم يسمح لي بشرح مهمتي على الإطلاق. ظل يخبرني أنه يعرف كل شيء عن المنطقة الجنوبية الغربية. فقد أرسل من قبل مؤسسة سميثسونيان لتشكيل مجموعات من علماء الآثار الأوروبيين في جميع الأماكن البارزة؛ فريجولز وكانيون دي تشيلي، وتاوس، وهوبي بيوبلو. عندما ذهب أحد الأرشيدوقات[96] النمساويين للصيد في سلسلة جبال بيكوس، تم إرساله من قبل رئيسه والسفير الألماني لإدارة الرحلة، وقد نجح في المهمة حتى إن ولي العهد النمساوي منحه هو ومديره أوسمة تقديرًا لخدماته. من ثم اضطررت للاستماع إلى قصة طويلة عن كيفية معاملته من قبل الأرشيدوق، عندما ذهب إلى فيينا مع مديره في الصيف التالي. كان عليّ أن أسمع عن الحفلات الراقصة والاستقبالات، وأسماء وألقاب جميع الأشخاص الذين التقى بهم في قرية الأرشيدوق الريفية. أصابتني الدهشة والخجل من أنّ رجلًا في الخمسين من عمره، رجلُ طاف العالم، وعالِمٌ حاصل على العديد من الدرجات العلمية، يجد الأمر ممتعًا أمام صبيٍّ، صبي ليس لديه سوى هذه الادعاءات المتواضعة، ولا يعرف كيف تؤكل المقبلات الشهّية وينظر إليها كما لو كانت مجموعة من جوز الهند وضعت أمامه بدون مطرقة.

تخيل دهشتي عندما قال لي بلامبالاة وهو يشرب كأسه الليكير:

«بالمناسبة، لقد نجحت في ترتيب مقابلة لك مع المدير، سوف يراك في الساعة الرابعة من يوم الإثنين».

كان ذلك يوم الخميس، قضيت ذلك الوقت لحين قدوم يوم الإثنين في محاولة معرفة المزيد عن نوعية الأشخاص الذين سأجتمع معهم. أقنعت فيرجينيا وورد بالذهاب معي إلى المسرح، وأخبرتني أن الأمر يتطلّب دائمًا وقتًا طويلًا لإنجاز أيِّ شيء مع المدير، وأنه يجب

ألاَّ أيأس، وستكون دائمًا مسرورةً برفع معنوياتي. كانت تقيم مع والدتها، وهي سيدة أرملة، دعوني لتناول العشاء وكانوا لطفاء جدًّا معي.

طوال ذلك الوقت كنت أعيش مع زوجين شابين وقد اهتما بي كثيرًا، حيث كانا مختلفَين عن أي أناس آخرين عرفتهم في حياتي. كان الزوج ذي «المنصب»، كما يقولون هناك، لديه مكانة ما في وزارة الحرب. كم كان يحبطني رؤية مئات الموظفين يتدفقون من هذا المبنى الكبير عند غروب الشمس! بدت حياتهم بالنسبة لي تافهة جدًّا، ووضيعة للغاية.

الزوجان اللذان عشت معهما جعلاني أحكم بطريقة سيّئة على هذا النوع من الحياة. كان محتّمًا عليّ معرفة الكثير عن شؤونهما ولم أتمكن من تجنب الأمر. كان يقيمان في شقة صغيرة مُستأجرة، وأجروني غرفة فيها، كنت محط ثقة بالنسبة إليهما، ولم أستطع تجنّب استراق السمع. طلبا مني عدم ذكر أمر دفعي للآجار، لأنهما أخبرا أصدقائهما أنني في زيارة إليهما. وكان الأمر كذلك في كل شيء؛ لقد أمضيا حياتهما يحاولان المحافظة على المظاهر، والعيش بمستوى يفوق إمكانية راتب الزوج. وعندما لا يُناقشان المكان الذي يجب أن تذهب إليه الزوجة في الصيف، كانا يتحدثان عن الترقيات في قسمه؛ كم يتقاضى الموظفون الآخرون وكيف ينفقون رواتبهم، وكم عدد الفساتين الجديدة التي تمتلكها زوجاتهم. وكان ثمة جدل قائم دائمًا من أجل الحصول على دعوة إلى العشاء أو حفل استقبال أو حتى جلسة لشرب الشاي. عندما تلقّيا مرةً الدعوة التي كانا يخططان لها، طُرح السؤال الرهيب حول ما يجب أن ترتديه السيدة بيكسبي.

أقام وزير الحربية حفل استقبال؛ حفلًا راقصًا مع عرض رائع للأزياء الرسمية الأجنبية. كان كل من السيد والسيدة بيكسبي في حالة ترقب مريعة حتى حصلا على بطاقة. ثم بقيا ولمدة أسبوع، لم يتحدثا عن شيء، سوى ما سترتديه السيدة بيكسبي. قرّرا أنه يجب أن ترتدي فستانًا جديدًا في مناسبة كهذه. اقترض بيكسبي مني خمسة وعشرين دولارًا، واستغل ساعة غدائه للذهاب والتسوق مع زوجته واختيار فستان من الساتان. بدا لي ذلك غريبًا جدًّا، في نيو مكسيكو، يذهب الفتيان الهنود أحيانًا مع زوجاتهم إلى التاجر ليشتروا شالات أو أقمشة قطنية، وكنا نعتقد أن الأمر مهين بعض الشيء. في ليلة الاستقبال، انطلق الزوجان بيكسبي بمرح، مستقلين سيارة أجرة، لأنهما اعتبرا حصولهما على الفستان نجاحًا كبيرًا، لكن الحظ لم يسر على نحو جيد، شخص ما سكب كأس كلاريت على تنورة السيدة بيكسبي قبل

انقضاء نصف السهرة، وعندما عادا إلى المنزل في تلك الليلة سمعتها تنوح وتوبّخه لأنه أظهر استياءَه من ذلك بشكل كبير، وانشغلت طوال المساء بالتحديق في فستانها المتسّخ ولم تشح بنظرها عنه. قالت إنه صرخ عندما حدث الأمر، وأنا لا أشك في ذلك.

كانت كل سيارة أجرة يستقلانها، وكل حفلة يحضرانها أكثر ممّا يمكنهما تحمّله. ففي حال أضاع مظلة، يكون الأمر بمثابة مصيبة حقيقة. لم يكن كسولًا، ولم يكن أحمقًا، وكان عازمًا أن يكون نزيهًا، لكنه كان تحت رحمة هذا النوع البائس من الحياة الإدارية. لم يكن يعرف أي عمل آخر. فهو يعتقد أن العمل في متجر أو بنك هو عمل غير محترم. مَنَحَنِي العيش مع الزوجين بيكسبي نوعًا من الإحباط الذي لم أعرفه من قبل. خلال الأيام التي قضيتها في انتظار المواعيد، اعتدت أن أمشي لساعات حول السياج الذي يحيط بالبيت الأبيض، وأراقب لون نُصب واشنطن التذكاري مع غروب الشمس الفاتن، حتى يحين الوقت الذي يتدفق فيه جميع الموظفين من مبنى وزارة المالية والحرب والبحرية. الآلاف منهم، كلهم تقريبًا أو أقل مثل الزوجين اللذين عشت معهما. لقد بدو لي أشخاصًا مستعبدين، بيد أنهم يجب أن يكونوا أحرارًا. أتذكر المدينة بصورة خاصة خلال أوقات غروب الشمس الجميل، والضبابي، والحزين والأعمدة البيضاء والشجيرات الخضراء، وكان عمود النصب ما يزال ورديًّا في الوقت الذي تبزغ فيه النجوم.

حصلت أخيرًا على موعد مع مدير سميثسونيان. أصغى جيّدًا وكان مهتمًّا، أخبرني أن أعود مرة أخرى في غضون ثلاثة أيام لمقابلة الدكتور ريبلاي، الذي كان مختصًّا ببقايا الهنود في عصور ما قبل التاريخ وقام بالتنقيب عن الكثير منهم. ثم حلّ الوقت الحماسي والمُشجّع بالنسبة لي، وسأل الدكتور ريبلاي النوع الصحيح من الأسئلة، ومن الواضح أنه يعرف عمله. قال إنه يودّ ركوب أول قطار إلى الميسّة. لكن ذلك يتطلّب نقودًا للتَّنقيب، وليس لديه أموال. كان هناك مشروع قانون أمام الكونغرس لاعتمادات الميزانية. علينا الانتظار، يجب عليّ أن استخدم نفوذي مع نائب منطقتنا، أخذ الفخّاريات لدراستهم، (بالمناسبة، لم أستعدها أبدًا).

كان هناك الدكتور فوكس، الذي تربطه علاقة بهيئة سميثسونيان، وكان مهتمًّا أيضا. أخبروني الكثير من الأشياء المفيدة التي كنت بحاجة لمعرفتها، وتركوني معلّقًا دون إجابة واضحة. بالطبع كانوا لطفاء للغاية في استيعاب الكثير من المتاعب مع صبيّ غض. لكن سرعان ما تبيّن لي أن المدير وجميع موظفيه لديهم مصلحة واحدة هي تقزيم بعضهم البعض.

كان من المقرّر أن يكون هناك أحد المعارض العالمية في أوروبا في الصيف القادم، وكانوا يسعَون جميعاً ليتم تعيينهم في لجان التحكيم أو إرسالهم إلى جلسات المؤتمرات الدولية، حيث ستدفع النفقات في الخارج، بالإضافة إلى صرف راتب لهم أيضا. وبالفعل كان هناك فاتورة يـ قدمها ا لكونغرس تـ خصّ هـ يئة سـ ميثسونيان، و لكن كـ ان هـ ناك أ يضا فـ اتورة لمخصصات المعرض، وهي التي اختارها الكونغرس. تركوني معلّقًا لشهري مارس وأبريل، ولم أصل إلى نتيجة بعد كل هذا. أبلغني الدكتور ريبلاي باعتذاره لأنّ المبلغ الذي سمح به الكونغرس لهيئة سميثسونيان لن يغطي رحلة استكشافية إلى الجنوب الغربي.

في ذلك اليوم خرجت معي فيرجينيا وورد، التي كانت لطيفة جدًّا، لتناول الغداء واعترفت لها أنني خُذلت. لقد خاب أملها مثلي، وقالت إن الشيء الوحيد الذي كان يهتم به الدكتور ريبلاي حقًّا هو الحصول على رحلة مجانية إلى أوروبا وأن يكون في لجنة تحكيم، والحصول ربّما على وسام. «وهذا ما يريده المدير أيضا»، أردفت قائلة.

«إنهم لا يهتمُّون كثيرًا بالهنود الذين ماتوا وهلكوا، ما يهتمون به هو الذهاب إلى باريس، والحصول على وسام آخر على ستراتهم».

الشخص الآخر الوحيد الذي كان مهتماً لأمري بالإضافة لفرجينيا هو شاب فرنسي، ملازم ملحق بالسفارة الفرنسية، جاء إلى سميثسونيان، غالبًا من أجل أعمال متعلقّة بهذا المعرض العالمي نفسه. كان لطيفًا ومهذبًا مع فيرجينيا، وقد عرفتني إليه. اعتدنا أن نمشي على طول نهر بوتوماك معًا. اطّلع على صوري وسألني أسئلة ذكية حول كل شيء، وكنت مسرورًا بالحديث معه. كان موقفه رائعًا من كل شيء، كان عميق التفكير، ناقدًا، ومحترمًا، وأنا متأكد من أنه كان سيعود معي إلى نيو مكسيكو لو امتلك المال الكافي. إلاّ أنه كان أفقر مني حتى.

كنتُ خجلًا تمامًا من العودة إلى الديار ورؤية رودي، فقد أفلستُ تمامًا بعد كل الأموال التي أنفقتها، ودون أي نتيجة مقابل ذلك. بقيتُ في واشنطن حتى شهر مايو، محاولًا الحصول على أيّ عملٍ، لجني أجرة المنزل على الأقل. كانت رسائلي إلى بليك مأساوية بعض الأحيان. لو كنت ناضجًا، لكنت احتفظتُ بمشاكلي لنفسي، فهو سهل الإحباط، وكنت أعرف ذلك. وفي نهاية الأمر كان عليّ أن أكتب له لطلب المال بغية العودة إلى المنزل. تأخر الرّد وشرعتُ في كتابة برقية. غادرت واشنطن أخيرًا، أكثر حكمة مما جئتها. لم يكن لدي أي خطط، لم أكن أرغب في شيء سوى العودة إلى الميسة والعيش بحرية واستنشاق الهواء الطلق، وعدم

رؤية مئات الشبّان مرة أخرى بمعاطف سوداء يخرجون من المباني البيضاء. يا للغرابة، إنهم محبطون أكثر من منظر العمال الخارجين من مصنع.

شعرتُ بالإحباط الشديد عندما نزلت من القطار في تاربين ولم يكن رودي في المحطة لاستقبالي. كان الوقت متأخّرًا عصر ذلك اليوم والظلام قد حلّ تقريبًا، وذهبت مباشرة إلى اسطبل تأجير العربات لأسأل بيل هوك عن أخبار بليك. هل تذكر يا بروفيسور هوك الذي قام بكلّ عمليات النقل بالعربة، وكان خير صديق. لقد صافحني بحرارة وقال إنَّ بليك ذهب إلى الميسة.

«أعتقد أنه بات مكسور الخاطر هنا، ففي الفترة الأخيرة بات يشعر بالخجل في هذه البلدة. كما ترى يا توم، لم ينزعج الناس أبدًا من وجود رفاقك في الميسة طيلة الفترة التي كانوا يلعبون فيها دور روبنسون كروزو هناك، وينقّبون عن الأثريات. ولكن عندما تسرّب خبر حصول بليك على الكثير من المال مقابل أشيائك، بدؤوا يشعرون بالغيرة- فقد قيل لهم إنّ الآثار لا تخصُّ بليك بقدر ما تخصُّ الجميع. ستعود الأمور إلى نصابها في الوقت المناسب. فالناس دائمًا هكذا عندما تُصرف الأموال على هذا النحو. لكن في الوقت الحالي، هناك قدر كبير من الشعور بالغبن».

أخبرته أني لا أعرف عمّا يتحدث.

«تعني أنك لم تسمع عن الرجل الألماني، فيشتيغ؟ حسنًا، ثَمَّة مفاجأة في انتظارك لدى رودي! يا له من حظّ لعين! لقد حقق ربحًا من بعض أغراضك الأنيقة».

توسلت إليه أن يخبرني ما هي الأغراض التي كان يقصدها.

«قطعك الأثرية. هذا الألماني، فيشتيغ، أتى إلى هنا؛ اشترى الكثير من الأشياء الهندية من هنا، واشترى تجهيزاتك بالكامل ودفع ثمنها أربعة آلاف دولار. أثارت الصفقة ضجة كبيرة هنا في تاربين. إنَّني لا أعترض، فقد حصلتُ على عمل جيد من خلال ذلك. كانت بغالي مشغولة لمدة ثلاثة أسابيع بتحميل الأشياء من هناك على ظهورهم، حيث اتفقتُ مع الألماني على دفع سعر خيالي. كان لديه صناديق تعبئة، صُنعت في متجر لصنع عربات النقل وأخذهم إلى الميسة، مُحملين بالقش ونشارة الخشب، وقام بتحميل التُحف من هناك. لقد فقدت أحد بغالي أيضا، هل تتذكر جيني؟ حسنًا، كانوا يقودونها إلى الأسفل بصندوق كبير على ظهرها، وساروا في ممرٍ ضيق جدًّا حول نتوء في الجرف فوق الوادي الأسود، وهناك فقدت

توازنها وسقطت في القاع تمامًا، والحِمل فوق ظهرها. على ارتفاع ألف قدم تقريبًا، على ما أظنُّ. لم ننزل أبدًا لمعاينة البغلة، لكن فيشتيغ دفع ثمنها كما يفعل أي رجل محترم».

أتذكر أنني جلست على الأريكة في مكتب هوك، لأنني لم أستطع الوقوف أكثر من ذلك، وبدأت رائحة أغطية الحصان تجعلني أشعر بمرض مُميت. بعد دقيقة، تغيّرت أحوالي مثل فتاة في رواية ما، سحبني هوك إلى الخارج على الرصيف وأعطاني بعض الويسكي من قارورة كانت في جيبه.

عندما شعرت بتحسن، سألته كم مضى على ذهاب هذا الألماني، وماذا فعل بتلك الأشياء.

«أوه، لقد غادر قبل ثلاثة أسابيع، لم يهدر الوقت. لقد عامل الجميع معاملة حسنة؛ لذلك لم ينزعج منه أحد، لكنهم انقلبوا ضدّ شريكك. أخذ فيشتيغ الأشياء مباشرة معه، مُستأجرًا مركبة شحن، وسافر بها مع المقتنيات. أعتقد أنهم يبحرون الآن في المياه، أخذها مباشرة إلى المكسيك. كان من المقرر شحنها على متن مركب فرنسي. يبدو أنه خشيَ مواجهة المتاعب جراء إثارة الفضول في موانئ الولايات المتحدة، أنت تعلم أنه يمكنك إخراج أي شيء من مكسيك العاصمة».

****

لقد سمعت كل ما أريد سماعه، ذهبت إلى الفندق، حصلت على غرفة، واستلقيت دون خلع ملابسي في انتظار الفجر. كان هوك سيقلّني مع حقيبتي إلى الميسّة في وقت باكر من صباح اليوم التالي، كل ما تعرضت له في واشنطن لا يساوي شيئًا مما عشته في تلك الليلة. اعتقدت أن بليك قد فقد عقله فعلًا، لم أشكَّ للحظة أنه كان يقصد خذلاني فعلًا، لكني لعنت غباءَه وافتراضاته، لم أخبره أبدًا ماذا تعني لي تلك الأشياء التي نقّبنا عنها معًا، فالمرء لا يتحدث بشكل صريح عن أمور كهذه. لكن من المؤكّد أنه كان يعلم ماذا تعني لي، فلا يمكن أن يكون قد قضى معي طوال الصيف والخريف دون أن يلاحظ مدى أهميَّتها. ومع ذلك، لم أكن مُدركًا أبدًا، حتى تلك الليلة، أنني أهتم لأمرهم أكثر من أي شيء آخر في العالم.

ومع بزوغ أول ضوء النهار، قفزت من سريري اللعين وذهبت إلى الإسطبل لإيقاظ هوك من مضجعه، تناولنا الإفطار وخرجنا من المدينة بأفضل عربة لديه. ونحن في طريقنا إلى الميسة، حصل عطل، تفتّتت إحدى العجلات اليابسة القديمة إلى شظايا. اضطر هوك إلى فكّ العجلة والعودة إلى تاربين، والحصول على أُخرى. استغرق الأمر وقتًا طويلًا أكثر من المتوقع، كان

قد انقضى نصف فترة الظهيرة عندما وضعني مع صندوق حاجياتي عند أسفل طريق الوادي الأسود. كان كل شبر في هذا الدرب عزيزًا عليّ، وكل منعطف دقيق حول جذور الصنوبر المُعمرة، وكل مسار محفوف بالمخاطر على امتداد سفح الجروف، والتعاريج العميقة التي تُفضي إلى الشجيرات والأرض الآمنة. كانت شجيرات الكِشمِش البري مُزهرة، وكانت رائحتهم في الطريق الذي يشتد صعودًا من جهة الوادي الضيق، تفوح بشدة تحت الشمس لدرجة شعرتُ بالرخاوة والرغبة في الاستلقاء والنوم. كنت أرغب في رؤية كل شيء ولمسه، مثل الأطفال الذين يعودون إلى المنازل بعد غياب طويل.

عندما اندفعتُ إلى قمة الميسّة، تسربّت أشعة الشمس بشكل مائل عبر شجيرات الصنوبر الملتوية، كان الضوء يتغلغل بينهم، أحمر مثل وهج النهار، لدرجة تخال الشجيرات تسبح في الضوء. انتابني مرة أخرى ذلك الشعور الرائع الذي لم أشعر به في أي مكان آخر، الشعور بأنني في الميسّة، في عالمٍ فوق العالم. والطقس، يا إلهي، يا له من طقس رائع! معتدل، واخز، مشرق، حار مع نفحة برودة، يعبق برائحة الصنوبر، وكأنك تتنفّس الشمس، تتنفس لون السماء. وإلى الأسفل، كانت الأرض المنبسطة خلفي، مخطّطة تمامًا بالظلال، وألوان البنفسج، والأرجوان، والبرتقالي المحمر حتى تلتقي بالأفق. وأمامي قمة الميسّة المسطحة، تتناثر عليها بشكل متفرّق أشجار أرز معمّرة، لم تكن أطول مني بكثير، على الرغم من أن جذوعها الملتوية كانت تقريبًا بسماكة جسدي. انطلقتُ صوبها، ظلي الأسود الطويل يمضي قدمًا.

توجّهتُ مُباشرة إلى الكوخ الخشبي، الذي كان على بعد حوالي ثلاثة أميال من المكان، فظهرَ الطريق واضحًا في الأعلى. رأيت الدخان يتصاعد قبل أن أتمكن من رؤية الكوخ نفسه. كان بليك في المدخل عندما وصلت، لم أنظر إلى وجهه، لكنني شعرت أنه ينظر إلى وجهي.

«لا تقل أي شيء، يا توم، لا تلمني حتى تسمع كل شيء عمّا حصل»، قال وأنا أتقدّم نحوه.

«لقد سمعت ما يكفي لما فعلته بي»، اندفعتُ قائلًا: «ما الذي جعلك تفعل ذلك يا بليك، ما الذي جعلك تفعل ذلك؟».

«كانت فرصة نادرة أيّها الفتى، لم يكن ثَمّة وقت لأستشيرك، ثمة رجل واحد من بين الآلاف يريد شراء قطعٍ أثرية ودفع مبلغٍ حقيقيٍّ مقابلها. رأيتُ ماذا أثمرت جهودك في

واشنطن. أعلم أنك فكرت بأرقام كبيرة، وكذلك فكرت أنا، لكن ذلك كان أضغاث أحلام. أربعة آلاف ليس رقمًا سيّئاً للغاية، ولن تحصل على هكذا مبلغ كل يوم. كما أن الرجل تحمّل جميع المصاريف. لماذا كان عليه أن يفعل؟ لقد كان عملًا شاقًّا ومُكلفًا إخراج كل تلك الأشياء السهلة الانكسار من هنا، من تراه سيشتريها، أريد أن أعرف؟ كان علينا أن نحزمها ونُحمّلها ونمضي بها إلى هارفي هاوس، ونبيع كل قطعة بدولار واحد كما يفعل الهنود الفقراء. لقد انتهزت أفضل فرصة قد تحدث لكلينا، يا توم».

لم أَنْبَس بِبِنْتِ شَفَة لأنَّ الكلام لم يعد يجدي نفعًا. وقفت خارج الكوخ حتى استحال الضوء الذهبي إلى أزرق وبزغت بعض النجوم، التي لم يكن بريقها أكثر لمعانًا من السماء الصافية التي يتلألأن فيها، وحامت طيور السنونو فوقنا وهي في طريقها إلى أعشاشها في الجروف. إنّها الفترة التي يعود فيها كل شيء إلى مكانه. وكما اعتدتُ أن أفعل، دخلتُ عبر الباب من التعب، كانت طاولة المطبخ جاهزة للعشاء، وشممتُ رائحة يخنة أرنب تُطبخ على الموقد. أضاء بليك الفانوس وتوسَّل إليّ لأتناول العشاء. لم أذهب إلى المكان المخصص للنوم لأنني كنتُ أعلم أن الأسطح التي نرقد عليها كانت فارغة، سمعت بليك يتحدث معي، مثلما يسمع المرء حديث الآخرين في نومه.

«من كان سيشتريهم غيره» تابع كلامه «يثير الناس الكثير من الجلبة حول أشياء كهذه، لكنهم لا يريدون دفع ما يستحقُّ مقابلها».

عندما أخبرته في نهاية الحديث أن أمرًا مثل بيعها لم يخطر ببالي أبدًا، أنا متأكد أنه اعتقد أنّني أكذب. ذكّرني كيف كنّا نتحدث دائمًا عن الحصول على أموال طائلة من الحكومة.

اعترفت له أنني كنت أتمنى أن نحصل على أجر مقابل عملنا، وربما على مكافأة من نوع ما لاكتشافنا. «لكنني لم أفكر يومًا ما في بيعها، لأنها لم تكن لي لأبيعها ـ ولا لك! إنَّهم ملك هذه الأرض، وهذه الدولة، وملك الشّعب. إنهم ملك فتيان مثلي ومثلك، ممّن ليس لديهم أسلاف آخرين يرثون منهم. لقد قمت ببيعهم إلى بلد لديه الكثير من الأثريات. لقد قمت ببيع أسرار بلدك، مثل دريفوس[97]».

«ذلك الرجل كان بريئًا، لقد كانت تهمة مُلَفَّقة» تمتم بليك، ولم يكن ليفوّت هذه النقطة.

«سواء كان مذنبًا أم لا، فأنت مذنب! إن كان ثمة شخص واحدٌ فقط في واشنطن يمكنني أن أرسل له برقية، وأوقف ذلك الألماني في الميناء».

«هذا هو الأمر برمَّته، لو كان هناك أي شخص في واشنطن يهتم، لما كنت سأبيعهم، لكنك لم تجد أحدًا يهتمّ».

«إذن، كان بإمكاننا الاحتفاظ بهم» أردفتُ قائلًا، «لدي سند قوي، أنا لست فقيرًا لدرجة أبيع فيها القدور والمقالي التي كانت تخص جداتي الفقيرات منذ ألف عام. لقد وضعت كل خططي وأنا عائد في القطار». (لقد كانت كذبة لم أفعل). «عزمتُ على إيجاد عمل في السكك الحديدية والحفاظ على اكتشافنا هنا في هذا المكان، والعودة إليه فيما بعد عندما يتم تسريحي. إنني أفكّر بالأمر مليًّا حتى قبل ذهابي إلى واشنطن. وبعد فترة، عندما ينتهي المعرض ويعود موظفو سميثسونيان من أوروبا، سيأتون إلى هنا دون شك. لقد تعلمت ما يكفي منهم، لذلك يمكنني إكمال المهمة بنفسي».

ذكّرني بليك بأنه عليّ أن أشق طريقي في هذا العالم، وأنني أردت الذهاب إلى المدرسة. «هذا المال في البنك باسمك الآن، وسيمكّنك من الالتحاق بالجامعة، لن تكون عاملًا مياومًا مثلي، وبعد أن تحصل على شهادتك، يمكنك تقاسمه معي».

«هل تعتقد أنني سألمس هذا المال؟» وجهتُ نظرتي إليه مباشرة للمرة الأولى «هذا يعني أنني سرقته. لقد قمت بعملية البيع، خذ ما تريد من المال. أريد أن أطرح عليك سؤالًا واحدًا فقط: هل فكرت يومًا أنَّني كنت أنقّب عن تلك الأشياء من أجل أن أحصّل ما يمكنني تحصيله جراء بيعهم؟».

أوضح لي رودي أنه كان يعلم بأنني مهتم بتلك الأشياء، وأشعر بالفخر حيالها، لكنه كان يعتقد دائمًا أنني كنت أنوي «الاستفادة» منهم، تمامًا كما فعل هو، وهذا ما سيدرُّ بالمال في نهاية الأمر، «كما كل شيء» أضاف.

«لو أنَّ ذلك الشاب الفرنسي اللطيف الذي تعرفت عليه، قد أتى معي إلى هنا، وقدّم لي أربعة ملايين بدلاً من أربعة آلاف، لكنت رفضته. لم أفكر بالمال مطلقًا لأنّ الأمر يخصُّ هذه الميسّة وسكانها. إنّها أشياء بقيت محفوظة بمعجزة عبر العصور، ووصلت ليديّ أنا وأنت، اثنين من رعاة البقر المساكين، بدائيين وجَهَلة، لكنني اعتقدت أنّنا رجال حقًّا لنتحمل

المسؤولية. إنّ مجرّد التفكير ببيع جدَّة كالأم حواء- يعني في المقام الأول أنني أبيع امرأة على قيد الحياة».

«لا تخش شيئًا» قال رودي متجهمًا «لقد أبَت أن تتركنا. لقد مضَت إلى قاع الوادي الأسود وجرّت معها أفضل بِغال هوك. كان عليهم أن يجعلوا صندوقها عريضًا جدًّا، مالت إنشًا واحدًا أو أنها كانت بعيدة كثيرًا عن جدار الوادي».

استمرَّ هذا الحديث المؤلم لساعات، ذرعتُ المطبخ ذهابًا وإيابًا، محاولًا أن أجعل بليك يفهم قيمة هذه الأشياء بالنسبة لي. ولسوء الحظ، نجحت في الأمر، جلس مُتراخيًا على الأريكة، واضعًا مرفقيه على الطاولة، حاجبًا بيديه ضوء الفانوس عن عينيه.

«لا داعي للتّحدّث أكثر في الأمر». قال أخيرًا: «لن تستطيع فهمي، لكني أعتقد أنَّني أفهمك. ربَّما أعدت إلى ذاكرتي شيئًا من الحديث الذي دار في الرَّابع من يوليو، قبل لعبة البوكر بقليل. لم أكن أعرف أنَّك تقدّر تلك الأشياء بشكل مختلف عن أيِّ شخص آخر يمكن أن يسعى مثلًا لمنجم ذهب أو كيس من حجر الفيروز».

«أعتقد أنك أعطيته دفتر يومياتي مع بقية الأشياء؟».

«لا» قال بليك وصوته يزداد كآبة وحزنًا، «إنَّه في عشِّ النّسر، حيث أخفيته. إنه ملكك الخاص. اعتقدتُ أن لدي حصّة في الأثريات التي نقّبنا عنها ـ لطالما تحدثت عنها بهذه الطريقة، لكني أرى الآن أنّني كنت أعمل معك كرجل مأجور، وأثناء غيابك بِعتُ ممتلكاتك».

قلتُ له مرة أخرى أنها لم تكن ملكي ولا ملكه. أخرج شيئًا من جيب قميصه القطني ووضعه على الطاولة. فرأيت أنه دفتر حساب مصرفيّ، واسمي على الغلاف الأصفر.

«وأنت أيضا يمكنك الاحتفاظ به»، قلت: «لن ألمسه أبدًا، ليس لديك الحقّ في إيداعه باسمي، أهل المدينة منزعجون بشأن المال، وسيستخدمون الأمر ضدّي».

«لا لن يفعلوا، ألا تثق بي لإصلاح الأمر معهم؟».

«لا أعرف ما الذي يمكنني الوثوق به معك يا بليك، ولا أعلم ما الذي أتفق فيه معك» قلت له.

نهض وبدأ يرتدي معطفه، «ألا تؤخذ الدَّوافع في الحسبان؟» قال، وأشاح بوجهه وهو يُدخل ذراعه في الكم.

«تؤخذ في الحسبان في أي شيء يخصُّنا نحن الاثنان، ويكون بيننا» فلو كان الأمر يتعلق بمالي وقد خسرته في لعب القمار، أو أنك تسكعتَ مع حبيبتي، فيمكننا حلّ الأمر بيننا، وربما نكون أصدقاء مرة أخرى. لكن هذا شيء مختلف».

«حسنًا ، لقد وضحت الصورة». كان يجوب المكان بهدوء أثناء حديثه. انتزع حقيبة الظهر القديمة خاصته المعلّقة على مسمار في الحائط، فتح صندوق ملابسه وأخرج بعض الملابس الداخلية، جوارب وقميصين، بعد أن وضعها في الحقيبة، علّقها على أحد كتفيه، وكيس الماء المصنوع من القنب على الكتف الآخر. تركت هذه الاستعدادات تجري دون أن أَنْبَسَ بِبِنْتِ شَفَةَ. توجه إلى الخزانة فوق الموقد، ووضع بعض أصابع الشوكولا في جيبه، ومن ثم غليونه وكيسًا من التبغ. في هذا الوقت، قلت إنه سوف يلقى حتفه في حال حاول أن يسلك الدرب الضيّق على حصانه في الظلام.

«لن أسلك الدرب الضيّق». أجاب باقتضاب «سأذهب عبر الطريق المختصر، فحصاني يرعى في وادي البقرة».

«لقد لاحظتُ فيضان النهر، إنه معبر خطير»، قلتُ له.

«عبرتُ ذلك الممر منذ بضعة أيام، أنا متفاجئٌ من استخدامك مثل هذه التعبيرات المبتذلة!» قال ساخرًا «معبر خطير، إنها عبارة مطبوعة على اللافتات حول العالم!». خرج من الكوخ دون أن ينظر إلى الوراء، تبعته إلى تجويف على شكل حرف V في المنتوء الصخري، بالكاد يتسّع لجسم رجل، حيث يوجد سلّم مصنوع من جذوع أشجار مربوطة يتأرجح للأسفل أمام الجرف، أردت الاعتراض لكني لم أنجح سوى في التفوّه بعبارة فارغة.

«ستحمل حقيبتك على تفرّعات الأغصان تلك وستضع نفسك في مأزق».

«هذا شأني «.

كانت عيناي قد اعتادت في مثل هذا الوقت على الظلام، فاستطعت أن أرى بليك بوضوح تام- انحناءة كتفيه القاسية التي لاحظتها عندما جاء أول مرة إلى باردي وكان يشرب طوال الوقت. منعني الألم في ذراعيّ من الإمساك به وإيقافه، لكن هناك شيء آخر جعلني عاجزًا تمامًا عن القيام بأي حركة. أنزل قدمه ووضعها على أول تفرّع، ثم توقف للحظة وعدّل

حقيبته، وزرّر معطفه حتى ذقنه، وشد قبعته بإحكام. كان هنالك دائمًا تيار ليلي في الوادي، قبَضَ على الجذع بكلتا يديه، قال بابتهاجٍ مقيت: «حسنًا، هذا هو الحظ، وأنا سعيد لأنك من تفعل هذا بي، يا توم، وليس أنا مَن يفعله بك».

اختفى رأسه تحت الحافة، تداعى إلى سمعي صوت حفيف الأشجار تحت جسده الثقيل، وطقطقة خفيفة للسلاسل في الوصلات. استلقيت على الحافة واستمعت. كان بإمكاني سماعه لفترة طويلة وهو في الأسفل، وكانت الأصوات مريحةً بالنسبة لي، على الرغم من أنني لم أكن أدرك ذلك. ثم أطبق الصمت. ذهبت للنوم تلك الليلة على أمل ألّا أستيقظ أبدًا.

مبنى الكونغرس.

نوع من أنواع حقائب السفر تتكون من طبقتين.

أحد أبناء الإمبراطور النمساوي

ألفريد دريفوس: ضابط فرنسي من أصل يهودي، اتهم بالخيانة لتسريبه أسرار عسكرية للسفارة الألمانية في باريس.

الفصل السابع

في صباح اليوم التالي، أيقظني صهيل حصاني المُسرَج في الزريبة، أخذته إلى أسفل الدرب حيث تركت حقيبتي، حزمت أشيائي على ظهره وعدت به إلى الكوخ. جلست لوقت متأخر تلك الليلة، في انتظار بليك، على الرغم من أنني كنت أعلم أنه لن يأتي. بعد بضعة أيام امتطيت حصاني إلى تاربين لتلمُّس أخباره. أخبرني بيل هوك أن رودي باع حصانه للإسطبل مقابل ستين دولارًا، وجعلني أرى الحصان، وعلمتُ من مدير المحطة أن بليك اشترى تذكرة سفر إلى وينسلو بولاية أريزونا. كتبتُ برقية وأرسلتها إلى مدير المحطة وساعي البريد في وينسلو، لكنهم لم يتمكنوا من إعطائي أي معلومات. جاء الأب دوتشين، من جولاته، وأخبرته القصة كاملة.

اعتقد الأب دوتشين أن بليك سيعود يومًا ما، وأنني سأفقده فقط في حال خرجت للبحث عنه. نصحني البقاء في الميسّة ذلك الصيف، والمضي قدمًا في دراستي، والعمل على تحسين قواعد لغتي الإسبانية واللاتينية. كان لديه أصدقاء على طول نهر سانتا في، وكان متأكدًا أنه يمكننا أن نجد بليك من خلال الإعلان في الصحف المحلية على امتداد الطريق؛ من البوكيرك، وينسلو، فلاجستاف، ويليامز، لوس أنجلوس. عدت للانتظار في الميسّة بعد قضاء عدّة أيام معه.

لن أنسى أبدًا ليلة عودتي، عبرت النهر قبل ساعة من غروب الشمس وعرج حصاني في قاع وادي البقرة العريض. كان القمر في كبد السماء، على الرغم من أن الشمس لم تكن قد غابت، وكان له ذلك البريق الفضيّ الذي تمتلكها النجوم الأولى على ارتفاعات عالية. تبدو الأجرام السماوية من قاع وادٍ عميق بعيدة أكثر بكثير مما هي عليه في المستوى الأفقي. وارتفاع الجدران يريح العين نوعا ما. استلقيت على صخرة منفردة تشبه جزيرة في قاع الوادي، ونظرت إلى الأعلى. كانت تظلُّني شجيرات الميريمية الرمادية والصخور الرمادية المزرقة من حولي، ولكن فوقي، وعلى ارتفاع عالٍ، كانت جدران الوادي مصبوغة بلون اللهب مع غروب الشمس، وكانت المدينة الجرفية تتموضع في السديم الذهبي مقابل كهفها المظلم. وبعد بضع دقائق أيضا، أصبح لونها رماديًا، وبقيت فقط حافّة الصخرة في الأعلى بالوهج

الأحمر. عندما مضى ذلك، كان ما يزال بإمكاني رؤية توهّج النحاس في أشجار الصنوبر على امتداد الحواف العلوية. كان الأفق فوق الوادي أزرق فضيًّا، مع قمره الأصفر الباهت، ثم تحركت النجوم في الحال، تمامًا مثل بلورات متساقطة في مياه صافية.

أتذكَّر هذه الأشياء، لأنّه إلى حدٍّ ما، كانت تلك الليلة الأولى التي قضيتها حقًّا في الميسّة، اللّيلة الأولى الّتي كنت فيها بكامل حضوري هناك، والمرة الأولى الّتي أراها بشكل كامل. لقد أدركت كلَّ ذلك دفعة واحدة، كما يحصل عندما تبدأ في ترقب أين ستقودك سلسلة من التجارب. حدث شيء في داخلي جعل أمر تنسيق وتبسيط هذه العملية التي تحدث في ذهني، والتي جلبت معها سعادة غامرة استحوذت عليّ. فالحماس الذي انتابني عندما اكتشفت الميسّة أوّل مرة، كان شعورًا باهتًا جدًّا مقارنة بشعوري الآن. ولم تعد الميسّة بالنسبة لي مجرد مغامرة، بل بتّ أشعر حيالها بالرهبة. لقد قرأت عن تقوى الأبناء في الشّعر اللاتيني، وعرفت أن هذا هو ما شعرت به لهذا المكان. لقد اختلطت هذه المشاعر سابقًا مع دوافع أخرى كانت تنتابني، ولكن الآن بعد أن تخلَّصت من أيّ دوافع، باتت سعادتي نقية.

ما بدأ في تلك الليلة، استمرَّ طيلة الصيف، بقيتُ في الميسّة حتى نوفمبر. كانت تلك المرة الأولى التي أدرس فيها بطريقة منهجيَّة أو بتعقُّل. تعلمت قواعد اللغة الإسبانية بأفضل شكل، وقرأت الاثنا عشر جزءًا من كتب الإلياذة. كنتُ أدرس في الصباح، وأعمل بعد الظهيرة على إزالة الفوضى التي أحدثها الألماني في تعبئة- وترتيب الأثريات في انتظار مائة عام أخرى، ربما، لمستكشف مناسب. جلّ ما كنتُ أتمنى أن تمنحني الحياة صيفًا آخر مثل ذاك الصيف. كان ذلك أقصى ما أتمنى. فكل صباح، عندما تبلغ أشعة الشمس قمة الميسّة أولًا، وبينما يكون بقية العالم في الظل، كنتُ أستيقظ وبي شعور بأنني حصلت كل شيء، بدلًا من الشعور بفقدان كلِّ شيء. لا شيء يتعبني، وأنا هناك وحدي، جار قريب من الشمس، وكأنني أحصل على طاقة شمسية من الشمس مباشرة. وفي الليل، عندما كنت أشاهد ضوء الشمس يسقط خلف حافة السهل إلى الأسفل مني، كنت أشعر أنني لم أعد أستطع تحمّل ساعة أخرى من هذا الضوء المُستهلك، فقد امتلأتُ به، وبي حاجة للظلام والنوم.

في الواقع، لم أذهب طوال ذلك الصيف إلى عش النسر لأستعيد دفتر يومياتي، فلربما تكون ما تزال هناك إلى الآن. لم أشعر بالحاجة إلى ذلك الدفتر. فقد يعيدني إلى الوراء، لم

أرغب في تذكر واسترجاع ما حصل خطوة بخطوة، ربما كنت أخشى أن أفقد كل شيء على مراحل، على أية حال، لم أذهب لأحضر دفتري.

خلال تلك الأشهر لم أكن قلقًا بشأن رودي المسكين، قلت لنفسي من المؤكّد ستصله الإعلانات، فأنا أعرف عادته في قراءة الصحف. هناك أوقات تكون فيها حيوية المرء عالية جدًّا ومرنة لدرجة يصعب إحباطه. كنت أسرع في الصباح من الكوخ وأدرس تحت أشجار الأرز في المدينة الجرفية، كنتُ أرتعب من قساوة قلبي. لكن المشي بحذاء الموكاسين الرّث في الممر الضيق فوق الصخرة المسطحة منح قدميّ شعورًا بالبهجة، راقني هذا الإحساس، ونسيتُ كل شيء عن بليك دون أن أعي ذلك. اكتشفتُ أنَّني أقرأ بسرعة كبيرة؛ لذلك بدأت في حفظ مقاطع طويلة من أشعار فيرجيل ـ لولا ذلك، لربما نسيت كيفية استخدام صوتي، أو بتّ أتحدث مع نفسي. حينها، عندما كنت أتمعن في الإلياذة، كنت أرى دائمًا صورتين: صورة على الصفحة، وأخرى خلفها: صخور زرقاء وأرجوانية وأشجار صنوبر صفراء مخضرّة ذات نهايات مسطحة، ومنازل صغيرة محتشدة ومتلاصقة لتحمي ببعضها البعض، وبرج قوي يرتفع في وسطهم، ينتصب بثبات، برصانة وجرأة ـ خلفه مغارة مظلمة في أعماقها ينبوع صافٍ.

صدّقني بروفيسور، إنّ السعادة أمر لا يستطيع المرء تفسيره. حدث ما يكفي من المتاعب بعد ذلك، ولكن كان هناك ذلك الصيف، مبهجًا وجميلًا، كان حياةً في حدّ ذاته.

عُدتُ في الشتاء التالي إلى باردي ومكثت مع عائلة أوبراين مرة أخرى، حيث كنت أعمل في قطاع الغانغ وأدرس مع الأب دوتشين وأحاول التماس بعض الأخبار عن بليك. لقد ظننتُ أنه بعودتي للعمل في السكك الحديدية لن أخيب في إيجاده. خرجت إلى وينسلو وإلى ويليامز، واستجوبت رجال السكك الحديدية. قمنا بالإعلان عنه بشتى الطرق الممكنة، وكان جميع النشطاء في «سانتا في» والشرطة والمبشرين الكاثوليك متيقظين بشأنه، وعرضوا مكافأةً قدرها ألف دولار لمن يجده. لكنها لم تجدِ نفعًا. وما يزال الأب دوتشين وأصدقاؤنا هناك يبحثون. لكن كلّما تقدمت في العمر، كلما أيقنت عواقب فعلتي في تلك الليلة في الميسّة. أي شخص يكافِئ الثقة والصداقة كما فعلت، عليه أن يدفع ثمن ذلك. لستُ مُتفائلًا جدًّا بشأن حسن حظي. وسألقى جزائي في وقت لا أتوقعه.

في الربيع، بعد عام واحدٍ فقط من مشاجرتي مع رودي، وصلتُ إلى هنا ودخلت حديقتك، والباقي تعرفه.

البروفيسور

الفصل الأول

كلُّ الأشياء المهمة جدًّا التي حصلت في حياته، كما كان يقول سانت بيتر في بعض الأحيان، قد تمّت بِمَحِضِ الصُّدفة. دراسته في فرنسا كانت بالصدفة. وحياته الزوجية كانت سعيدة إلى درجة كبيرة تبعًا لظروف لم يكن له ولزوجته أي علاقة بها. لقد كانوا شبابًا يتمتعون بمؤهلات جيدة، غارقين في الحب، لكن لم يكن بالإمكان أن يكونا سعيدين لولا أن ليليان ورثت دخلًا صغيرًا من والدها- حوالي 1600 دولار فقط في العام، لكن هذا المبلغ أحدث كل هذه المتغيرات في العالم.

إن قضاء بعض الفترات الفاصلة والمهمة بين الموظفين، جعله يدرك أن ليليان لا يمكنها العيش في ضيق، أو الخروج بمظهر غير لائق، والقيام بالأعمال المنزلية، كما تفعل زوجات بعض زملائه. ففي ظلّ هذه الظروف أصبحت شخصًا آخر، شخصًا لاذعًا.

كان توم أوتلاند بمثابة ضربة حظ لم يكن بإمكانه تخيُّلها؛ من مجيئه الغريب، قصته الغريبة، إخلاصه، وفاته المبكرة وشهرته بعد وفاته- كل هذا كان خياليّا. والخيالي أيضا، أن هذا الصبي المتشرِّد كان عليه أن يجمع ثروة لشخص غريب لم يسمع باسمه من قبل، لشخص «غريب مُسرف ومراوغ». لطالما فكّر البروفيسور في تلك النغمة الجهورية الغريبة الصاعدة واللاذعة في طبقة الباريتون في قداس برامز، مستحضرًا الكلمات، «إنه يكدّس الثروات ولا يمكنه معرفة من سيبعثرها!» وقد بدا له أن حدّة هذا المقطع لا مبرّر لها حتى قرأها في ضوء تاريخ عائلته.

اعتقد سانت بيتر أنّ مسار القدر كان جيدًا معه. لم يرغب أن يعيش حياته مرة أخرى- فقد لا يحالفه الحظ الجيد مرة أخرى. لقد عاش رومنسيتين: واحدة في القلب، ملأت حياته لسنوات عديدة، والثانية في العقل -رومانسية المخيّلة. وحالما بدأ إشعاع الكون يتلاشى بالنسبة له، جاء أوتلاند وجدّد له شبابه.

وخلال أبحاث أوتلاند، هذه الفترة التي توقفا عن كونهما تلميذ وأستاذ، وعاد له شغفه من جديد في تجربة أشياء كان قد ضجر منها. كان عقل الصبي شعلة متّقدة من الذكاء الحاضر

دائمًا، حيثما يوجد بيئة خصبة. تطلّب إيصال أفكاره الاطّلاع على وجهات نظر قديمة تغيّرت في ضوء الجهود الجديدة.

وإذا كانت كتابة المجلدات الأربعة الأخيرة من « المغامرون الإسبان» قد تمت بطريقة أكثر بساطة وحتمية من المجلدات التي سبقها، فذلك يعود بشكل كبير إلى أوتلاند. فعندما بدأ سانت بيتر عمله لأول مرة، أدرك أنَّ العقبة الكبيرة هي فقدانه للصَّداقة في سنٍّ مبكِّرةٍ، وحقيقة أنه لم يقضِ شبابه في الرِّيف الجنوبيّ الغربيّ الرَّائع والمُبهر والذي كان مسرحًا لمغامرات مستكشفيه. وفي الوقت الذي وصل فيه إلى المجلد الثّالث، دخل إلى بيته صبيّ ونشأ هناك، صبيٌ ذو مخيلة، بمهارة وبصيرة اكتسبهما من تجربة غريبة للغاية؛ صبي يحمل في جعبته أسرارًا لا تبوح بها الممرات القديمة والحجارة والمجاري المائية سوى للمراهقين.

بعد عامين على تخرج توم، أخذوا نسخة من مخطوطة فراي غارسيس[98] التي كتبها البروفيسور من المخطوطة الأصلية في إسبانيا، ونزلوا معًا إلى المنطقة الجنوبية الغربية. بحلول الخريف كانوا قد قطعوا على ظهور الخيل كل ميل من الطريق المذكور في المخطوط. كان بإمكان توم أن يختار أي جملة من مذكرات غارسيس ويعثر على البقعة المحددة التي عبر فيها المُبشر نهر ريو كولورادو في أحد أيام الآحاد في عام 1775. استفاد من وجود قرى البيوبلو، فكلما صادف قرية، كان يستدل على المسار الذي من خلاله بلغ الكاهن هذا المكان وانتقل إلى المكان التالي.

في تلك الرحلة ذهبوا إلى الميسّة الزرقاء التي تحدث عنها توم ، وتسلقوا سلم أشجار الصنوبر وصولاً إلى المدينة الجرفية، صعدوا إلى عش النسر، وهناك أخذوا دفتر يوميات توم من الخزانة الحجرية حيث أقفل عليه منذ سنوات خلَت، قبل أن يتوجه إلى واشنطن في مهمته الفاشلة.

في الصيف التالي، ذهب توم مع البروفيسور إلى المكسيك. خططا لقضاء صيف ثالث معًا في باريس، لكن الأمر لم ينجحْ أبدًا. تأخّر أوتلاند بسبب إجراءات الحصول على براءة اختراعه، ثم حلَّ أغسطس من عام 1914. في ذلك العام توقف الأب دوتشين، الكاهن التبشيري الذي كان معلّم توم، في هاملتون في طريق عودته إلى بلجيكا، مسرعًا لتقديم الخدمة لوطنه بكل ما يستطيع. بقي الرجل العجوز الصارم في هاملتون لأربعة أيام فقط، وفي

أثناء ذلك رتّب أوتلاند أفكاره، عقد العزم، حزم أغراضه، وقال وداعًا، أبحر مع الأب دوتشين على متن الروشامبو[99].

وبقي البروفيسور سانت بيتر حتى الآن يتحسّر لأنه لم يحظَ بتلك العطلة في باريس مع توم أوتلاند. كان يرغب في زيارة أماكن محددة معه مرة أخرى: كالذهاب في أحد الصباحات الخريفية إلى حدائق لوكسمبورغ، عندما تكون كستناء الحصان الصفراء فاتحة ومرّة بعد المطر، للوقوف معه أمام النصب التذكاري لديلاكروا[100] ومشاهدة سطوع الشمس على التماثيل البرونزية- وعلى الزمن، الذي يأخذ معه الشباب الذي ناضل ليمسك بقبضته-أو ليتصالح معه؟ وهذا ليس مهمًّا. ربما كان مهمًّا لتوم، ولم تُتَحْ له الفرصة، فقد حدثت كارثة كبيرة واحدة، اجتاحت كل الشباب وجميع القبضات، وتقريبًا الزمن نفسه.

ولنفترض أن توم كان أكثر تعقلًا، ولم يرحل مع معلمه القديم، تساءل سانت بيتر في بعض المرات عمّا كان سيحدث له؟ حالما يقع فريسة النجاح الدنيوي. لم يستطع أن يرى توم يبني منزل «أوتلاند»، أو أن يصبح مُلهمًا وشخصية عامة في هاملتون. ما هو التغيير الذي كان سيحدث في عينه الزرقاء، في يده الطَّويلة الجميلة ذات الإبهام الزنادي الخلفي، التي لم تتعامل أبدًا مع أشياء ليست مثالًا للأفكار؟ لا بدّ أنَّ يدًا مثل هذه اليد سيكون لها استخدامات أخرى لو كان على قيد الحياة. كان سيطلب منه زملاؤه العلماء، وزوجته، والمدينة والدولة واجباتٍ كثيرة، كان عليه أن يكتب آلاف الرسائل عديمة الجدوى، ويُعدّ الآلاف من الأعذار الكاذبة. كان يتعين عليه «إدارة» مبلغ كبير من المال، ليكون أداة في يد امرأة اعتادت منذ طفولتها أن تكون دائمًا أكثر تطلّبًا. لقد نجا من كلِّ ذلك. خلَقَ شيئًا جديدًا في العالم-وترك المكافآت والإيماءات التَّقليدية التي لا مَعنى لها للآخرين.

فرانسيسكو غارسيس: راهب فراسيسكي إسباني وأحد المستكشفين للمنطقة الجنوبية الغربية في أمريكا.

سفينة حربية أمريكية، سميت على اسم النبيل الفرنسي جان بابتيست كومت دي روشامبو الذي قاد القوات الفرنسية في جيش واشنطن في الحرب الأمريكية

(1798 ـ 1863) رسام وفنان فرنسي، يعتبر رائد المدرسة الرومانسية الفرنسية.

الفصل الثاني

طوال تلك الأيام الصَّيفية، وفي الوقت الذي كان فيه البروفيسور يرسل تقارير مبهجة عن نشاطاته إلى أسرته في فرنسا، كان في الواقع لا يقوم سوى بالقليل. لقد بدأ بطريقة عشوائية، في كتابة حواشي اليوميات التي احتفظ بها توم في الميسّة، والتي سجل فيها تفاصيل كل يوم أثناء العمل بين الأثريات، إلى جانب أحوال الطقس أو أي شيء غير اعتيادي في روتين حياتهم. كان ثَمَّة وصف موجز لكل أداة عثروا عليها، ولكل قطعة من القماش أو الفخار، أغلبها مصحوب برسم استدلالي بقلم الرصاص عن المادة وتخمين عن استخدامها، ونطاق استخدامها في الحياة. بالنسبة لسانت بيتر، كان هذا الشرح البسيط جميلا بالفعل، لأن توم تجنّب كتابة الكثير من الحماقات وأشياء أخرى لم يذكرها. لو كانت الكلمات تكلّف مالًا، لما كان توم ليستخدمها باقتصاد هكذا. كانت الصفات وصفية بحتة، تتعلق بالشكل واللون، واستخدمت لتقديم أدوات قيد الدراسة، وليس لعواطف المستكشف الشاب. إلاّ إنه، ومع هذا التقشّف يشعر المرء بالمخيلة المتأججة، وبحماس الفتى وانفعاله، مثل اهتزاز الصوت عندما يجاهد المتحدث لإخفاء مشاعره باستخدام العبارات التقليدية فقط.

وبحلول الأول من أغسطس، أدرك البروفيسور أنه أضاع ما يُقارب الشهرين في مهمة كان من المفترض أن تستغرق أسبوعًا أو أكثر بقليل. لكنه كان ينجز الكثير بموازاة ذلك ـ وهو شيء لم يكن قادرًا على فعله من قبل.

لطالما ضحك سانت بيتر على الأشخاص الذين يتحدثون عن «أحلام اليقظة»، تمامًا كما كان يضحك على الأشخاص الذين يعترفون بسذاجة أنَّ لديهم « مخيلة». كان عقله طوال حياته يسير في منحى إيجابي، فعندما لا يكون في العمل، أو يستمتع بقيامه بنشاط معين، يذهب إلى النوم. لم يعِش أي فترة نكوص. لكنه الآن يستمتع بهذا التكاسل نصف واعٍ في دماغه كما لو أنه حاسة جديدة، وصول متأخر، مثل أضراس العقل. وجد أنه يستطيع الاستلقاء في الفجوة الرملية بجانب البحيرة لساعات ومشاهدة أشجار الصنوبر السبعة الجاثمة وهي تتشبّع بأشعة الشمس. وبإمكانه في المساء، بعد العشاء، أن يجلس بخمول يشاهد النجوم بالجمود نفسه. كان يستنبت لذة عقلية غريبة ـ ويستمتع بصداقة جيدة. لم يعد توم أوتلاند مرة

أخرى من باب الحديقة (كما كان يفعل مرارًا في الأحلام)، ولكن ثَمَّة فتى آخر عاد، فتى تركه البروفيسور منذ وقت طويل خلفه في كنساس في وادي سليمان- إنه غودفري سانت بيتر الأصلي، غودفري الخام.

عزم هو، وهذا الفتى، العودة إلى تلك الأيام البعيدة، ليعيشا شيئًا من الحياة المشتركة ويتشاركان الحظ السيء والجيد. لم يتشاركا الحياة لأنهما لم يكونا متساويين على نحو متطابق. الشاب سانت بيتر الذي ذهب إلى فرنسا ليجرّب حظه، كان عقله عمليًّا أكثر من توأمه الذي تركه خلفه في وادي سليمان. بعد أن احتضنته عائلة ثيريولت في منزلها، نادرًا جدًّا ما تذكر في لحظات الحنين للوطن الفتى الآخر. وبعد أن قابل ليليان أورنسلي، نسي سانت بيتر ذلك الفتى الذي كان عليه.

ولكن الآن بعد أن استرد إدراكه الحيوي لتلك المرحلة البكر، أدركَ البروفيسور أنَّ الحياة مع هذا الفتى الذي أتى من كنساس، رغم كونها قليلة، كانت الأكثر واقعية بين جميع مراحل حياته، وأن كلَّ تلك السنين التي تخللتها كانت عابرة ومرتبة على نحو لم يتدخل فيه. لم تكن مهنته وزوجته وعائلته يجسّدون حياته على الإطلاق، بل كانوا سلسلة من الأحداث التي حدثت له، كلُّ هذه الأحداث لا علاقة لها بالشخص الذي كان عليه في البداية.

الرَّجل الذي هو الآن، الشخصية التي يعرفها به أصدقائه، بدأت تتشكل بقوة أثناء فترة المراهقة، خلال السنوات التي كان فيها، شعوريًّا أو لاشعوري يقارب ويدمج فعل «الحب»- مع المجتمع والعزلة، مع الناس والكتب، مع السماء والريف المفتوح، في وحشة شوارع المدينة المزدحمة. عندما التقى ليليان، بلَغَ مرحلة النضج. ومنذ ذلك الوقت إلى الآن، عاش حياته في نقلات نوعية. شيء أدى إلى آخر، وتطور أفضى إلى آخر، كان تخطيط حياته يسير وفقًا لعمل هذا الرجل الاجتماعي الثانوي، الرجل العاشق. هذا الرجل الذي شكّلته جميع العقوبات والمسؤوليات التي ترتبت عليه كونه كان، وما زال عاشقًا. بسبب وجود ليليان، كان لا بدّ من زواج وراتب. وبسبب الزواج، كان هناك أطفال، وبسبب وجود أطفال وحماس في الدم والدماغ، ولدت الكتب وكذلك البنات. كان مقتنعًا أن ارتباط أعماله التاريخية بشخصيته الأصلية لم يكن أكثر من ارتباطه ببناته، كانوا جميعهم حصيلة الجهد المرتفع لاندفاع الشباب.

لم يكن فتى كنساس الذي عاد إلى سانت بيتر هذا الصيف عالِمًا. بل بدائيًّا، كان مهتمًّا بالأرض والغابات والماء فقط. فالأماكن التي تشرق الشمس وتتساقط الأمطار وتنهمر الثلوج فيها، الأماكن التي تنبثق وتضمحل الحياة فيها، كانت أماكن متشابهة بالنسبة له. لم يكن مثقّفًا على غرار سكّان الجروف القدماء التي انحدر منها توم، لكنه كان حكيمًا على نحو رهيب. بدا وكأنه التمس جوهر الأمر؛ الرغبة التي تختصر كل الرغبات، والحقيقة التي تفضي إلى جميع الحقائق. بدا أنه يعرف، من بين أمور أخرى، أنه كان منغلقًا على ذاته وهذا ما يجب أن يكون عليه دائمًا، لم يتزوج قطّ، ولم يكن أبًا. كان من التُّراب، وسيعود إلى التُّراب. كلّما هبَّت الغيوم البيضاء مثل الأشرعة المنتفخة فوق البحيرة، وكلَّما اكتست أشجار الصنوبر السبعة باللَّون الأحمر أثناء تحوّلات الخريف، كان يشعر بالرِّضا ويقول لنفسه ببساطة: «هذا ما يجب أن يحدث». وعندما يصادفه جذر معقوف يقتحم طريقه، يقول: «هذا هو بالضّبط». عندما تبدأ أوراق القيقب بالتحوّل إلى اللون الأصفر والشمعي على طول الشارع، وتكون ناعمة الملمس، مثل جلد الوجوه المألوفة، كان يقول: «هذا صحيح، إنه الوقت». منحته كل هذه الاعترافات نوعًا من المتعة الحزينة.

عندما لا يكون في حالة الخمود، يستحضر ذكرياتٍ غير مهمة ومنسية منذ زمن طويل عن طفولته الأولى، عن والدته، ووالده، وجده. لطالما كان جده العجوز نابليون غودفري يستغرق في تأمل عميق ومتواصل، وأحيانًا يضحك على نفسه. وفي بعض الأحيان، كان الرجل العجوز يحاول تنشيط نفسه على مائدة العشاء العائلية، ويطرح دائمًا سؤالًا لطيفًا بدافع الأدب، يكون سخيفاً بعض الشيء، وغالبًا نفس السؤال الذي طرحه بالأمس. اعتاد الأولاد أن يصرخوا ضاحكين ومتسائِلين عن هذه الأمور العميقة التي يمكن أن تنطوي على هذا التأمل العميق، وتجعل الرجل يتحدث بحماقة شديدة عمّا جرى تمامًا أمام ناظريه. اعتقد سانت بيتر أنه بدأ في فهم ما كان يفكر به الرجل العجوز، مع أنه كان يبلغ من العمر اثنين وخمسين عامًا فقط، وكان نابليون في الثمانينات من عمره. في نهاية الأمر، لم يتبق للإنسان سوى بضع سنوات ليفكّر فيها بوضعه، وكان يعتقد أنه قد يكون اقترب كثيرًا من نهاية طريقه، كما كان جده في تلك الأيام.

أدرك البروفيسور بالطبع، أن فترة المراهقة أدخلت مخلوقًا جديدًا في الكائن الأصلي، وأن تكوين حياة الرجل يعتمد بدرجة كبير على مدى جودة أو رداءة ذاته الأصلية، وطبيعته التي تم

تعديلهما باحتكاك الأنواع البشرية معًا.

مالم يكن يعرفه هو أنَّه، في وقت معين، يمكن أن تعود الطبيعة الأولى إلى المرء، كما كانت بفطرتها وقبل أن تغيّرِها جميع المساعي والعواطف وتجارب حياته؛ وقبل أن تصبغها أيضا الأذواق والأنشطة الفكرية القوية جدًّا والتي منحته تميّزًا بين زملائه وجعلت له، كما يقولون، اسمًا في العالم. قد لا يحدث هذا الارتداد غالبًا، لكنه كان يعلم أنه حدث معه، واشتبه في حدوثه لجده. لم يتأسَّف على حياته، وبنفس الوقت كان غير مكترث بها، بدت له وكأنّها حياة شخص آخر.

إلى جانب الحالات الذهنية الأخرى التي استحضرها في وعيه عن الفتى غودفري، توصل إلى قناعة (لم يرها مقبلة، بل كانت موجودة قبل أن يدرك طريقها) وهي أنّه كان يقترب من نهاية حياته. أخذت هذه القناعة تترسّخ في ذهنه بهدوء شديد، وبدت وكأنها أمر واقع، لم يعرها الكثير من تفكيره. لكن في اليوم الذي أدرك أنه طوال الوقت الذي كان يستعدّ فيه لفصل الخريف، كان يظنُّ أنه لن يبقى على قيد الحياة خلال فصل الخريف على أقل تقدير، فكّر أنه من الأفضل أن يراجع طبيبًا.

الفصل الثالث

عرف طبيب الأسرة كل شيء عن سانت بيتر. كان ذلك في فصل الصيف، ولهذا كان لديه متّسعًا من الوقت. فخصّص عدة مواعيد صباحية للبروفيسور، وقام بإجراء اختبارات من النوع الذي يتطلب بحثًا عميقًا. وبالطبع أخبر سانت بيتر في النهاية أنه ليس هناك ما يثير الخوف.

«ما الذي دفعك للمجيء، هل تعاني من أي إزعاج أو ألم؟».

«لا شيء، أنا ببساطة أشعر بالتعب طوال الوقت».

هز الدكتور دودلي كتفيه: «وأنا كذلك، أتنام جيدًا؟»

« أنام كثيرًا على ما أعتقد»

«أتأكل جيدًا؟»

«آكل جيدًا بكل معنىً للكلمة، فأنا أطهو لنفسي».

«لطالما كنتَ ذوّاقًا. لا يوجد أيّ شيء غير سليم في الجهاز الهضمي، أتمنى أن تدعوني لتناول العشاء معك في سهرة ما. هل تبقى لديك شيء من النبيذ؟».

«أشرب كثيرًا، لذلك لم يتبق سوى القليل».

«متأكد من ذلك! لكن لماذا ظننت أنك تعاني من أمر ما؟ هل ثمة ضعف ذهني؟».

«لا، مجرد انخفاض في الطاقة، وأستمتع بالكسل، لقد جئت إليك بدافع الواجب».

«ماذا عن السفر؟».

«أنا أُحجم عن التفكير بالأمر. كما أخبرتك، أستمتع بالامتناع عن القيام بأي شيء».

«إذًا فأنت لا تقوم بشيء! لا شيء فيك يدعو إلى القلق. استسلم لرغبتك!»

عاد سانت بيتر إلى بيته، وهو راضٍ. ولم يذكر للدكتور دودلي السبب الحقيقي لطلبه الفحص الطبي. فالمرء لا يأتي على ذكر مثل هذه الأشياء. كان الشعور بأنه يقترب من نهاية حياته قناعة غريزية، تمامًا مثلما نشعر عندما نستيقظ في الظلام وندرك في الحال أن الصباح أوشك، أو عندما نسير في أنحاء البلاد ونعلم فجأة أننا بالقرب من البحر.

كانت الرسائل تصل كل أسبوع من فرنسا، تناوبَ كل من ليليان ولوي على إرسالها، بحيث يرسل أحدهما رسالة أو الآخر، على متن كل قارب سريع. أخبره لوي أنهم في كل مرة يذهبون لقضاء يوم جميل ومميز، يشترون له هدية. فقد أحضروا من مدينة تروڤيل، على سبيل المثال، العشرات من القبعات المطاطية اللامعة، التي يُحب ارتدائها عندما يذهب للسباحة. وفي مدينة «أيكس ليبان» وجدوا له ثوبًا رائعًا في متجر صيني. كان سانت بيتر في قرارة نفسه سعيدًا بشأنهم جميعًا. سعيدًا لوجودهم هناك، ولوجوده هنا. كانت رسائلهم السخية، التي أرسلوها في الوقت الذي كان فيه البروفيسور منشغلًا بالكثير من الأشياء الممتعة، تستحق بالتأكيد أكثر من قراءة واحدة. لذلك كان يأخذهم معه إلى البحيرة لقراءتهم مرة أخرى. يستلقي على الرمال بعد خروجه من الماء، ممسكًا بهم في يده، ولكن بطريقة ما، لا يحيد نظره عن أشجار الصنوبر، المنتصبة في وجه المياه الزرقاء، وأكوازها الصفراء الوافرة، التي يقطر الصمغ منها ويتجمع على أطرافها المدببة مثل كتلة من النَّحل الذّهبيّ في موعد الاحتشاد. وغالبًا ما كان يعود بالرسائل إلى المنزل دون أن يقرأَها.

استمرت عائلته بالكتابة له عن خططهم لفصل الصيف المقبل، حيث كانوا يخططون لاصطحابه معهم.

«الصيف المقبل؟» تساءل البروفيسور.... كان يفكّر أحيانًا أنه يرغب في المضي من أمام كاتدرائية نوتردام، في باريس، ورؤيتها مرة أخرى ثابتة هنالك مثل صخرة جامدة على مر العصور، وتلك الحقبة الهزيلة تتحطم عند قاعدتها. مضى زمن طويل لم يرها، منذ نهاية الحرب.

ولكن في حال سيذهب إلى أي مكان الصيف القادم، فسيكون، حسب اعتقاده، إلى ريف أوتلاند، ليشاهد شروق الشمس يخترق القمم المنحوتة والممرات الجبلية الوعرة ـ وإلقاء نظرة على الأفق الممتد والوعر والجامح والعزيز على القلب الأمريكي. العزيز على جميع القلوب، والذي ربما ـ على الأقل، ينادي الجميع. وإلا لماذا جده الأول، الذي اجتاز أميالًا عديدة عبر أوروبا وصولًا إلى روسيا مع الجيش الكبير، خرج إلى البرية الكندية، لينسى الحزن على هزيمة إمبراطوره؟

الفصل الرابع

بدأ الفصل الدراسي الخريفي في الجامعة، وسيذهب البروفيسور إلى محاضراته بدلًا من ذهابه إلى البحيرة. افترض أنه قام بعمله، ولم يسمع أي شكاوٍ من مساعديه، وبدا الطلاب مهتمّين. ومع ذلك، وجد أنّه لم يكن على استعداد لتحمل عناء معرفة أسماء المئات من الطلاب الجدد. لم يكن الأمر يستحق الجهد. وشعر أن علاقاته بهم ستكون قصيرة الأمد.

عاد الزوجان ماكغريغور إلى المنزل من إجازتهما في ولاية أوريغون، وكان سكوت مبتهجاً جدًّا لإيجاده البروفيسور صامدًا بإصرار في المنزل القديم.

«لم يذهلني أبدًا يا دكتور، بأنّك رجل ستحافظ على منزليْن. سيعودون قريباً جدًّا إلى الديار، حينها سيتعين عليك تحديد المكان الذي ستعيش فيه».

«لا يمكنني ترك مكتبي يا سكوت، إنه بيتي».

«لا تغادره إذن! رمّمه، فلديك الحق في منزلين إذا كنت تريدهما».

حصل هذا اللقاء في الشارع أمام المنزل. صعد البروفيسور إلى الطابق العلوي بضجر واستلقى على الأريكة، ملاذه من هذا التعب المتزايد باستمرار. لم يعرف حقًّا ما الذي كان سيفعله بشأن مسألة الإقامة. لم يستطع أن يسمح لنفسه بالتفكير بأنه سيعيش في المنزل الجديد مرة أخرى. لم يكن ينتمي إلى هناك. لقد تذكر بعض سطور من ترجمة اسكندنافية اعتاد قراءتها منذ فترة طويلة في أحد كتب والدته القليلة، مجلدين صغيرين من إصدارات تيكنور وفيلدز[101] للشاعر لونغفيلو[102]، باللونين الأزرق والذهبي، والذي عادة ما يكون موضوعًا على طاولة الصالون:

«لأجلك بُنيَ بيت قبل مولدك، ومن أجلك تكدّس العفن قبل أن تدخله امرأة».

مستلقياً على أريكته القديمة، بالكاد استطاع أن يشعر بنفسه أنّه بالفعل في هذا المنزل. كانت النوابض المرتخية مثل التنجيد الزائف الذي يوضع في التوابيت. فكّر أنها مثل الطريقة الأمريكية الملتبسة تمامًا في التعامل مع الحقائق الجادة. لماذا ندّعي أنّه من الممكن تليين السرير القاسي الأخير؟

كان يتذكر عندما أرهبته في إحدى المرات تخيل وحشة الموت، كانت الفكرة في حد ذاتها لا تحتمل. فقد كان يراوده على الدوام شعور، أنّه حتى وإن كان بإمكان زوجته الاستلقاء معه في التابوت نفسه، لن يكون جسده غافلًا عن إدراك قرب جسدها منه ولهذا فلن يشعر بالراحة. لكنه الآن يفكّر في العزلة الأبدية بامتنان؛ كإعفاء من كل التزام، ومن كل أشكال الجهد. كانت تلك هي الحقيقة.

ذات صباح بينما كان سانت بيتر يغادر المنزل متوجهًا إلى صفّه، سلَّمه ساعي البريد رسالتين، واحدة معنونة بخط يد ليليان والأخرى بخط لوِي. وضعهما في جيبه، أربكه الشعور بهما، كانتا رقيقتين لدرجة مريبة- حتى لتشعر أنهما لا تحتويان على لغو مسلٍّ. لكنهما صرحتا عن قرارات مفاجئة. انطلق في الشارع يستنشق هواء البحيرة البارد، ويحاول التغلب على شعور الفزع المُقلق.

ظلتا هاتين الرسالتين طوال فترة الصباح في جيب صدريته، على الرغم من خفّتهما، إلا أن تأثيرهما جعله يرخي كتفيه، ويبدو متعبًا على نحو بائس.

تغير الطقس، فوق هذا، أصبح حارًّا وخانقًا عند الظهيرة، وكأنه يوحي بقدوم عاصفة. عندما انتهى من إعطاء دروسه وعاد إلى مكتبه مرة أخرى، لم يشعر سانت بيتر بأي رغبةٍ بتناول الغداء. أخرج الظرفين ومزّقهما بسبابته لإخراج الرسالتين. نعم، تغيرت جميع الخطط، وعلى نحو سعيد عكس توقعاته. استعجلت العائلة في العودة إلى المنزل، استعدادًا لمجيء شاب من عائلة مارسيلوس. كانوا سيبحرون في اليوم السادس عشر، على متن سفينة بيرِينغاريا.

أضافت ليليان ملاحظة مذيلة، أنها وجّهت رسالة إلى أوغستا التي ستأتي إليه للحصول على مفاتيح المنزل الجديد. ستكون أفضل شخص يفتح المنزل ويتولى أمر تنظيفه. ستزيل عن كاهله هذا العبء تمامًا، وتتأكّد أنّ كلَّ شيء في مكانه الصحيح.

كانوا مبحرين في اليوم السادس عشر، واليوم هو السابع عشر؛ إذن، هم الآن وسط المياه. فرحلة البيرينغاريا تمتد لمدة خمسة أيام. التقط سانت بيتر قبعته ومعطفه الخفيف وهمّ بالنزول على الدرج. وفي منتصف الدرج، توقف قليلًا، ثم استدار وعاد إلى مكتبه، وأغلق الباب خلفه بهدوء. جلس ناسيًا خلع معطفه، بالرغم من أنّ فترة الظهيرة كانت قائظة، ووجهه يتصبّب عرقًا. جلس جامدًا، يتنفس على نحو مضطرب، إحدى يديه الداكنة مُطبَقة وثابتة

على طاولة الكتابة. يجب أن يكون ثمة- كان يردد بينه وبين نفسه- يجب أن يكون ثَمَّة طريقة ما، يمكن من خلالها للرَّجل الذي جاهد دائمًا في تحمُّل مسؤولياته، أن يتجنَّب لقاء عائلته عندما يصيبه اليأس.

لقد أحب عائلته، وكان سيقدّم أي تضحيةٍ لأجلهم، لكنَّه الآن لا يستطيع العيش معهم. يجب أن يبقى لوحده. وهذا الآن أكثر أهمية، حتى من زواجه في أيام شبابه المتّقد. لا يستطيع العيش مع عائلته مرة أخرى- حتى مع ليليان. بل وخصوصًا مع ليليان! كانت طبيعتها انفعالية، وإيجابية؛ كانت مثل سطح محفور، حجر نرد، أو ختمٍ لم يتمكن أن يؤثر فيه بأي طريقة كانت. وفي حال تم اختزال شخصيتها، إلى أداة شعارية، فستكون يدًا جميلة تحمل سهامًا مُشتعلة- أعمدة حبها وكرهها العنيفين- وطموحاتها الواضحة.

قال لنفسه: «يرغب الأشخاص في البقاء بمفردهم في الأوقات العصيبة، لديهم الحق في ذلك. فالشدائد التي تحدث داخل المرء تكون الأصعب. من المؤكّد أن أتعس ما يعيشه المرء في العالم، هو التَّحرّر من الحب- في حال وقع فيه مرة».

يبدو أن التحرر، بالنسبة له، يعني التحرر من جميع العلاقات العائلية والاجتماعية، التحرر بالفعل من دوره الفعلي ضمن عائلته.

لم يخرج سانت بيتر من المنزل عصر ذلك اليوم، ولم يغادر غرفة مكتبه. جلس إلى طاولة المكتب برأس منحنٍ، يستعرض حياته، محاولًا أن يحدّدِ مكامن الأخطاء لديه، ليبرر حقيقة هروبه من كلِّ ما كان يوليه اهتمامًا كبيرًا.

في وقت متأخر من بعد الظهر، دفعه الجوُّ الخانق في الغرفة للتوجه إلى النافذة. استشعر قدوم عاصفة. كانت السحب البرتقالية والبنفسجية الكبيرة تتجمع قادمة من البحيرة، وكانت أشجار الصنوبر الموجودة حول مختبر الفيزياء داكنة أكثر من أشجار السرو، ومنكمشة كما لو كانت بانتظار شيءٍ ما. هطل المطر وأصبح الطقس باردًا.

انتهت العاصفة المطرية في غضون نصف ساعة، لكن عاصفةً قويّةً حدثت خلال الليل. اعتقد أنَّ الريح ستحول بينه وبين الجميع، حتَّى أوغستا ستجد صعوبة في صعود الدرج تلك اللَّيلة.

بدا غريبًا أن يُخيف أوغستا، لكنه بالفعل أخافها هذه المرة. اعتقد أنّه في مأمن هذه الليلة. وعلى الرغم من أنَّ الساعة لم تتجاوز الخامسة، إلا أن السماء كانت كامدة، والغرفة معتمة

وباردة. أشعل الموقد واستلقى على الأريكة. عكست النار شكلًا وامضًا من الضوء على الحائط. استلقى يراقبها شاردًا، واستسلم للنوم دون أن يشعر، نام بعمق وهدوء لفترة طويلة. ثم ازدادت حدّة الرياح على نحو عنيف، وأقلقته. بدأ يدرك ضجيج الأشياء المزعجة التي تُصفق حوله، استدار على ظهره ونام بسكونٍ أكثر.

عندما استيقظ سانت بيتر أخيرًا، كانت الغرفة حالكة الظلام، تفوح منها رائحة الغاز، كان باردًا وخدرًا، شعر بالإعياء والدُّوار نوعًا ما. أدرك أن الحادثة الَّتي طال انتظارها قد حدثت. كانت العاصفة قد عصفت بالموقد وأغلقت النَّافذة. ما كان عليه فعله هو النُّهوض وفتح النافذة. لكن لو افترضنا أنّه لم ينهض؟ إلى أي مدى كان عليه أن يبذل قصارى جهده لينأى بنفسه عن وقوع حادثة ما؟ كيف سيتم البتّ في قضية كهذه بموجب القانون الإنكليزي؟ لم يرفع يده من قبل دفاعًا عن حقه، فهل يستحقُّ الأمر أن يحرِّكها الآن لينقذ نفسه؟

شركة نشر أمريكية في بوسطن.

هنري وادزورث لونغفيلو: شاعر أمريكي (1807ـ1882) من أعماله»أغنية هاياواثا» وهو أول أمريكي يترجم الكوميديا الإلهية لدانتي.

الفصل الخامس

في منتصف الليل كان سانت بيتر مستلقيًا في مكتبه، على أريكته الصندوقية، مغطى بالبطانيات، وقارورة ماء ساخنة عند قدميه؛ كان مدركًا أن الوقت بلغ منتصف الليل، لأن ساعة كنيسة أوغستا دقّت عبر المنتزه في تلك الساعة. كانت أوغستا نفسها هنالك في الغرفة، جالسة على كرسي الخياطة القديم الخاص بها بجانب مصباح الكيروسين، تتدثّر بشال، وتقرأ كتابًا دينيًّا صغيرًا كانت تحمله دائمًا في حقيبة يدها. وعلى الفور بدأ في الحديث معها.

«منذ متى أنتِ هنا يا أوغستا؟».

نهضتْ واقتربتْ منه.

«هل أنتَ على ما يرام دكتور بيتر؟»

«أوه! شكراً جزيلاً، متى أتيتِ إلى هنا؟»

«ليس من وقت قريب سيدي» قالت بجدية مع نبرة من الاستنكار. «لم تأخذ تحذيراتي بشأن ذلك الموقد القديم بعين الاعتبار أبدًا، وكان على وشك أن يخنقك. بالكاد استطعت إخراجك في الوقت المناسب».

«هل حقًّا سحبتني إلى الخارج؟ إلى أين؟».

«إلى داخل القاعة، جئت أثناء العاصفة لأطلب منك مفاتيح المنزل الجديد، وصلتني رسالة السيدة سانت بيتر بعدما عُدت من العمل هذا المساء، وجئتُ مباشرةً. عندما فتحت الباب الأمامي، شممت رائحة غاز، وأدركت أن الموقد يسرّب الغاز كما جرت العادة. افترضت أنك خرجت ونسيت إطفاءَه. عندما وصلت إلى الطابق الثاني، سمعت صوت وقوع شيء فوق رأسي، وعلى الفور لمعت في ذهني وسيطرت عليّ فكرة أنك هنا في الأعلى. ركضت وفتحت النافذتين أعلى الدرج وسحبتك خارجًا إلى الهواء، كنت مستلقيًا على الأرض». خفضت صوتها «إنّه لأمرٌ مخيف للغاية أن يحدث هذا».

«كأنَّني أتذكّر أنّ دودلي كان هنا».

«نعم، بعد أن أطفأت الموقد وفتحت كل شيء، ذهبت إلى البيت المجاور واتصلت بالدكتور دودلي. ورأيتُ أنّه من الأفضل ألا أقول ماهي المشكلة، لكنني طلبت منه المجيء

على الفور، لأ نَّ الإعياء بدا واضحًا عليك. سرعان ما استعدت وعيك، لكنك لم تكن متوازنًا». سرّعت أوغستا من سردها. من الواضح أنَّها كانت محرجة من أداء الموقد والحالة التي وجدتني فيها. لقد كان حادثًا بشعًا، ولم ترغب أن يعرف الجيران به.

«من الواضح أنَّكِ تتمتَّعين برباطة جأش وتحسنين التّصرُّف أيضا يا أوغستا. تقولين إنّك وجدتني على الأرض ؟ أظنُّ أنَّني كنتُ مستلقيًا هنا على الاريكة، أتذكر أنَّني استيقظت وشممت رائحة الغاز».

«لقد كنت خدِرًا، لابدّ أنّك نهضت وحاولت الوصول إلى الباب قبل أن تخور قواك. كنتُ في الطابق الثاني عندما سمعتك تسقط، لم أسمع من قبل كيف يسقط المرء، يمكنني أن أتخيّل ذلك، يبدو أنني أدركتُ من الصوت».

«أنا آسف لأنك شعرتِ بالخوف، آمل ألا يكون الغاز سبّب لكِ ألمًا في الرأس».

«العبرة بخواتيم الأمور، كما يقولون. لكنَّني أشكُّ ما إذا كان يجب أن تتحدّث يا سيدي، هلا ذهبتَ للنّوم مرّةً أخرى؟ يمكنُني البقاء حتَّى الصَّباح، إذا كنت تفضل ذلك».

«سأكون ممتنّا للغاية إذا بقيتِ الليلة معي يا أوغستا، سيشعرني ذلك بالراحة، يبدو أنَّني أشعر بالوحدة إلى حد ما لأول مرة منذ شهور».

«هذا بسبب عودة عائلتك إلى المنزل، جيد جدًّا، يا سيدي».

«إنك تحسنين التعامل مع هذا النوع من الأمور- مشاهدة الناس والجلوس معهم، أليس كذلك؟».

«حسنًا، عندما يصادف أن أخيط في منزل به مريض، كانوا يستدعونني أحيانًا للمسامرة».

جلست أوغستا إلى جانب الطاولة وتناولت الكتاب الديني الصغير ثانية، استلقى سانت بيتر، يراقبها بعينين نصف مغمضتين، متمعنًا في جنسها البشري، كما لو أنها صنفٌ لا ينتمي لعالم الرّجال والنّساء. لو أنّه تذكر مُسبقًا أنَّ أوغستا ستأتي، لكان نهض عن الأريكة فورًا، فمجرُّد تخيلها يدفع المرء للقيام بالعمل الصحيح على الفور.

فكّر أنّه لطالما كان لأوغستا تأثيرًا تصحيحيًّا وإصلاحيًّا. عندما كانت تخيط لهم- كانت تتناول الفطور معهم، فذلك جزء من نظام المنزل. تأتي باكرًا، قادمة غالبًا من الكنيسة مباشرة، تتناول إفطارها مع البروفيسور قبل أن يستيقظ باقي أفراد العائلة. تُملي عليه في كثير من

الأحيان بعض الملاحظات الحكيمة، أو شيء من التعليقات الحصيفة ليبدأ بها يومه، لم تكن تخاف على الإطلاق قول أشياء صحيحة على نحو ثقيل ومقيت، وعلى الرغم من أنّه اعتاد على وقعها المزعج، إلا أنّه كان يسرع في الخروج رغم شعوره أنها مفيدة له، إلاّ أنّه لم يكن مضطرًا لسماع مثل هذه الأقوال، التي يكفي نصفها. كانت أوغستا تشبه طعمة الأعشاب المرة؛ إنّها الجانب المنغلق من الحياة، الذي كان يهرب من مواجهته دائمًا، إلاّ أنّه عندما توجب عليه مواجهته، وجد أنّه لم يكن بغيضًا بالمجمل. حدث في أحد المرات أن اتَّصلت بالسيدة سانت بيتر، لتُعلمها بأنها بحاجة إلى يوم عطلة، بسبب حدوث وفاة في العائلة التي تخيط لديها آنذاك. عندما قابلته على المائدة في صباح اليوم التالي، كانت تبدو أكثر رزانة من المعتاد. كانت تجيب على أسئلته المهذبة أثناء تناولها أصنافًا متنوعة من مائدة الإفطار، حول المرض أو الجنازة بوقار لائق، ثم تنتقل بسرعة إلى موضوع آخر، دون أن تظهر أي سمات حزينة. كان يقول دائمًا أنّه لا يمانع في سماع أوغستا تعلن عن هذه الوفيات التي يبدو أنها تحدث معها مرارًا، لأنَّ أسلوبها في الحديث عنها يجعل الموت يبدو أقل إزعاجًا. لم تكن تُبدي أي انفعال نابع من الخوف من الموت، كانت تتحدث عن الموت وكأنها تتحدث عن شتاء قاس أو شهر مارس ماطر أو أي حزن من أحزان الطبيعة.

خطر في بال سانت بيتر، بينما كان مستلقيًا دافئًا ومرتاحًا، دون رغبة في النوم، إنّه يفضل أن تكون أوغستا معه الآن أكثر من أي شخص آخر يمكن أن يفكر فيه. كانت مُتمرّسة ورصينة، وصلبة بلا شك، وعلى الرغم من كل ما يتعلق باستقامتها وصرامتها في العمل، كانت لطيفة ومخلصة. حتى أنّه شعر بإحساس الالتزام تجاهها، إحساس عفوي، لا يمكن تحديده، لكنه حقيقيّ. وعندما تعترف بأن شيئًا ما كان حقيقيًّا، فهذا يكفي في لحظتها.

وعلى نفس هذا القدر من الصراحة مع نفسه، لم يشعر بأي التزام تجاه عائلته. لقد شاركته ليليان أفضل سنوات حياته، ما يقارب الثلاثين عامًا، قضيا سنوات مليئة بالبهجة، ولا شيء يمكن أن يغير هذه الحقيقة، لكنها سنوات مضَتْ. فقد كبُرتِ الفتاتين دون أي حاجة كبيرة إليه. كانت كاثلين تلجأ إليه دائمًا عندما تنتابها حالات معينة من المزاج المستعصي. لكن روزا موند، في رحلة التسوق تلك في شيكاغو، أظهرت له إلى أي مدى يمكن أن يكون الارتباط الأبويّ مؤلم. وإلى جانب كل هذا، كانت أوغستا موجودة؛ عالم مليء بأشياء أوغستا، اللاتي بقي متمسّكًا بها.

أمضى طوال فترة ما بعد الظهر جالسًا إلى الطاولة حيث كانت أوغستا تقرأ في تلك الأثناء، يُفكر في حياته، محاولًا معرفة أين الخطأ. ربما يكمن الخطأ في طريقة التفكير بحدّ ذاتها، لم يتعلم أبدًا أن يعيش حياته دون متعة، وسيتعيَّن عليه أن يتعلَّم، باعتباره في بلد الحظر، افترض أنّ عليه اعتياد العيش دون نبيذ. من النَّاحية النَّظرية، كان يعلم أن الحياة ممكنة، بل قد تكون ممتعة، بدون فرح، وبدون مآسٍ عاطفية. لكن، لم يخطر بباله قط أنّه قد يتعين عليه العيش على هذا النحو.

على الرغم من أنّه كان محبطًا طوال الصيف، إلا أنّه قال الحقيقة، عندما أخبر الدكتور دودلي أنّه لم يكن حزينًا. لم يفكر في الانتحار إن كان فكّر يومًا في الاختلاس. لطالما اعتبرها جريمة اجتماعية خطيرة- إلا عندما تحدث في زمن الأزمات، كشكل من أشكال الاحتجاج. ومع ذلك، عندما واجه الخمود المفاجئ، لم يشعر بأي رغبة في المقاومة، وترك الأمور تأخذ مجراها، كما كانت تسري معه في كثير من الأحيان. لم يتذكر لحظة النهوض عن الأريكة، لكنه تذكر النوبة، لحظة الاختناق الحاد المؤلم.

بدا أن هذا الانعتاق المؤقت من الوعي كان مفيدًا. لقد أطلق سراح شيء ما- ومضى: شيء ثمين للغاية، شيء، ربما، لا يستطيع التخلي عنه في وعيه. ساوره الشك فيما إذا ما كانت عائلته ستدرك أنّه ليس نفس الرجل الذي ودّعته؛ سيكونون سعيدين جدًّا بانشغالهم الكبير بأمورهم الخاصة. وفي حال كانت لامبالاته مؤذية، فلن تكون بحجم الأذية التي كان عليها من قبل. على الأقل شعرَ بالأرض تحت قدميه. كان يظن أنّه يعرف أين هو، وأنه يمكن أن يواجه بثبات بيرينغاريا والمستقبل.

النهاية